

عَوْنُ الْحَمْرِينِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

وَبَيَانِ مَا فِيهِ مِنَ الْهَدَايَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

تَأليفُ

أ. د. سليمان بن برهيسم بن عبد الله اللّاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعُلمونه

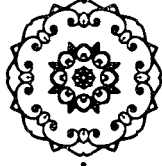
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الثامن عشر

تفسير سورة سبأ وفاطر ويونس والصفات وص

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عَوْنِ الْحَمِيدِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

١٨



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص.ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٢١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٢/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

✉ aljawzi@hotmail.com

☎ +966503897671

📌 aljawzi

📍 eljawzi

🌐 aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد
والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١ هـ

٤٣٩ ص؛ ٢٤×١٧ سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان

١٤٤١/٥٤٤٣

ديوي ٢٢٧,٣

جميع الحقوق محفوظة

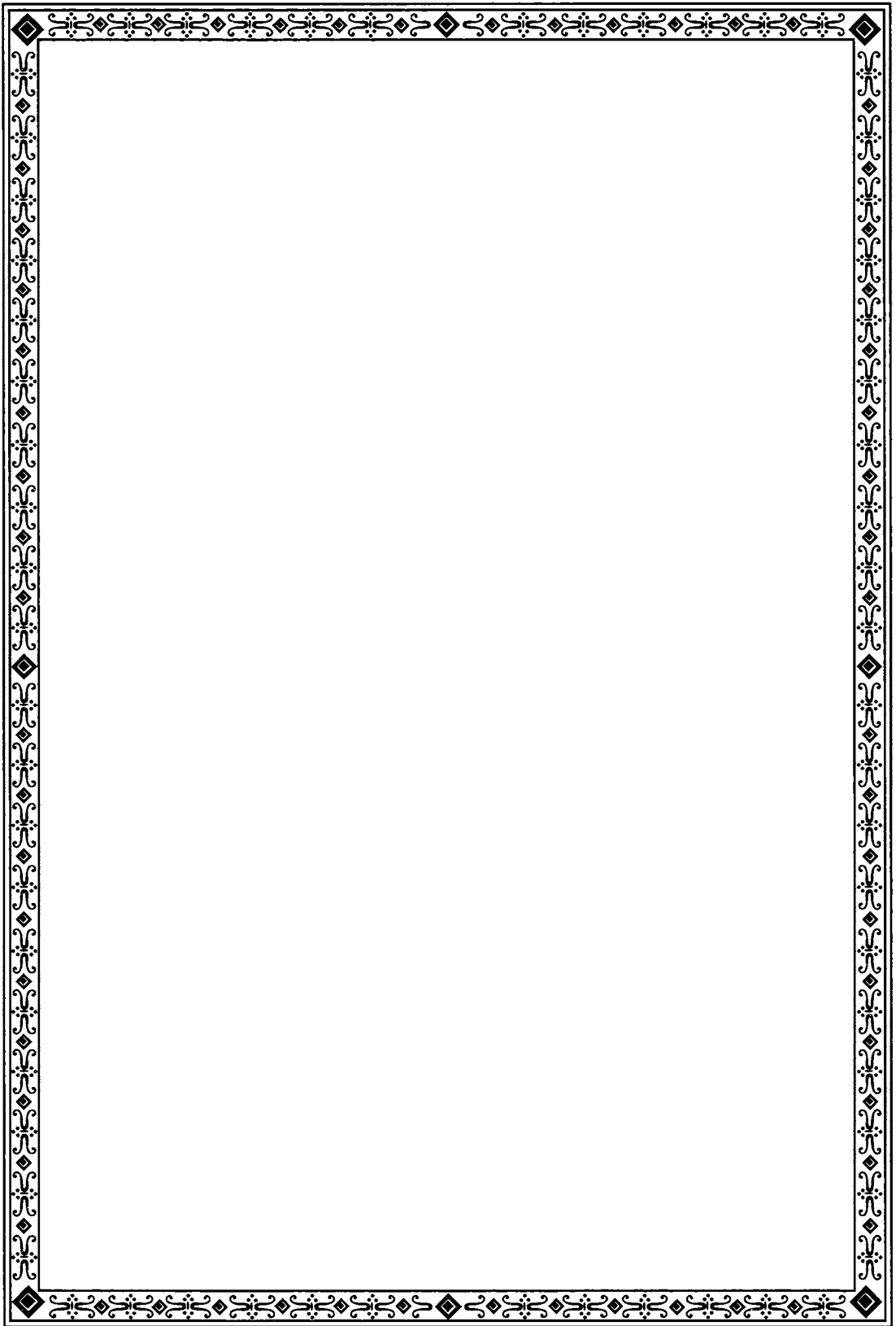
الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١ هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي
لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأٍ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سُميت: هذه السورة «سورة سبأ»؛ لذكر قصة سبأ فيها، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [الآيات: ١٥-٢١].

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة سبأ بالحمد والثناء على الله تعالى، وبيان اختصاصه وحده بما في السموات وما في الأرض، وبالحمد في الآخرة، وبيان سعة علمه جل شأنه؛ قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

٢- ذكر إنكار الكفار للساعة والقيامة والبعث، والرد عليهم، وبيان إحاطته عز وجل بعلم الغيب، وكتابته كل شيء، وبيان المقصود من البعث، وهو مجازاة العباد بأعمالهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

٣- الثناء على أهل العلم بمعرفتهم أن ما أنزل إليه ﷺ من ربه هو الحق ويهدي إلى صراط الله المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

٤- سخرية الكفار واستهزاؤهم بالرسول ﷺ وتهكمهم به، لما أخبرهم بالبعث استبعاداً له وتكذيباً به، واتهامهم له ﷺ بالافتراء على الله كذباً، أو الجنون، وبيان تمام قدرة الله تعالى على البعث، وتهديدهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْسُتُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلَّ مَرِقَةٍ إِنَّكُمْ لَفِي حَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلَقَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا نَشَأً مُخْتَصِفًا بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْفِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ .

٥- ذكر قصة داود عليه الصلاة والسلام، وما آتاه الله من الفضل، وتسخير الجبال والطيور تسبح معه، وإلانة الحديد له؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَدِغَتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ .

٦- ذكر قصة سليمان عليه الصلاة والسلام، وتسخير الريح له، وإسالة عين القطر له، وتسخير الجن يعملون بين يديه؛ قال تعالى: ﴿ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ آمْرِنَا نَذِقُهُ مِنَ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٣﴾ .

٧- حكاية قصة سبأ، وما أنعم الله به عليهم، وإعراضهم وكفرهم نعمة الله، وسلبها منهم؛ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَوْمَئِذٍ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿١٦﴾ .

٨- تحدي المشركين بأن يدعوا ما زعموه من الشركاء من دون الله، وبيان عجزهم، وأنها لا يملكون شيئاً، وبيان تفرد عز وجل بالملك، والرزق ومحاسبة الخلائق كل بعمله، وجمعهم والفتح بينهم بالحق؛ قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهيرٍ ﴿١٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلِ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ .

٩- بيان عموم رسالته ﷺ، وأن مهمته البشارة والإنذار، وليس إليه الإتيان بما يستعجلونه من العذاب، وأن لذلك موعداً لا بد من وقوعه فيه؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِن كُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعِزُّونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿١٩﴾ .

١٠- بيان تكذيب الذين كفروا بالقرآن، وبكتب الله تعالى وبيان سوء حال

الظالمين يوم القيامة، وتراجعهم القول، وإسراهم الندامة لما رأوا العذاب ومجازاتهم بما كانوا يعملون؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ نَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَصْنَافِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ۞ .

١١- بيان حال الأمم الماضية المكذبة للرسول واغترارهم بكثرة أموالهم وأولادهم؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ .

١٢- بيان أن بسط الرزق وكثرة الأموال والأولاد ليس دليلاً على ما زعمه الكفار من أن ذلك يقربهم إلى الله زلفى، من غير إيمان ولا عمل صالح، والتهديد للمكذبين، والترغيب في الإنفاق لمن بسط الله له الرزق؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الضَّعِيفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَةِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ۞ .

١٣- توبيخ المشركين يوم القيامة، وتقريعهم وتبكيتهم، وبراءة معبوداتهم منهم، وتهديدهم، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُونَا ﴿٤٠﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ۞ .

١٤- تكذيب المشركين بآيات الله إذا تتلى عليهم، واتهامهم للرسول ﷺ بأنه يريد صدهم عما كان يعبد آباؤهم، وإن القرآن ما هو إلا كذب مفترى وسحر مبين، بلا حجة عندهم ولا دليل، وتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَإِنَّا لَكُلِّفْنَا مَكْرًا وَكَذِبًا مُّفْتَرًى ۖ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَّبَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٥٥﴾

١٥ - دعوة الكفار إلى التفكير والتدبر في دعوة الرسول ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ

إِنَّمَا أَعْطَكُم بَرْحَةً إِنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفُرُدَىٰ ثُمَّ نَنْفَكُوا مَا بَصَّحِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٥٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنْ

أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رِيتُ إِيَّاهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٧﴾

بيان فزع الكفار عند أخذهم بالعذاب، وإيمانهم حين لا ينفعهم ذلك والحيلولة

بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بالكاذبين قبلهم؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ

وَأُخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٨﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ

قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٩﴾

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^①
 يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ^②
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
 السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^③ لِيَجْزِيَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ^④ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا
 مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ^⑤ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن
 رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ^⑥ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُّ عَلَىٰ رَجُلٍ بِنُبِيِّكُمْ
 إِذَا مَرَّ قُتِبَ كُلُّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ^⑦ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ^⑧ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ
 نَشَاءُ نَحْضِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطْ عَلَيْهَا سَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ
 مُّبِينٍ^⑨.

قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «ال» للجنس، وتفيد الاستغراق والاستقصاء والشمول؛ أي: الحمد المطلق لله.

و«الحمد»: وصف المحمود بصفات الكمال، والثناء عليه بذلك مع المحبة والتعظيم.
 ﴿لِلَّهِ﴾ اللام: للاختصاص والاستحقاق؛ أي: أن جميع أنواع الحمد، وأصناف
 المحامد مستحق لله تعالى، وواجب له لذاته.

وفي قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إخبار باستحقاقه جميع أنواع الحمد، وحمد منه عز وجل
 لنفسه، وأمر لعباده أن يحمده.

وقد افتتح الله عز وجل بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خمس سور، هي: الفاتحة، والأنعام،
 والكهف، وسبأ، وفاطر، كلهن مكيات، وقد وضعت في ترتيب القرآن الكريم في أوله،
 ووسطه، والربع الأخير منه، فكانت أرباع القرآن مفتوحة بـ«الحمد لله».

﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ «الذي»: نعت للفظ الجلالة؛ أي: الذي من
 أعظم ما يحمد عليه ويوصف به ويشئى عليه به: سعة ملكه، واختصاصه بجميع ما في
 السموات وما في الأرض من المخلوقات؛ خلقاً وملكاً وتدبيراً، فله الحمد على ذلك

كله في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾، أي: وله الحمد أيضًا في الآخرة على إقامة القيامة، وعلى ظهور كمال تفرد به الملك، وفي مجازاة الخلائق على أعمالهم، دون منازع، وعلى حكمته وكمال عدله، فيحمده المؤمنون على جزائه لهم بالفضل، ويحمده من سواهم على مجازاته إياهم بالعدل.

فله عز وجل الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن لَّنَا لَلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

قال ابن القيم: «وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه؛ فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصًا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزًا، والحمد مع الملك غاية الكمال، ونظير هذا: العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم. فوسَّط الملك بين الجملتين فجعله محفوفًا بحمد قبله وحمد بعده»^(١).

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التام في قدره وشرعه وجزائه، في أقواله وأفعاله، وذو الحكمة البالغة، المتقن لكل ما خلقه وشرعه، ولكل ما حكم به وقدره.

﴿الْخَيْرُ﴾: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، فاطلاعه على ظواهرها وجلالها وجليلاتها من باب أولى، الخبير بخلقها، فلا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ ولهذا قال:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: يعلم كل الذي يدخل في الأرض، من الأمطار والمياه، والبذور والكنوز والدفائن والحيوانات، والأموات وغير ذلك، ويعلم جميع ما أُودِعَ فيها من المعادن، ودُحِيَ فيها من الخيرات.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، أي: ويعلم الذي يخرج من الأرض من النباتات والأشجار

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٣.

والثمار، والعيون والمعادن والخيرات، والدواب، وغير ذلك.
﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: ويعلم الذي ينزل من السماء، من وحيه إلى أنبيائه،
ومن الملائكة والأرزاق والأقدار، والأمطار والثلوج والبرد والصواعق، وغير ذلك.
﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، أي: ويعلم الذي يعرج في السماء؛ أي: يصعد فيها، من
الملائكة، والأعمال الصالحة، وأرواح الشهداء والمؤمنين.
﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بخلقه؛ أي: ذو الرحمة الواسعة، التي هي صفة ذاتية ثابتة له عز
وجل، وصفة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة
لجميع خلقه.

﴿الْغُفُورُ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، فيغفر ذنوب التائبين إليه،
ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَعْنَاتٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
ثُمَّ آهَتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا
مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال
تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة؛ كما قال ﷺ: «يدني الله
المؤمن يوم القيامة، فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقول
الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(١).

قال ابن القيم: «وقدم «الرحيم» في هذا الموضع؛ لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر
«الرحيم» بعده؛ ليقترن به، فيطابق قوله: ﴿رَبِّنَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةٌ وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].
ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة؛ لتضمنها دفع الشر، وتضمن ما قبلها جلب الخير،
ولما كان دفع الشر مقدمًا على جلب الخير قدم اسم «الغفور» على «الرحيم» حيث وقع، ولما
كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه «الرحيم»؛ لأجل ما قبله قدم على
«الغفور»^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣ / ٤٣٤.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٧﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾، أي: لا تأتينا القيامة؛ أي: لا بعث ولا معاد، ولا حساب ولا جزاء.

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾، أي: قل لهم يا محمد: بلى، ﴿وَرَبِّي﴾.

الواو: للقسم؛ أي: أقسم بربي.

﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، وقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالخطاب مع أنها آتية لجميع الناس؛ لأنها في مقابل قولهم: ﴿لَا تَأْتِينَا﴾، ولتهديدهم؛ لأن إتيانها مؤذن بعذابهم.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ورويس بالرفع: «عالم»، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بالخفض: ﴿عَلِيمٍ﴾، وقرأ حمزة والكسائي بحذف الألف بعد العين وفتح اللام وتشديدها: «علام» على وزن «فعال». والغيب: ما غاب عن أعين الخلق وحواسهم.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ قرأ الكسائي بكسر الزاي: «لَا يَعْزُبُ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، والجملة: حال مؤكدة للضمير في ﴿عَلِيمٍ﴾.

أي: لا يغيب عنه وعن علمه زنة ﴿ذَرَّةٍ﴾ وهي: النملة الصغيرة، أو بيضتها. ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ الإشارة إلى ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾، أي: ولا أصغر من مثقال الذرة، ولا أكبر منه.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا مثبت ومدون ومضبوط ﴿فِي كِتَابٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، ﴿مُبِينٍ﴾، أي: بين واضح ظاهر، مبين ما كتب فيه.

فالأجسام والعظام وإن بليت وتمزقت وتفرقت، فهو عالم بجميع أجزائها، يعيدها كما بدأها أول مرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَدَعَلِمْنَا مَا تَنْفُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعَدَدْنَا كِتَابَ حَفِيطٍ ﴿٩﴾﴾

[ق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

﴿لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية.

لما أثبت وأكد قيام الساعة بين الحكمة من ذلك؛ وهي مجازاة الخلائق بأعمالهم. قوله: ﴿لَيَجْزِيَنَّ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن يجزي ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم؛ إخلاصاً لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ﴾ خاصة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهاً بهم، ورفعاً لشأنهم. ﴿مَغْفِرَةٌ﴾، أي: مغفرة واسعة من ربهم لذنوبهم، بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها، ونكر «مغفرة»: للتعظيم؛ أي: مغفرة عظيمة واسعة.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أي: ولهم رزق كريم، ونكر «رزق» ووصفه بقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ تعظيماً له، والرزق: العطاء؛ أي: وعطاء واسع من ألوان النعيم في الجنة، لا يقدر قدر كميته وكيفيته إلا من وهبهم إياه، ووصفه بأنه كريم، وهو الكريم سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بحذف الألف بعد العين مع تشديد الجيم: «مُعْجِزِينَ»، وقرأ الباقون بإثبات الألف وتخفيف الجيم: «مُعْجِزِينَ». أي: والذين سعوا في إبطال آياتنا، والصد عنها، والتكذيب بها، زاعمين بأنهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها؛ كما في قولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، فلم يستطيعوا.

ومعاجزين الله بأن يفتوتوا ويقتلوا من عذابه، وهيئات لهم ذلك! ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بضم الميم: ﴿أَلِيمٌ﴾، صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾، وقرأ الباقون بخفضها: «أَلِيمٌ» صفة لـ ﴿رَّجْزٍ﴾. أي: أولئك لهم خاصة عذاب من أسوأ العذاب وأشدّه ألماً، والرجز: أسوأ العذاب

وأشده ألبا.

﴿وَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ لما ذكر إنكار الذين كفروا قيام الساعة؛ لتكذيبهم بما أنزل الله على رسوله، ذكر أن الذين أوتوا العلم - وهم المؤمنون بالله وآياته - يرون أن ما أنزل الله على رسوله ﷺ هو الحق.

قوله: ﴿وَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، أي: ويعلم؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَيْهِ قَرِيبًا ۗ﴾ [المعارج: ٦، ٧]؛ أي: ونعلمه قريبًا.

فالمعنى: ويعلم الذين أعطاهم الله العلم والمعرفة به وبآياته.

واختير «يرى» هنا دون «يعلم»؛ للتنبية على أنه علم يقيني بمنزلة العلم بالمرئيات التي علمها ضروري؛ لأنه إذا جاءت «يرى» بمعنى: «يعلم» دلت على أن العلم في أعلى مقامات العلم، وأنه صار كالعلم بالمشاهدات.

﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أي: الذي أنزل إليك يا محمد من ربك من الوحي في الكتاب والسنة.

﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ «هو» ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد؛ أي: هو الحق الثابت؛ لصدق من جاء به، وصدق أخباره، وعدل أحكامه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، دون ما عليه أهل الشرك فهو باطل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

و﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ عام في كل من أعطاهم الله العلم من علماء أهل الكتاب المنصفين، وعلماء هذه الأمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الحج: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [الغنكبوت: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فهم يعلمون أنه الحق، ويتبعونه، ويدعون إليه، ويشهدون بذلك في الآخرة تبييتًا للمكذبين؛ كما في قولهم: ﴿لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَالْكَفَّارُ كُفْرًا لَا تَعْمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]، وقولهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٦].

[٥٢]، وقولهم: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [الله الذي له رما في السموات وما في الأرض] [إبراهيم: ١، ٢].

أي: ويدل ويرشد إلى صراط الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ ذي العزة والقوة والقهر والغلبة والامتناع، الذي لا يغالب ولا يناع.

﴿الْحَمِيدِ﴾ في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، المحمود في ذلك كله. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُدْبِكُكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مُمْرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [٧] أفترى على الله كذباً أم بهه جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد [٨] أفترى إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب [٩].

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: سخرية واستهزاء بالرسول ﷺ، وتكديماً لرسالته، واستبعاداً لما أخبر به من إتيان الساعة، وبعث الأجساد.

أي: يقول هذا رؤسائهم لعامتهم ودهمائهم، ولمن لم يبلغه قول النبي ﷺ منهم، وللوافدين عليهم في الموسم؛ كما كانوا يعمدون في المواسم إلى تحذير الوافدين إليهم منه ﷺ ومن دعوته بقولهم: ساحر، ونحو ذلك.

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ الاستفهام: للتعجب والسخرية؛ أي: هل نرشدكم ونعرفكم ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون النبي ﷺ، والتنكير للتحقير.

﴿يُدْبِكُكُمْ﴾، أي: يخبركم، والنبأ: الخبر العظيم الهام.

﴿إِذَا مَرَّكُمْ﴾، أي: إذا تمتم وتمزقت أجسادكم، وتفرقت في الأرض.

﴿كُلُّ مُمْرَقٍ﴾ «كل» للتكثير؛ كما في قوله: ﴿وَأَوْجَاءُ تَهُمُّ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: ٩٧]؛

أي: تمزقت أوصالكم وأجزاءكم كل تمزق، وتفرقت كل تفرق، وصارت تراباً ورميماً.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: إنكم تخلقون خلقاً جديداً، وتعودون أحياء

ترزقون بعد ذلك.

وكانه ﷺ بإخباره إياهم ببعثهم بعد الموت والبلية، صار في نظرهم فرجة يتفرجون

عليه، وأعجوبة يسخرون منه؛ ولهذا قالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ الاستفهام للاستغراب والتعجب؛ أي: إنه في إخباره بهذا الخبر العجيب لا يخلو حاله من أمرين: إما أن يكون ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: اختلق على الله كذبًا؛ تعمداً منه وجرأة على الله، فزعم أن الله أوحى إليه بذلك، وهو كاذب.

﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ «أم»: حرف عطف؛ أي: أم به جنون، فلا يستغرب منه ذلك؛ كما في قولهم: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ «بل» للإضراب الإبطالي؛ أي: ليس الأمر كما زعموا، بل هو ﷺ الصادق المصدوق فيما أخبرهم به، اللبيب الرشيد في عقله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ﴾ **مَا** بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٦٦﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم بِالْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وإنما حملهم على هذا الزعم الباطل كونهم لا يؤمنون بالآخرة؛ أي: كفار لا يصدقون بالآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء، الأمر الذي جعلهم في العذاب والشقاء في الدنيا والآخرة، وجعلهم تائبين عن الحق، بعيدين عنه كل البعد في الدنيا، وتائبين عن طريق الجنة في الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الاستفهام: للتقرع؛ أي: أفلم ينظروا ويتفكروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: إلى الذي أمامهم، وإلى الذي خلفهم، ﴿وَمِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من السماء المظلة عليهم، والأرض الممهدة لهم، وما فيها من المخلوقات الدالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا بِأَيْدِينَا وَالنَّوْصُونَ ﴿٧٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٨].

أي: فيستدلون بذلك على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته على بعث الناس خلقاً جديداً.

﴿إِنْ شَاءَ نَحْنُ يَهْدِيهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قرأ حمزة والكسائي

وخلف بالياء المثناة في الثلاثة: «يَشَأُ»، «يُخْسِفُ»، «يُسْقِطُ»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نَشَأُ﴾، ﴿نُخْسِفُ﴾، ﴿نُسْقِطُ﴾.

أي: إن نشأ ونريد كونًا ﴿نُخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ من تحتهم، فنغيبهم فيها. ﴿أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾، أي: قطعًا من العذاب ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ من فوقهم، بسبب كفرهم وضلالهم وعدم إيمانهم، وسخريتهم بالرسول ﷺ، وإنكارهم البعث. أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك؛ لتنام قدرتنا عليهم، ولكننا نمهلهم؛ لحلمنا، ولا نمهلهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: إن في النظر والتأمل فيما أمامهم وما خلفهم، مما يشاهدونه من السماء والأرض من هذه المخلوقات العظيمة، وما بينهما من المخلوقات، وما هم فيه من النعم ﴿لَا يَبْهَتُونَ﴾ اللام: للتوكيد؛ أي: لدلالة واضحة ظاهرة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته على بعث الأجساد وإعادة خلقًا جديدًا؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّثِيبٌ﴾، أي: تائب مقبل على الله عز وجل بطاعته.

الفوائد والأحكام:

- ١- ثبوت الحمد الكامل لله تعالى، واختصاصه باستحقاق ذلك وحده في الدنيا والآخرة؛ لواسع ملكه، وتفرد به بالملك والخلق والتدبير، وبصفات الكمال؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾. وفي هذا إثبات حمده عز وجل لنفسه، وأمر عباده أن يحمده.
- ٢- إثبات سعة ملك الله عز وجل، واختصاصه بجميع ما في السموات وما في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٣- شرف السماء على الأرض؛ لهذا تقدم السماء في الذكر على الأرض غالبًا.
- ٤- ظهور استحقاقه واختصاصه بالحمد الكامل في الآخرة؛ لظهور كمال تفرد

بالملك، ومجازاته الخلائق بأعمالهم، والاقتصاص للمظلوم من الظالم، وجزائه المؤمنين بفضله، ومجازاة الكافرين بعدله، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾.

٥- إثبات الدار الآخرة، وبعث الناس خلقاً جديداً بعد الموت والبلى؛ لقوله تعالى: ﴿الْآخِرَةَ﴾، وقوله: ﴿بُنَيْتُكُمْ إِذَا مَرَّ قَسَمٌ كُلِّ مُمْرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم له عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات صفة الحكمة له عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «الخبير»، وصفة الخبرة والاطلاع والعلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْخَبِيرُ﴾.

٨- علم الله تعالى الواسع المحيط بكل ما يدخل في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد فيها؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ لأنه الخالق المالك المدبر لذلك كله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

٩- إثبات اسم الله عز وجل «الرحيم»، وأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ رحمة خاصة بعباده المؤمنين، ورحمة عامة لجميع خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾.

١٠- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْغَفُورُ﴾، وصفة المغفرة الواسعة لذنوب عباده؛ لقوله تعالى: ﴿الْغَفُورُ﴾.

١١- جمعه عز وجل لعباده المؤمنين بين إعطائهم المطلوب برحمته لهم، وإزالة المرهوب بمغفرته لذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

١٢- إنكار الذين كفروا للبعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾.

١٣- أن إنكار البعث والتكذيب به كفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٤- إثبات قيام الساعة، وأمره له ﷺ بالإقسام بربوبيته تعالى له على ذلك تأكيداً لقيامها، وتعظيماً لشأنها، وأنها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ

وَرَبِّي لَتَأْتِيََنَّكُمْ عَلِيمٌ الْعَيْبِ ﴿١٠﴾.

- ١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي﴾، وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره، وخطاب الله عز وجل له.
- ١٦- إحاطة علم الله عز وجل بكل شيء، فلا يغيب عنه شيء قل أو صغر، وكتابته ذلك كله في اللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ الْعَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.
- ١٧- إثبات اللوح المحفوظ؛ وأن الله كتب فيه كل شيء وأبانه.
- ١٨- إثبات الحكمة في أفعال الله، وأن الحكمة من إتيان الساعة وإقامتها مجازاة الناس بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ① وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾.
- ١٩- أنه لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.
- ٢٠- فضل الإيمان والعمل الصالح، والترغيب في ذلك؛ لأن الله نوه بشأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم المغفرة والرزق الكريم الواسع في الجنة، بزوال المرهوب، وحصول المطلوب.
- ٢١- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم المغفرة على الرزق الكريم في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.
- ٢٢- سعي الكفار الحثيث؛ لإبطال آيات الله، وإطفاء نوره، وهيئات لهم ذلك.
- ٢٣- الوعيد والتهديد للذين يسعون لإبطال آيات الله، والصد عن دين الله بالعذاب الشديد.
- ٢٤- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.
- ٢٥- علم الذين أعطاهم الله تعالى العلم والمعرفة به وبآياته؛ أن ما أنزله على رسوله ﷺ من الوحي هو الحق الثابت والصدق، الهادي إلى صراط الله المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِي الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ②.

٢٦- أن من عارض ما أنزل على الرسول ﷺ من الكتاب والسنة، وقدم العقل على ذلك، فليس من أهل العلم لا في قليل ولا كثير.

٢٧- فضل العلم وأهله العارفين بالله وما يجب له؛ لأنهم هم الذين يعرفون الحق من الباطل.

٢٨- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ﴾.

٢٩- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾.

٣٠- إثبات رسالته ﷺ، ووحى الله تعالى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ﴾.

٣١- الترغيب في اتباع ما أنزل عليه ﷺ من الوحي؛ لأنه هو الحق، ويهدي إلى صراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

٣٢- إثبات اسم الله تعالى «العزیز»، وأنه سبحانه ذو العزة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ﴾.

٣٣- إثبات اسم الله تعالى: «الحميد»، وأنه سبحانه الحميد في صفاته وأقواله وأفعاله، وفي شرعه وقدره، المحمود في ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدِ﴾.

٣٤- سخرية الذين كفروا بالنبي ﷺ، وتحقيرهم له، وتكذيبهم برسالته، وإنكارهم ما أخبرهم به من بعثهم بعد البلى خلقاً جديداً؛ استبعاداً لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُ عَلَى رَجُلٍ يُبْتَغَىٰ إِذَا مَرَّ قَتْمٌ كُلِّ مَمَرٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَمْ دَاكُكُمْ عِظْمًا وَّرَفْنَا أَمْ نَالِ الْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩، ٩٨].

٣٥- اتهامهم له ﷺ بالافتراء والكذب على الله تعالى فيما أخبر به من البعث، أو بالجنون؛ لقولهم: ﴿أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾، وهذا ما درج عليه أعداء الرسل منذ القدم وإلى قيام الساعة.

٣٦- إقرار كفار قريش بالله؛ لقولهم: ﴿أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

٣٧- إبطال ما اتهموه به ﷺ، وأنه ليس الأمر كما زعموا، وأنه إنما حملهم على هذا

الزعم الباطل عدم إيمانهم بالآخرة، الذي جعلهم في العذاب، وأضلهم وأبعدهم عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾.

٣٨- الإنكار عليهم في عدم نظرهم وتأملهم فيما أمامهم وما خلفهم من السماء والأرض وما فيها من المخلوقات، ودلائل عظمة الله تعالى، وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

٣٩- تهديدهم بالعذاب، من تحتهم بخسف الأرض بهم، أو من فوقهم بإرسال قطع من السماء عليهم، فلا مفر لهم ولا مناص، ولا محيد ولا محيص؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَاءُ نُخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

٤٠- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية.

٤١- وجوب النظر والتأمل في آيات الله في السماء والأرض، وما فيها من المخلوقات العظيمة، وأن ما يحصل من الخسف والزلازل والنوازل كل ذلك بأمر الله تعالى ومما يخوف الله به عباده.

٤٢- أن في النظر والتأمل في السماء والأرض وما فيها من المخلوقات لدلالة واضحة لكل عبد منيب إلى ربه، على عظمته عز وجل، ووحدانيته، وتمام قدرته على بعث الأجساد وإعادتها خلقاً جديداً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

٤٣- إثبات عبودية المنيبين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ

مُنِيبٍ﴾.

٤٤- أنه لا يعتبر بالآيات وينتفع بها إلا من وفقه الله تعالى للإجابة إليه وطاعته؛

لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٥﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦﴾ وَاسْلَيْمَنْ الرِّيحَ غُدُوها سَهْرٌ وَرَوْحُها سَهْرٌ وَأَسْلَيْمَنْهُ رَعِينُ الْفِطْرِ وَمَنْ لَجِنٌ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَنْزِعُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَتَمَكِيلٍ وَجِقَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا فَضَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٥﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ﴾ داود: هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو بعد موسى؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، إلى قوله: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

أي: ولقد أعطينا عبدنا ونبينا ورسولنا داود ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾.

قدم نسبة الفضل إليه بقوله: ﴿مِنَّا﴾ تعظيمًا له؛ لأن العطاء يكون على قدر من أعطاه، ولا أعظم منه عز وجل، ولا أفضل من عطائه؛ ولهذا نكر «فضلاً»؛ أي: فضلًا عظيمًا في كميته وكيفيته؛ لأنه من العظيم سبحانه.

والفضل: الزيادة من الخير والإحسان؛ من النبوة والملك، والعلم النافع والعمل الصالح، والنعم الدينية والدنيوية.

﴿يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ روي عن روح وعن يعقوب: «وَالطَّيْرُ» بالرفع، ووردت عن عاصم وأبي عمرو، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ على المعية.

وهذا نداء منه عز وجل للجبال والطيور، وأمر وتسخير منه لها بالتأويب معه؛ أي:

وقلنا: ﴿يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾.

والتأويب: ترجيع التسييح؛ أي: سبحي ورجعي مسبحة معه إذا سبح، وقد كان الله أعطاه صوتًا حسنًا جميلًا يطرب الأسماع، ويشنّف الأذان؛ ولهذا قال ﷺ لما سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ القرآن من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، قال: «لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود»^(١).

﴿وَأَلَّأَلَهُ الْحَدِيدَ﴾، أي: وجعلنا له الحديد ليُنَّا يصنع منه ما يشاء من الدروع وغير ذلك.

قال المفسرون: كأنه لا يحتاج إلى أن يدخله نارًا، أو يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، وهذا أدل على عظمة الله، وتمام نعمته على داود؛ لأن فيه معجزة وآية. وقيل: المراد: يسرنا له الأسباب التي تلين الحديد، وهيأناها له. ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ هذه هي الحكمة من كونه عز وجل ألان له الحديد.

و«أن» تفسيرية؛ أي: وأوحينا إليه ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ﴾، أي: أن اصنع دروعًا تامات واسعات من الحديد للمجاهدين في سبيل الله. قيل: وكان هو أول من صنع الدروع. والدرع: عبارة عن قميص يُلبس كما يلبس الثوب، يصل كفه إلى العضد فقط، ينسج من حلق صغيرة متداخلة مشبوك بعضها ببعض.

﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ التقدير: جعل الشيء على مقدار وقدر مناسب. والسردي: نسج دروع الحديد وصنعها، وتقدير مساميرها وحلقها؛ بحيث تكون متناسبة، وتركيب بعضها ببعض لتسد شقوق الدرع، فهي للحديد كالخياطة للثوب، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. والدرع توصف بالمسرودة، كما توصف بالسابغة، قال أبو ذؤيب الهذلي^(٢):

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حسن الصوت بالقرآن ٥٠٤٨، ومسلم في صلاة المسافرين، استحباب

تحسين الصوت بالقرآن ٧٩٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٥؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوان الهذليين» ١ / ١٩.

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أمر لآل داود كلهم؛ كما في قوله بعد هذا: ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، أي: واعملوا عملاً صالحاً خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه؛ شكرًا لله تعالى على ما أعطاكم من الفضل الكبير والنعمة.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بعملكم، أو بالذي تعملونه ﴿بَصِيرٌ﴾، أي: مطلع عليه، عالم به، لا يخفى علي منه شيء، وفي هذا وعد ووعد.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَلَيَمَنَّ الرِّيحُ عُذُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِبِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٤﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ وَمَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبَةٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانِ كَأَلْبَابٍ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾.

لما ذكر عز وجل ما أعطاه لداود عليه السلام من الفضل، أتبع ذلك بذكر ما أعطاه لابنه سليمان عليه السلام.

قوله: ﴿وَلَسَلَيَمَنَّ الرِّيحُ﴾ روى أبو بكر عن عاصم: «الرَّيْحُ» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿الرَّيْحُ﴾.

أي: وسخرنا لسليمان بن داود عبد الله ونبيه ورسوله ﴿الرَّيْحَ﴾ وهي الهواء، وذلك لأنها له تجري بأمره، وتحمله وبساطه وجنوده، وجميع ما معه، يأمرها فتتجه به إلى أي جهة أراد شمالاً أو جنوباً، شرقاً أو غرباً، يأمرها فتسرع، ويأمرها فتتد؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ﴿١٦﴾ [ص: ٣٦].

﴿عُذُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، أي: غدوها وذهابها أول النهار حتى الزوال ومتتصف النهار مسيرة شهر، ورواحها ورجوعها من الزوال ومتتصف النهار حتى الليل مسيرة شهر، فتسير في اليوم مسيرة شهرين للسير المعتاد، وتقطع المسافة البعيدة جداً في مدة يسيرة جداً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَلَيَمَنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ ﴿الأنبياء: ٨١﴾.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ «أسلنا»: أذبنا، و«القطر»: النحاس؛ كما في قوله: ﴿ءَاتُونِي أُفْعَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]؛ أي: نحاساً مذاباً.

والمعنى: وأذبنا له عين النحاس، وجعلناه يسيل يصنع منه ما يشاء من الأواني وغيرها، وهذا قد يفوق ما أعطيه داود في قوله: ﴿وَأَلَّكَ لَهُ الْحَدِيدَ﴾.

﴿وَمِنَ الْجِنَّ﴾، أي: وسخرنا له بعض الجن، و«الجن»: عالم غيبي خلقهم الله من مارج من نار؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

﴿مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ «من»: موصولة؛ أي: الذين يعملون بين يديه؛ أي: بين يدي سليمان؛ أي: أمامه، يخدمونه ويطيعونه.

﴿بِأَذْنِ رَبِّهِ﴾، أي: بأمر ربه عز وجل الكوني، وتسخيره إياهم له عليه السلام، أو بأمره الشرعي؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾، أي: ومن يعدل ويميل من الجن عن أمرنا الشرعي، ويخرج عن طاعتنا.

﴿نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: نذقه من عذاب النار المستعرة في الآخرة، وقيل: في الدنيا عقوبة عاجلة له.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ وَمَا يَشَاءُ﴾ هذا كالتفصيل لقوله: ﴿وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. أي: يعملون له الذي يشاءه من الأعمال والصناعات.

﴿مِنَ مَّحْرَبٍ﴾ «من» بيانية، و«محارب»: جمع «محراب»، وهي: القصور الحصينة والمسكن الحسنة، ومساجد العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَمَّاكَ نَبْؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١-٢٢].

﴿وَتَمَكِّيلٍ﴾، أي: صوراً من نحاس وزجاج ورخام، وغير ذلك.

ولا يلزم أن تكون هذه التماثيل صوراً لذوات الأرواح كالإنسان والحيوان، حتى يقال: إنها كانت مباحة عندهم؛ لأنها مطلقة، وقد حرم الإسلام تصوير تماثيل لذوات الأرواح؛ قطعاً لدابر الشرك.

﴿وَجِفَّانٍ﴾: جمع «جفنة»، وهي الصحيفة والقصعة التي يقدم فيها الطعام للضيوف.

﴿كَالْجَوَابِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«الجواب»: جمع «جابية»، وهي البركة والحوض الذي

يجبى فيه الماء.

﴿وَقُدُورٍ﴾، أي: وقدر كبيرة عظيمة لطبخ الطعام، ﴿رَأْسِيَّتٍ﴾: ثابتات لا تتحرك

ولا تنزل من فوق أثافيها؛ لعظمها، وتدارك الطبخ فيها صباح مساء؛ لكرمه عليه السلام.
﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾، أي: وقلنا: اعملوا يا آل داود، والمراد بهم: داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة عليهم جميعاً؛ أي: اعملوا الطاعات والأعمال الصالحة.

﴿شُكْرًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أو مصدر في موضع الحال، أو مفعول لأجله؛ أي: لأجل شكر الله على ما أنعم به عليكم من النعم الدينية والدينية. والشكر يكون بالعمل بالجوارح، وبالقول، وبالقلب؛ كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا^(١)

وفي قوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ إشارة إلى أنهم قائمون بالعمل شكرًا لله تعالى؛ كما كان هذا حال داود عليه السلام؛ ولهذا قال نبينا ﷺ: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه. وإن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود؛ كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ولا يفر إذ لاقى»^(٢).

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ لنعمتي، العامل فيها بطاعتي، وهذا إخبار عن الواقع؛ فإن الشكور لنعم الله تعالى بنسبتها إليه، واستعمالها في طاعته قليل من الخلق.

وأكثر الخلق على الكفر بنعم الله تعالى بنسبتها إلى غيره، واستعمالها في معصيته، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وقال بعض السلف: «ولا تستوحش من الحق لقله السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين»^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ

(١) البيت في «ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» ٢٧٧/٥ بلا نسبة، ونسب في «المفضليات» ص ٣٤٤ لبشر.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣١، ومسلم في الصيام، النهي عن صوم الدهر ١١٥٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٤٨، وابن ماجه في الصيام ١٧١٢؛ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) سبق تحريجه.

فَلَمَّا حَزَّتْ جَنَّاتُ الْجِنِّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٠﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا قَاصَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾، أي: قدرنا عليه الموت فمات.

﴿مَادَّلَهُمْ﴾، أي: ما دل الجن الذين كانوا يدعون علم الغيب، وما عرفهم.

﴿عَلَى مَوْتِهِ﴾، أي: على أنه مات ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«دابة

الأرض»: هي الأرضة التي تأكل الخشب وتنخرها وتلفها.

﴿تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بألف بعد السين من غير همز:

«مِنْسَاتَهُ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿مِنْسَاتَهُ﴾.

أي: تأكل عصاه التي كان متوكئاً عليها.

﴿فَلَمَّا حَزَّتْ﴾، أي: وقع وسقط على الأرض بعد أن أكلت الأرضة عصاه.

قيل: وكان ذلك بعد مضي نحو سنة على موته؛ ولهذا قال:

﴿تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ﴾ روى رويس بضم التاء والباء وكسر الياء على ما لم يسم فاعله:

«تَبَيَّنَتْ»، وقرأ الباقون بفتح التاء والباء والياء: ﴿تَبَيَّنَتْ﴾، أي: تبين وظهر للجن

وانكشف لهم وعلموا:

﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ «أن» وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول

﴿تَبَيَّنَتْ﴾.

أي: تبين للجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما كانوا يزعمون ويتوهمون، ﴿مَا

لَبِثُوا﴾، أي: ما مكثوا وبقوا واستمروا، ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، أي: في العمل الشاق

المذل في خدمة سليمان عليه السلام، يحسبونه حياً وقد مات منذ مدة طويلة.

أي: لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أن سليمان قد مات، وما لبثوا في العذاب

المهين، فأراد الله عز وجل أن يبين لهم ولغيرهم أنهم لا يعلمون الغيب.

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بعظم ما أعطاه الله عز وجل لعبده ونبيه ورسوله داود عليه السلام من

الفضل؛ من النبوة والملك العظيم، والنعم الدينية والدنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِمَّا فُضِّلَ﴾ الآية.

٢- تسخير الجبال والطير تُرْجَع التسييح معه؛ لقوله تعالى: ﴿يَجِبَالٌ أَوِيٌّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾.

٣- إلانة الحديد وتطويعه له؛ يصنع منه ما يشاء، وتعليمه صنع الدروع السباغات، والتقدير في سردها وإحكامها، وفي ذلك دلالة على تمام قدرة الله تعالى وعظيم فضله ومته على داود؛ لقوله تعالى: ﴿وَالنَّالَةَ الْحَدِيدَ ۖ أَنْ أَعْمَلَ سَلِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾.

٤- ينبغي لمن عمل عملاً أن يتمه ويتقنه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَلِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾، ورُوي في الحديث: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»^(١).

٥- وجوب شكر نعم الله تعالى بالعمل الصالح؛ لأن الله أمر آل داود بذلك؛ لما أولاهم من الفضل والنعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾.

٦- أنه لا بد من كون العمل صالحاً؛ خالصاً لله عز وجل، موافقاً لشرعه.

٧- علم الله تعالى واطلاعه وبصره التام بأعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفي هذا وعد لمن عمل صالحاً، ووعد لمن عمل بخلاف ذلك.

٨- التنويه بشأن سليمان نبي الله تعالى ورسوله عليه السلام، وما منحه الله من الملك العظيم الذي لا ينبغي لأحد من بعده، وتسخير الريح له تحمله وبساطه ومن معه، وتقطع به المسافات الطويلة في مدة يسيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَسَلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحها شَهْرٌ﴾.

٩- إسالة عين النحاس وإذابتها له؛ يعمل منها ما يشاء من الأواني، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾.

١٠- تسخير الجن له، يعملون تحت خدمته بإذن ربه، وتهديد من يعدل عن أمره عز وجل ويخرج عن طاعته بعذاب السعير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» ١/ ٢٧٥ (٨٩٧)، وأبو يعلى الموصلي في «مسنده» ٧/ ٣٤٩

(٤٣٨٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٧/ ٢٣٢ (٤٩٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها. قال

بعضهم: «وفي إسناده لين».

١١- إثبات وجود الجن، وما أعطاهم الله من القدرات العظيمة، وتسخيرهم للعمل للإنس، إما بالخير، وإما بالشر، وأنهم قد يشاهدون أحياناً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

١٢- إثبات إذن الله تعالى الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ وهو محتمل للكوني والشرعي.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِ﴾.

١٤- أن الجن مكلفون ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم كالإنس، فمن خالف أمر الله دخل النار، ومن أطاع الله دخل الجنة، وهم في أصول الدين كالتوحيد مكلفون كالإنس بلا خلاف، أما في فروع الشرائع فقد يختلفون عن الإنس.

١٥- إثبات وجود النار، وإعدادها لمن خالف أمر الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ذُوقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

١٦- إثبات المشيئة للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾، وفي هذا رد على الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبور على أفعاله.

١٧- قيام الجن بتسخير الله تعالى وإقداره لهم بعمل ما يشاءه سليمان عليه السلام من محاريب ضخمة، وتمائيل جميلة، وجفان واسعة، وقدور ثابتة، وغير ذلك؛ لما أعطاه الله من ملك لا ينبغي لأحد من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾.

١٨- كرم سليمان عليه السلام، وبذله الطعام والضيافة للناس، بدلالة قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾.

وهذا أدل على الكرم من قولهم عن الكريم: «كثير الرماد».

١٩- كمال قدرة الله تعالى وعظم فضله على داود وسليمان عليهما السلام، فسخر لداود الجبال الجامدة، والطيور السابحة، تسبح معه، وألان له الحديد يعمل منه الدروع السابغات، ويحكم صنعها، وسخر لسليمان الريح تغدو وتروح به وبمن معه، وتقطع بهم المسافات الطويلة بمدة يسيرة، وأذاب له عين النحاس، وسخر الجن في خدمته يعملون بين يديه ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كبيرة، وقدور راسية عظيمة.

- ٢٠- فضل داود وسليمان عليهما السلام؛ حيث من الله عليهما بالنبوة والملك، وأعطاهما من النعم الدينية والدنيوية ما يجلب عن الحصر؛ لشكرهما نعم الله تعالى.
- ٢١- وجوب شكر نعم الله تعالى بالاعتراف له بها باطنًا وظاهرًا، واستعمالها في طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾.
- ٢٢- أن العمل بطاعة الله تعالى وشكر نعمه من أعظم أسباب ترادفها وكثرتها وقرارها، وهكذا كان حال آل داود عليهم السلام، قابلوا نعم الله بالطاعة والشكر، فأدرها الله عليهم وغمرهم بها.
- ٢٣- أن الشكر يكون بالعمل؛ كما يكون بالقول وبالقلب؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾.
- ٢٤- قلة الشكور من الخلق لنعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، فلا ينبغي أن يغتر بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على الكفر والضلال.
- ٢٥- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِي﴾.
- ٢٦- أن كل نفس ذائقة الموت؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾.
- ٢٧- إبطال زعم الجن أنهم يعلمون الغيب، وتبينهم بأنفسهم بطلان ذلك؛ للبتهم في خدمة سليمان عليه السلام بالعمل المهين بعد موته، حتى أكلت الأرضه عصاه فسقط على الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٦﴾﴾.
- ٢٨- تسمية العمل الشاق عذابًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. وفي الحديث: «السفر قطعة من العذاب»^(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨٠٤، ومسلم في الإمارة ١٩٣٧، وابن ماجه في المناسك ٢٨٨٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۚ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ
 وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ ۚ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
 جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۚ وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا
 الْكُفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا
 لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِمْ وَمَا عَنِ الْأَشْجَارِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا ۚ فَمَا أَصْبَرُوا أَن تَقْرَأَهُمْ حَدِيثَ ۖ وَمَرَّقَهُمْ
 كُلُّ مَمْرَقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا
 مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْتَمِرُ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنهَا فِي
 شَاكٍ ۚ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢٠﴾ ۝

أتبع ما أخبر به عن سليمان بذكر قصة سبأ؛ لما بين ملك سليمان ومملكة سبأ من
 الاتصال بسبب قصة بلقيس؛ ولأن في أحوال آل داود مثلاً في إسباغ النعمة على
 الشاكرين، وفي أحوال أهل سبأ مثلاً في سلب النعمة عن الكافرين، وفي هذا وذاك
 موعظة للمشركين، وترغيب وترهيب لهم، ولغيرهم.

قال ابن كثير^(١): «كانت سبأ من ملوك اليمن وأهلها، وكانت التابعة منهم،
 وبلقيس صاحبة سليمان منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم، واتساع
 أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه،
 ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا
 بإرسال السيل، والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر».

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۚ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ
 وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ ۚ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
 جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۚ وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا
 الْكُفُورَ ﴿١٧﴾ ۝

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ ۖ﴾ «سبأ»: اسم قبيلة عظيمة في اليمن، سموها
 باسم جدهم، قال ابن إسحاق: اسم «سبأ»: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن

(١) في تفسيره ٦ / ٤٩١.

قحطان، وإنما سمي «سبأ»؛ لأنه أول من سبأ من العرب، وذكر أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه، وقال في ذلك شعراً:

سيملك بعدنا ملكاً عظيماً	نبي لا يرخص في الحرام
ويملك بعد قحطان نبي	تقي خبئة خير الأنعام
وسمي أحمداً ياليت أني	أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأجوه بنصري	بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا نصريه	ومن يلقاه يبلغه سلامي ^(١)

وتنقسم قبيلة سبأ إلى عشرة أفخاذ، وهم: الأزد، وكندة، ومذحج، والأشعريون، وأنمار، وبجيلة، وعاملة وهم خزاعة، وغسان، ولخم، وجذام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ، ما هو؟ رجل أم امرأة، أم أرض؟ قال: «بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير، عرباً كلها، وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان»^(٢).

وليسوا من صلبه، بل فيهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة، والأقل والأكثر، وإنما من نسله هؤلاء العشرة الذين ترجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن.

﴿فِي مَسْكِينِهِمْ﴾ قرأ حمزة وحفص: ﴿مَسْكِينِهِمْ﴾ بغير ألف على الأفراد، مع إسكان السين، وفتح الكاف، وقرأ الكسائي وخلف بكسر الكاف: «مَسْكِينِهِمْ»، وقرأ الباقون بألف على الجمع مع فتح السين وكسر الكاف: «مَسَاكِينِهِمْ»، جمع «مسكن». والمسكن: ما يسكنه الإنسان ويطمئن فيه؛ أي: في بلدهم وبيوتهم وبساتينهم ونحو ذلك.

﴿ءَايَةٌ﴾، أي: عظة وعبرة لمن يعتبر من هؤلاء المشركين وغيرهم، ودلالة على تمام

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٩٣.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣١٦. وقد أخرج الترمذي نحوه في تفسير القرآن ٣٢٢٢، من حديث فروة بن مسيك رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

قدرة الله تعالى ونعمته وحكمته، وعلى تبدل الأحوال، وحلول النعمة مكان النعمة إذا كفرت.

﴿جَنَّاتٍ﴾: بدل من آية؛ أي: بستانان عظيمان.

قال المفسرون: وكانت بساتين كثيرة متواصلة عن يمين وشمال، فأطلق عليها:

﴿جَنَّاتٍ﴾.

﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ عن يمين واديهم وشماله، وكان واديهم بين الجبال، وعلى أطراف الوادي هذه الجنان العظيمة، ذات الأشجار المتنوعة، والثمار الكبيرة، وكانوا في أحسن ما يكون من رغد العيش، والهناء والأمن؛ ولهذا قال تعالى ممتناً عليهم: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الأمر للإباحة والامتنان.

أي: وقلنا لهم امتناناً عليهم: كلوا من رزق ربكم؛ أي: من عطائه العظيم الواسع. ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ عظيم نعمته، وعطاءه لكم، بالاعتراف له بذلك بقلوبكم، والشاء عليه بالستكم، واستعماله في طاعته بجوارحكم.

﴿بَلَدَةٌ﴾، نكرت: للتعظيم، ﴿طَيِّبَةٌ﴾، أي: طيبة الأرض والماء والهواء والثمار، ملائمة لسكانها ومستثمرها، فيها الرزق والعيش الرغيد وهي بلدتهم: «سبأ»؛ كما يقال لها: «مأرب»، وهي بين حضرموت وصنعاء.

﴿وَرَبِّ﴾؛ أي: ورب عظيم ﴿عَفُورٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده الشاكرين، يستر ذنوبهم عن الخلق، ويتجاوز عنهم، فلا يعاقبهم عليها، فامتن عليهم بنعمتين: نعمة السكن الطيب الذي به حصول المطلوب في الدنيا، ونعمة المغفرة التي بها زوال المهروب في الآخرة.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فأعرضوا بقلوبهم، وتولوا بأبدانهم عن شكر الله تعالى وطاعته والاعتراف بنعمته، وعبادته وحده لا شريك له، وعدلوا إلى الشرك وعبادة الشمس من دون الله؛ كما قال هدهد سليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ [٢٢] إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم [٢٣] وجدتُها وقومها يسجُدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون [٢٤]. [النمل: ٢٢ - ٢٤].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ﴾ الفاء: عاطفة، وتفيد السببية؛ أي: فبسبب إعراضهم أرسلنا عليهم سيل العرم، عقوبة لهم على إعراضهم وكفرهم، وانتقاماً منهم؛ ولهذا عدي الفعل «أرسلنا» بـ«على».

والعرم: الشديد الكثير الغزير، وإضافته إلى «سيل» من إضافة الصفة إلى الموصوف. أي: السيل الغزير الجارف الشديد، الذي خرب سد مأرب العظيم، فانطلق ما كان محبوساً فيه من المياه الكثيرة، وأتلف وأغرق ما بين يديه من البساتين والزرور والحروث والأشجار، وهدم الأبنية، وخرب الديار.

وقد كان لأهل سبأ سد عظيم قرب بلاد مأرب يسمى: «سد مأرب».

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ اللتين كانتا من أعظم الجنات، وكانتا آية من آيات الله في الزهو والاختصار والأشجار، والزرور والفواكه والثمار، والمناظر الحسنة، والظلال الوارفة، والأنهار.

﴿جَنَّتَيْنِ﴾ دون الأولين وأدنى وأقل منهما.

﴿ذَوَاتِ أَكْلٍ خَمْطٍ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الكاف مع الإضافة من غير تنوين: «أَكْلٍ خَمْطٍ»، وقرأ نافع وابن كثير بسكون الكاف والتنوين: «أَكْلٍ خَمْطٍ»، وقرأ الباقون بضم الكاف مع التنوين: «أَكْلٍ خَمْطٍ»، أي: صاحبتني مأكول قليل، ليس بالكثير، ﴿خَمْطٍ﴾، أي: يخمط خمطاً مر غير لذيذ، وهو الأراك.

﴿وَأَنْثَلٍ﴾ هو شجر معروف لا ثمر له، وقيل: هو الطرفاء.

﴿وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهو شجر النبق، كثير الشوك، قليل الثمر.

ولما كان السدر أحسن هذه الأنواع لم يعطوا منه إلا أقل القليل؛ ولهذا قال:

﴿وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ﴾ وهذا يدل على قلته، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿قَلِيلٍ﴾.

قال ابن كثير (١): «وقوله: ﴿وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار

المبدل بها هو السدر، قال: ﴿وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين

إليه بعد الثمار النضجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء، والسدر، ذي الشوك الكثير، والتمر القليل.

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى إرسال سيل العرم عليهم، وتبديل جنتيهم العظيمتين بجتين ذواتي أكل خمط وأثل، وشيء من سدر قليل.

﴿جَزَيْنَهُمْ﴾ هذا الجزاء بإغراق جنتيهم، وإتلاف أموالهم، وهدم بنائهم.

﴿يَمَّا كَفَرُوا﴾ الباء: سببية، و«ما»: مصدرية؛ أي: بسبب كفرهم وشركهم بالله بعبادتهم الشمس من دونه، وكفرهم بنعمته، فصارت بلادهم قاحلة بلا ماء ولا ثمر ولا مرعى، فاضطروا إلى مفارقتها والتفرق في غيرها من البلاد.

﴿وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب وحفص بالنون: ﴿نُجْزِي﴾، و﴿الْكُفُورَ﴾ بالنصب.

وقرأ الباقون بالياء وفتح الزاي: «يُجْزَى»، و«الْكُفُورُ» بالرفع. و«هل»: حرف استفهام، ومعناه هنا النفي؛ أي: وما نجازي؛ أي: وما ناقش ونجازي بالعقوبة.

﴿إِلَّا الْكُفُورَ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، أي: إلا إذا الكفر، الذي كفر بالله، وأشرك به، ووجد نعمه وبطرها.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرًا وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٥﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٦﴾﴾: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ الآية.

بعدما ذكر نعمة الله عليهم بالرخاء والبهجة وطيب الإقامة، ذكر نعمته عليهم بالأمن في أسفارهم وترحالهم، وتيسيرها عليهم.

أي: ومن إنعامنا على سبأ جعلنا؛ أي: صيرنا ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة الخيرات والثمار والأرزاق، و«القرية»: البلدة، صغيرة كانت أو كبيرة.

قيل: المراد: قرى اليمن، كصنعاء، وقيل: قرى الشام، وكل منها، قد بارك فيها،

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ﴾ [الإسراء: ١].

وقال ﷺ: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا»^(١).
وكونها قرى الشام أعظم في الامتنان عليهم؛ لأنها أبعد مسافة.
ومن رجح أنها قرى اليمن قال: لأنه لا يعلم بين اليمن والشام قرى ظاهرة.
﴿قُرَى ظَاهِرَةً﴾، أي: ظاهرة للعيان متواصلة، يرى بعضها من بعض، يطمئن
المسافر بينها ويأمن، ولا يتيه.

﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، أي: جعلنا السير بين هذه القرى مقدراً على مراحل متقاربة
ومتعادلة، يقطعها المسافر مرحلة مرحلة، دون مشقة شديدة، فيقول في قرية، ويبيت في
أخرى، مع كثرة أشجارها وثمارها وزروعها وثمارها بحيث لا يحتاج المسافر إلى حمل
زاد ولا ماء، ولا غير ذلك، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، وكل ما يحتاجه.
﴿سَيْرُوا فِيهَا لَيْلًا وَأَيَّامًا﴾، أي: وقلنا لهم امتناناً عليهم: ﴿سَيْرُوا فِيهَا لَيْلًا وَأَيَّامًا﴾،
وهو قول قدرى.

﴿ءَامِنِينَ﴾: حال؛ أي: آمين في سيركم وسفركم في هذه القرى لا تخافون، لا في
ليل ولا نهار، لا من عدو، ولا من تلف، أو فقد ماء أو طعام ولا غير ذلك.
وقدم «ليالي» للاهتمام في مقام الامتنان؛ لأن المسافرين أحوج إلى الأمن فيها منهم
إليه في النهار؛ لأن الليل تعترضهم فيه القُطَاع والسباع.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير وهشام بكسر العين المشددة،
من غير ألف: «بعُد»، وقرأ الباقون بالألف مع تخفيف العين: ﴿بَعْدُ﴾.

فملوا هذه النعمة العظيمة، وقابلوها بالأشر والبطر ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾
الفاء: عاطفة؛ أي: يا ربنا باعد بين مراحل أسفارنا؛ أي: اجعل بينها مفاوز بعيدة، ليس
فيها هذه القرى الظاهرة، بحيث تكون أسفارًا شاقة فيها التعب والنصب، ومعاناة الحر

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٥٣؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وأخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٧ موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما.

والبرد والمخاوف، وحمل الزاد والمزاد، وغير ذلك.

﴿وَوَلَّمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بإعراضهم، وكفرهم بالله، وكفران نعمته، وبطرها، بطلبهم المباحة بين أسفارهم.

وهذا نظير قول بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وقد كانوا في عيش رغيد، وطيبات من الرزق، من المن والسلوى وغير ذلك: ﴿لَنْ نَضْرِبَ عَلَى طَعَامِ وَجَدِ فَادْعَ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَعْلَمَا وَقَشَائِبَهَا وَفُومَهَا وَعَدْسِهَا وَبَصْلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فصيرناهم عبراً، وخبراً بعد عين، وأحاديث يتناقلها الناس ويتحدثون بها، قرناً بعد قرن، وكيف تبدلت حالهم وسلبوا ما هم فيه من النعم العظيمة بسبب كفرهم بالله ونعمه، قال التاجي (١):

بينما يرى الإنسان فيها مخبراً حتى يرى خبراً من الأخبار

﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، أي: وفرقناهم في البلاد كل مفرق، فذهبوا في الأرض في كل وجه، هلك منهم من هلك، وصاروا شذر مذر.

قال الشعبي: «أما غسان فقد لحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزدي فلحقوا بعمان، فمزقهم الله كل ممزق» (٢).

ولهذا يقال في المثل: «تفرقوا أيدي سبأ، أو أيادي سبأ» (٣)؛ أي: تفرقوا كتفرق سبأ. قال ذو الرمة (٤):

فيالك من دار تفرق أهلها أيادي سبأ عنها وطال انتقالها

وقال كثير عزة (٥):

(١) قال هذا في رثاء صغير له. انظر: «تاريخ دمشق» ٤٣ / ٢٢٢، و«فوات الوفيات» ٢ / ٢٦٩.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩ / ٢٦٧.

(٣) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» ٢ / ٨٨.

(٤) انظر: «ديوانه» ص ٥٠١، «لسان العرب» مادة «يادي».

(٥) انظر: «ديوانه» ص ٣٢٨، «شرح شواهد المغني» ٢ / ٦٨٧.

أيادي سباً يا عزَّ ما كنتُ بعدكم فلم يحلَّ بالعينين بعدك منظرٌ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في الذي حلَّ بسباً من النعمة والعذاب، وتبديل النعمة وسلبها منهم، وتفريقهم بعد الوحدة والاجتماع، بسبب إعراضهم وكفرهم بالله، وبطهرهم نعمته، وظلمهم لأنفسهم؛ كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ بَطَرَتْ مَعِيْشَتَهَا فِتْلَاكَ مَسَدِكُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾ [الفصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرِيْبَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنِّتَةً يَأْتِيْهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَقَهَا اللهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُوْنَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُوْنَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿لَايَتٍ﴾ لدلالات وعبر وعظات، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾، «صبار» صيغة مبالغة؛ أي: ذي صبر على طاعة الله تعالى وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿شكورٍ﴾ لنعم الله تعالى، بنسبتها إليه عز وجل، واستعمالها في طاعته. عن صهيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله للمؤمن؛ إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ۗ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطٰنٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنْهَا فِي سُلْكِ وَرَبُّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيْظٌ ۝١١﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتشديد الدال: ﴿صَدَّقَ﴾، وقرأ الباقون بتخفيفها: «صَدَقَ».

(١) أخرجه مسلم في الزهد، المؤمن أمره كله خير ٢٩٩٩.

(٢) أخرجه أحمد ١ / ١٧٣.

قال السعدي^(١): «ويحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ثم ابتداء، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾، أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه».

وهذا- والله أعلم- هو الظاهر، وعلى احتمال أن هاتين الآيتين تنتم لقصّة سبأ، فمعناهما عام لهم ولغيرهم.

وعلى هذا فالضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود على بني آدم كلهم، أو على الكفار منهم، أو على سبأ.

أي: ولقد حقق عليهم إبليس ظنه، وصدق فيهم حدسه في استجابتهم واتباعهم له، في تزيينه وإغوائه لهم؛ كما قال: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، وقال: ﴿بِمَا آغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَرِكَنَّ دُرِّيَّتَهُ وَإِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ في تزيينه لهم الكفر وإغوائهم.

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «إلا»: للاستثناء، ﴿فَرِيقًا﴾ منصوب على الاستثناء، ويحتمل أن يكون الاستثناء منقطعاً، وتكون «إلا» بمعنى: «لكن». و«من»: بيانية.

أي: فاتبعوه إلا فريقاً وهم المؤمنون لم يصدق عليهم ظنه ولم يتبعوه، بل حفظهم الله منه، فلم يستطع إغواءهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وما كان له على الذين اتبعوه.

﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما كان له عليهم أي سلطان؛ أي: أي تسلط بقسرمهم وقهرهم على الكفر،

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦ / ٢٧٣.

وإنما زين وحسن لهم الكفر والمعاصي فاتبعوه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿لِنَعْلَمَ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لكن سلطانه عليهم بتزيين الكفر لهم وإغوائهم؛ ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾. أي: لنعلم الذي يصدق بالدار الآخرة والبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، ويستعد لذلك بالإيمان والعمل الصالح.

﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾، أي: من الذي هو من الآخرة في شك وتكذيب، لا يؤمن بها، ولا بما فيها من الحساب والجزاء، واتبع الشيطان. ومن كان من الآخرة في شك فهو كالمكذب بها سواء بسواء.

والمعنى: إلا لأجل أن يظهر ذلك في علمنا بعد وقوعه منهم، فنجازيهم عليه؛ لأنه عز وجل - وإن كان يعلم ذلك منهم قبل أن يعملوه، وهو الذي قدره عليهم - فإنه لا يجازيهم إلا بعد علمه بوقوع ذلك منهم؛ إقامة للحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوَنكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

﴿وَرُبُّكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، أي: مطلع ورقيب، لا يغيب عنه شيء؛ لسعة علمه، وتمام قدرته، يحفظ الخلائق، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ جزاءها فيوفيههم إياها كاملاً وافراً، وغير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة سبأ، وما امتن الله به عليهم من البساتين والفواكه، والزرع والثمار، ورغد العيش، وطيب البلد، والوعد بالمغفرة، وما أعقب ذلك لما عرضوا عن طاعة ربهم وشكره، وكفروا به وجحدوا نعمته - من النعمة وتبديل حالهم، وما في ذلك من العظة والعبرة، والدلالة على عظيم قدرة الله تعالى وحكمته.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴿١٦﴾ الْآيَاتِ.

٢- عظم ما أعطاه الله تعالى لسبأ من النعم والخيرات والأرزاق، والامتنان عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

٣- وجوب شكر الله تعالى على العباد؛ لما أولاهم من النعم الظاهرة والباطنة.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وربوبيته الخاصة للشاكرين؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾، وقوله: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيِّنَاتِنَا أَتَى الْإِنسَانَ أَذًى﴾.

٥- أن البلاد منها ما هو طيب، ومنها ما هو خبيث؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴿١٥﴾﴾ وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا زَكَاةً ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

٦- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾، فلا يتعاضمه ذنب أن يغفروه.

٧- إثبات الأسباب والحكمة في أفعال الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴿١٦﴾﴾ الآية، وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ كَفْرٍ ﴿١٦﴾﴾، فعاقبهم الله بهذا العقاب بسبب إعراضهم وكفرهم، وصار هذا السيل الذي هو في الأصل نعمة ورحمة صار عليهم وبألاً ونقمة.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، فهؤلاء لما بطروا نعمة الله تعالى وكفروا ولم يشكروه: سلبها منهم، وبدلهم بما هو أدنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.

٩- أن النعم إذا شكرت قرت، وإذا كفرت فرت، وأن الكفر والمعاصي سبب لزوال النعم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

١٠- أن ما حصل لسبب من إرسال سيل العرم عليهم، وتبديل جنتيهم بجنتين أدنى وأقل، إنما هو بسبب كفرهم بالله، وكفرانهم نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾.
 ١١- أن الله لا يجازي بالعقوبة إلا الكفور، ولا يجازي أحداً إلا بفعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾.

١٢- التحذير للمشركين وغيرهم ممن كفر نعمة الله، أن يبدل ما هم فيه من النعم؛ كما فعل بسبباً، والسعيد من وعظ بغيره.

١٣- أن من نعمة الله تعالى على سبأ أن يسر لهم سبل التنقل بين مسكنهم والقرى المباركة في اليمن أو الشام، بقرى بين ذلك ظاهرة متواصلة، يرى بعضها من بعض، فيأمنون في سفرهم، ولا يحتاجون لحمل الماء والطعام، ولا يشق عليهم السفر بينها؛ لتقاربها، فيقطعونها مرحلة مرحلة، يقيلون في قرية، ويبيتون في أخرى، ولهذا امتن الله عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَكَرْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّبِيلَ سِيرًا فِيهَا لَيْالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾.

١٤- أن الله قد بارك بالشام واليمن.

١٥- أن المسافر أحوج إلى الأمن في الليل؛ لأن فيه تسلط القطاع والسباع؛ بخلاف النهار؛ لهذا قدم الليالي في قوله: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيْالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾.

١٦- أن الأمن من أكبر النعم في الحضر والسفر، ولا يعرف قدره إلا من فقده؛ لهذا خص بالذكر في الآية؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۗ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ حَوْفٍ ۗ﴾ [قريش: ٣- ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَبَدِّلَتْهُمْ مِّنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

١٧- مقابلتهم نعمة الله عليهم بتيسير أسفارهم بالأشر والبطر، وطلبهم المباحة بين أسفارهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا هذا بلسان حالهم بكفرهم هذه النعمة، ولبسان مقاهم.

١٨- ظلمهم لأنفسهم بكفرهم نعم الله تعالى عليهم، وطلبهم المباحة بين أسفارهم، واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَلَّكُمُوهَا أَنْفُسَهُمْ﴾.

١٩- أن ارتكاب الذنوب والمعاصي ظلم من الإنسان لنفسه؛ لأنها وديعة عنده، لا يجوز له إيقاعها في التهلكة.

٢٠- عقوبة الله تعالى سبأ، يجعلهم خبراً بعد عين، وأحاديث يتناقلها الناس، وتفريقهم في البلاد كل مفرق، وذمهم وفضيحتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

٢١- أن فيما حل بهم من النعمة، وتبديل نعمتهم، وتفريقهم بسبب إعراضهم، وكفرهم، وبطرحهم نعمة الله، وظلمهم لأنفسهم، لدلالات على قدرة الله تعالى، وعظايت وعبراً لمن يتعظ ويعتبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٢٢- أنه لا يستفيد من الآيات والعظايت والعبر إلا من كان ذا صبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، شكوراً لنعمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٢٣- فضيلة الصبر والشكر؛ والصبر على الضراء، والشكر على السراء، فمن وفق لهما وفق لكل خير، قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له»^(١).

٢٤- تحقق ظن إبليس وصدق حدسه في كثير من الخلق، في استجابتهم واتباعهم له، في تزيينه وإغوائه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾.

٢٥- حفظ الله تعالى عباده المؤمنين من إبليس، فلم يصدق عليهم ظنه، ولم يتبعوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْفَرِيقَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٦- أنه لا سلطان للشيطان على الذين اتبعوه بقسر وقهر على الكفر، وإنما دعاهم، فاستجابوا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِن سُلْطَانٍ﴾.

٢٧- أن من تسلط عليه الشيطان ووقع في شراكه من المؤمنين، بارتكاب المعاصي، فإنها هو بسبب ضعف إيمانه؛ لأن الله لم يجعل له سلطاناً على المؤمنين؛ كما لم يجعل له

(١) سبق تخريجه.

تسلطاً بالقهر على أي من الخلق أجمعين. وفي الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(١).

٢٨- حكمة الله تعالى في تسليط الشيطان على بني آدم، يزين لهم الكفر ويدعوهم إليه، وهي أن يعلم؛ أي: يظهر في علمه عز وجل - ظهوراً يترتب عليه الجزاء - من يصدق بالآخرة ويعمل لها، ممن يشك بها ويكذب، فلا يعمل لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾.

٢٩- إثبات الدار الآخرة، والحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الإيمان بذلك.

٣٠- أن الشك فيما يجب فيه اليقين كفر، فمن شك في الآخرة كفر، كمن كذب بها؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾.

٣١- حفظ الله تعالى ورعايته لكل شيء؛ الخلائق وأعمالهم وجزاءهم، وغير ذلك؛ لسعة علمه وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٣٣- الترغيب في طاعة الله تعالى، والتحذير من معصيته؛ لأنه حفيظ على أعمال العباد، وسيجازيهم عليها.

* * *

(١) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٥؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ * قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلِ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقُّمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْشِرُونَ عِنْدَهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ *

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾: لما ذكر عز وجل قصة سبأ وما حل بهم من النعمة بسبب إعراضهم وكفرهم بالله، وعدم شكرهم نعمته، واتباعهم للشيطان، وفي ذلك ما لا يخفى من التعريض بأمثالهم من المشركين وغيرهم، أتبع ذلك بإبطال ما هم عليه من الشرك.

قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: قل يا محمد لمشركي قريش ولغيرهم ممن يدعو غير الله.

والخطاب له ﷺ ولكل من يتوجه إليه الخطاب من أمته.

﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: اسألوا الآلهة الذين زعمتم كذباً أنهم شركاء ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله، واطلبوا منهم حوائجكم، هل يستجيبون لكم وينفعونكم أم لا؟ ويحتمل أيضاً: أن معنى ادعوهم؛ أي: نادوهم واحضروهم لنتناقشهم، وهذا لا ينافي الأول.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا يملك هؤلاء الآلهة الذين زعمتم من دون الله وعبدتموهم مع الله ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: زنة ذرة، وهي النملة الصغيرة، أو بيضة النملة التي تبدو حبيبة صغيرة بيضاء.

﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا يملكون زنة ذرة في ملك الله تعالى الواسع العظيم في السموات ولا في الأرض. وأعاد حرف النفي «لا»؛ للتوكيد والاهتمام. والتقدير في قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ للمبالغة في القلة؛ أي: أنهم لا يملكون مثقال ذرة ولا ما دونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا﴾، أي: وما هؤلاء الآلهة في السموات والأرض.

﴿مِنْ شَرِكٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما هؤلاء الآلهة في السموات والأرض أي شرك؛ أي: أي شراكة في الخلق، فهم لا يملكون زنة ذرة ولا ما دونها استقلالاً، ولا على سبيل الشراكة. ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ عز وجل ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: من هؤلاء الآلهة ﴿مَنْ ظَهَرَ﴾، أي: من معين، بل هو سبحانه المتفرد وحده بالخلق دون أي شريك، وأي معين، والخلق كلهم فقراء إليه، عبيد له.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ﴾، أي: ولا تنفع الشفاعة عند الله عز وجل.

وفي هذا نفي الشفاعة من الشافع، ونفي نفعها للمشفوع له؛ أي: فلا أحد يشفع عنده، ولا أحد يشفع له عنده.

والشفاعة: التوسط للغير لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

﴿إِلَّا لِمَنْ أذنَ لَهُ﴾ قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي وخلف بضم الهمزة: «أذنَ لَهُ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أذنَ لَهُ﴾.

أي: إلا لمن أذن الله له بالشفاعة كوناً وشرعاً، مع رضاه عن المشفوع له؛ لعظمته عز وجل وكبريائه، وتفرد بالخلق والملك والتدبير؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

ولهذا فإن سيد الخلق وهو أكبر شفيع عند الله عز وجل حين يقوم المقام المحمود؛ ليشفع في الخلق كلهم؛ لفصل القضاء بينهم، ويسجد تحت العرش ويدعو، لا يشفع

حتى يقال له: «يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع»^(١).

قال ابن القيم^(٢): «فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا لمن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكا كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له ظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشراكة والمظاهرة والشفاعة، التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة، لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه».

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب: «فَزَع» بفتح الفاء والزاي بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون بضم الفاء وكسر الزاي: ﴿فُزِّعَ﴾ بالبناء للمفعول.

أي: حتى إذا أزال الله الخوف ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾، أي: عن قلوب الملائكة؛ كما دلت على ذلك السنة، وذلك أنه إذا تكلم الله بالوحي أخذت السموات منه رجفة من خوف الله، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا، فإذا زال الفزع عن قلوبهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ما الذي قاله ربكم؟ ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾، أي: قال القول الحق؛ أي: القول الثابت والصدق؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾، أي: العلي فوق خلقه بذاته وصفاته، ذو العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته، ذو الكبرياء الذي هو أكبر من كل شيء، وكل مخلوقات بالنسبة له ليست بشيء^٤.

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة

٢٤٣٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣ / ٤٣٥.

عن النّوأس بن سمعان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة- أو قال: رعدة شديدة- من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخرّوا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سماء سألها ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فيقولون كلهم مثل ما قاله جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمر الله من السماء والأرض»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر من السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله؛ كأنه سلسلة على صفوان، فإذا ﴿فُتِحَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ قالوا للذي قال: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فيستمع مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض- ووصف سفيان بيده فحرّفها وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة، فيلقي إلى من تحته، ثم يلقي الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة، التي سمعت من السماء»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبّح حملة العرش، ثم سبّح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ هذه الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم: فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن، فيرمون، فما

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد ص ٩٥، والطبري في «جامع البيان» ١٩ / ٢٧٨، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦ / ٥٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ ٤٧٠١، وأبو داود في الحروف ٣٩٨٩، والترمذي في تفسير سورة سبأ ٣٢٢٣، وابن ماجه في المقدمة ١٩٤.

جاؤوا به على وجهه، فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون»^(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، قال: فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق»^(٢).

وقيل: الضمير في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعود إلى المشفوع لهم؛ أي: حتى إذا زال الفزع والخوف من العذاب من قلوب المشفوع لهم بعد الإذن بالشفاعة لهم، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ما الذي قال ربكم؟ ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾، أي: قال القول الحق؛ أي: أذن بالشفاعة.

وقيل: معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، أي: حتى إذا كشف الغطاء عن قلوب الكفار والمشركين يوم القيامة، وتجلي لهم الأمر وزال ما كان على قلوبهم من الرين والغفلة ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، فقيل لهم: ﴿الْحَقُّ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١) قُلْ لَا تَسْتَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقُّم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾.

قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له؛ أي: قل لهؤلاء المشركين وغيرهم ممن يعبدون غير الله: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، الاستفهام: للتقرير المشرب بالتحدي؛ أي: من الذي يَرْزُقُكُمْ، أي: يعطيكم ويمنحكم الرزق ﴿مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ بإنزال المطر وغير ذلك، وتقدير الرزق؛

(١) أخرجه مسلم في السلام، تحريم الكهانة وإتيان الكهان ٢٢٢٩، والترمذي في التفسير ٣٢٢٤، وأحمد ١ / ٢١٨.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣٨.

كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَالْأَرْضُ﴾ بإخراج الزرع منها والنبات والمعادن، وكثير من الخيرات.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾، أي: قل الله الذي يرزقكم من السموات والأرض، وبادر بإجابتهم بنفسه؛ لأنهم يقرون ويعترفون بأن الله هو الرزاق لهم وحده، ولا ينكرون ذلك؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

أي: قل الله يرزقكم من السموات والأرض، فلم تعبدون من دونه من لا يملك لكم رزقاً؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ١٧٣].

﴿وَإِنَّا أَوْأْبَاءُكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هذا من باب التزل والتلطف معهم في الخطاب؛ ليقروا، ولثقتة أنه ومن معه على الحق والصواب، وأن المشركين على الباطل؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

وقال: ﴿لَعَلَىٰ هُدًىٰ﴾ لأن المهتدي مستعل بهداه، بينما قال: ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لأن صاحب الضلال منغمر في ضلاله، تائه حائر.

والكلام من باب اللف والنشر؛ أي: لا نخرج عن إحدى هاتين الحالتين: إما الهدى، وإما الضلال، ولا يمكن أن نكون كلنا على الهدى، ولا كلنا على الضلال؛ لتناقض ما بيننا، فلم يبق إلا أن نكون نحن على هدى، وأنتم في ضلال مبين، أو أنتم على هدى، ونحن في ضلال مبين، وليس هناك سبيل ثالث.

ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك، وظهر أننا نحن الذين على الهدى والحق، وأنتم الذين في ضلال مبين، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «ما» في الموضعين موصولة. والجرم والإجرام بمعنى: الذنب؛ أي: لا تسألون عن الذي وقعنا فيه من الإجرام والذنوب، بل نسأل عنها وحدنا.

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: ولا نسأل عن الذي تعملونه من إجرام أو غيره، بل تسألون عن ذلك وحدكم، فكل يُسأل عما اكتسب من جرم أو غيره؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١] وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

لكن من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً؛ كما أن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً؛ كما قال ﷺ (١).

وفي التعبير بقوله: ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الغضاضة على النفس والتنزل مع الخصم أشد مما في قوله: ﴿وَأَنَا أَوْلَىٰ بِآثَامِكُمْ لَعَلِّي هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وذلك أولاً: من حيث اللفظ؛ ففي قوله: ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ جاء التعبير بفعل الماضي «أجرمنا»، الدال على الوقوع، بينما جاء التعبير في قوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالمضارع «تعملون»، والمضارع قد يقع وقد لا يقع.

وثانياً من حيث المعنى: فإن قوله: ﴿أَجْرَمْنَا﴾ وصف لعملهم بأنه إجرام، بينما قال بالنسبة للخصم ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: عما تجرمون. والعمل قد يكون إجراماً، وقد يكون غير إجرام.

والمراد: أننا ندعوكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فإن أحببتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتهم فنحن براء منكم وأنتم براء منا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون: ١-٦].

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾، أي: يوم القيامة، يوم يجمع الله الخلائق كلهم في صعيد واحد.
 ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة؛ أي: ثم يقضي ويفصل ويحكم
 بيننا بالعدل، فيجزئ كلًّا منا بعمله، خيرًا كان أو شرًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ
 السَّاعَةُ يُومِذُ يَنْفَرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾
 وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم:
 ١٤-١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
 يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

ويحتمل أن يكون الجمع في قوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ في الدنيا
 أيضًا، في القتال، والفتح بينهم بالحق بنصر أوليائه وهزيمة أعدائهم؛ كما حصل في بدر
 وغيرها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ أَتَى الْجَمْعَاتِ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١]، ولا تنافي بين المعنيين.

﴿وَهُوَ الْفَاتِحُ﴾ الذي يفتح بين عباده بالحق، ويفصل بينهم بالعدل، ويفتح لهم
 أبواب الرحمة والتوفيق والبركات والخيرات والنصر والعلم والفهم وغير ذلك، قال
 الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا
 نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيُنِيرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا
 وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال ﷺ في حديث الشفاعة: «ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا
 لم يفتحه علي أحد قبلي»^(١).

﴿الْعَلِيمُ﴾، أي: ذو العلم الواسع بخلقه وبأعمالهم وأحوالهم، وبكل شيء؛ كما قال
 تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُدْعَوْنَ لَهُمْ كَذِبٌ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ
 عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿قُلْ أَرُونِي﴾ الأمر للتعجيز والتحدي، ﴿الَّذِينَ أَحَقُّم بِهِ شُرَكَاءَ﴾، أي: الآلهة
 الذين أحقتموهم بالله، وجعلتموهم شركاء معه في العبادة؛ أي: هاتوهم وأحضروهم،

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧١٢، ومسلم في الإيمان ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأروني وأعلموني: ماذا خلقوا؟ وماذا قدموا لكم من نفع؟ وماذا دفعوا عنكم من ضر؟
﴿كَلَّا﴾: كلمة ردع وزجر؛ أي: ليس له شريك ولا نظير، ولا يملك الشركاء من
دونه لا نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِينُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]،
وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى:
﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٥١﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل: ٢٠-٢١]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَتَّابَتِ لَهُمْ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ
وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَفْهَمُ عَنكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢].

﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي؛ أي: بل هو الله وحده المعبود، لا شريك له.

﴿الْعَزِيزُ﴾ ذو العزة والقوة، والقهر والغلبة والامتناع.

﴿الْحَكِيمُ﴾ ذو الحكم التام، والحكمة البالغة في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٤﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا
تَسْتَجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

لما أبطل ما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله، وأثبت الألوهية لله وحده، أتبع
ذلك بإثبات صدق الرسول ﷺ، وإبطال طعنهم في رسالته.

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾، «إلا»: أداة حصر؛ أي: وما أرسلناك إلا
للناس كافة؛ أي: إلا للناس جميعاً؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ
لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ [الفرقان: ١].

وقال ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» (١).

وقال ﷺ: «بعثت إلى كل أحمَرٍ وأَسْوَدٍ» (٢).

(١) سبق تخريجه.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: بشيرًا للمؤمنين بالجنة، ونذيرًا للكافرين والعصاة من النار. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم عند الله، وما في رسالتك من البشارة والإنذار؛ ولهذا ضل أكثرهم، ولم يؤمنوا. ولهذا ينبغي عدم الاعتراض بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول المشركون المكذبون للرسول ﷺ، ولما جاءهم به من الحق من إثبات البعث، والتبشير للمؤمنين، والإنذار للمكذبين، وغير ذلك؛ استبعادًا لذلك، وإنكارًا له، وتكذيبًا به. ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الاستفهام للإنكار والتحدي؛ أي: متى يأتي هذا الوعد بالعذاب الذي تتوعدوننا به؟

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن العذاب سيحل بنا، وأن هناك بعثًا وحسابًا وجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِحِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصفات: ١٧٦-١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِهُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأُولَٰئِكَ يَبَايَنَآ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان: ٣٤-٣٦].

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾، أي: لكم وعد يوم مؤجل محدد معين، لعذابكم في الدنيا، أو عند الموت، أو يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي عَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ

وأخرجه أحمد ٤ / ٤١٦؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه، و٥ / ١٤٥، ١٤٨؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، السين والتاء في الفعلين للمبالغة؛ أي: لا تستطيعون التأخر عنه ساعة، ولا التقدم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُونَ كَسْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].
وفي الآية تهديد لهم ووعد ظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٦٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].
ولهذا قدّم قوله: ﴿لَا تَسْتَخِرُونَ﴾ إيماء إلى أنه ميعاد بأس وعذاب؛ من شأنه أن يتمنوا تأخيره.

الفوائد والأحكام:

- ١- إبطال ما عليه المشركون من عبادة غير الله، وتحديدهم أن تستجيب هذه الآلهة لدعائهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.
- ٢- أن هذه الآلهة المدعوة من دون الله لا تستحق شيئاً من العبادة بوجه من الوجوه، فهم لا يملكون شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم، وما لهم أيّ شرك في الملك مع الله، وما له منهم أيّ معين، ولا يشفعون عنده؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِنَّ مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٍ ﴿٦٦﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ﴾.
- ٣- إثبات تفرده عز وجل وحده بالملك، بلا شريك، ولا معين، ولا شفيع إلا بإذنه، وقطع كل سبب يتعلق به المشركون، حتى دعوى شفاعته هذه الآلهة لهم.
- ٤- إثبات الشفاعته بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ﴾.
- ٥- إثبات عظمة الله تعالى وقوة سلطانه، فلا أحد يشفع، بل ولا يتقدم للشفاعة إلا بإذنه ورضاه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٦٧﴾﴾ [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].
- ٦- إثبات الكلام لله تعالى، وأنه يتكلم بكلام مسموع تسمعه الملائكة، ومن شاء

من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾. وفي الحديث: «إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة- أو قال: رعدة شديدة- فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً»^(١).

٧- عظمة كلامه عز وجل؛ حيث ترجف له السموات، ويصعق أهلها.
٨- أن قوله عز وجل كله حق، وعدل وصدق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾.
٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه، والعامه لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾.

١٠- إثبات وجود الملائكة، وشدة خوفهم من الله، وسماعهم لكلام الله، وفهمهم وعقلهم له، وأنهم يتكلمون؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

١١- إثبات اسم الله تعالى: «العلي»، وأنه عز وجل عالٍ فوق خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾، فله عز وجل علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

١٢- إثبات اسم الله: «الكبير»، وأنه الكبير بذاته وصفاته، له الكبرياء وحده؛ لقوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ﴾.

١٣- تقرير المشركين بتوحيد الربوبية الذي يعترفون به؛ لإلزامهم بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾.

١٤- أن من لازم الإقرار بالله بالربوبية: الإقرار له بالألوهية، والانقياد له.
١٥- أن الرزق من أبين مظاهر ربوبية الله تعالى للناس بعد خلقهم؛ ولهذا استدل به في الآية، ومثل به، وجاء هذا كثيراً في القرآن.

١٦- أن المشركين يعترفون بأن الرازق هو الله وحده، وهم مع ذلك يعبدون من دونه من لا يملك لهم رزقاً؛ ولهذا أجاب عنهم في الآية بقوله: ﴿قُلِ اللهُ﴾، أي: فلم

(١) سبق تخريجه.

تعبدون غير الله، وأنتم تقرون بأنه وحده الرازق لكم؟!

١٧- التنزل مع الخصم والتلطف معه؛ ليقر بالحق ويعترف به؛ لقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ
إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وإلا فالحقيقة أنه ﷺ يعلم أنه هو وأصحابه
هم الذين على الحق، وأن الكافرين في ضلال مبين.

١٨- أنه لا يسأل أحد عن عمل غيره، ولا تزرر وازرة وزر أخرى؛ لقوله تعالى:
﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

١٩- إثبات السؤال عن العمل، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله، ومحاسب
عليه، خيراً كان أو شراً؛ لمفهوم قوله: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا
تَعْمَلُونَ﴾، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الفصص:
٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

٢٠- تحمل الغضاضة والتنزل مع الخصم من المكذبين وغيرهم؛ للوصول إلى
المقصود؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٢١- إثبات البعث، والجمع بين الخلائق بالحق يوم القيامة، والفصل بينهم بالعدل؛
لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾، وفي هذا تهديد ووعد لكل من يخاصم
وينظر بالباطل، من المشركين وغيرهم، وبشارة ووعد لمن هم على الهدى والحق.

٢٢- أن حكم الله تعالى كله حق، وقضائه كله عدل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا
بِالْحَقِّ﴾.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى: «الفتاح»، وصفة الفتح، وأنه سبحانه يفتح على من يشاء
من عباده ما يشاء من أسباب التوفيق، وأبواب الرحمة والخيرات، من النصر والعلم
والفهم والبر والبركات وغير ذلك؛ كما يفتح بين العباد بالفصل بينهم يوم القيامة؛ لقوله:
﴿وَهُوَ الْفَاتِحُ﴾.

٢٤- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ﴾ دلالة على أن أسماء الله تعالى
إذا ذكرت وكانت متعددة؛ كالفتاح، والغفور، والرحيم، وغير ذلك يؤخذ منها إثبات
الاسم وما تضمنه من الصفة والحكم والأثر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُورُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ» [البقرة: ٢١٨]، وغير ذلك.

٢٥- إثبات اسم الله تعالى: «العليم»، وأنه عز وجل ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَلِيمُ﴾.

٢٦- تحدي المشركين أن يحضروا آلهتهم الذين جعلوهم شركاء مع الله، وعبدوهم من دون الله، وماذا خلقوا؟ وماذا قدموا لهم من نفع، أو دفعوا عنهم من ضرر؟ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقَّتْ بِهِمْ شُرَكَاءُ﴾.

٢٧- ردع المشركين وزجرهم في إلحاقهم شركاء مع الله، ونفي أن يكون له شريك أو نظير؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾.

٢٨- إثبات اسم الله: «العزیز»، وصفة العزة له عز وجل بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾.

٢٩- إثبات اسم الله: «الحكيم»، وأنه سبحانه ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والشرعي، والجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾.

٣٠- إثبات رسالة النبي ﷺ، وعمومها لجميع الناس، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وتفضيله على الأنبياء بعموم رسالته، والرد على منكري رسالته من العرب وغيرهم، وعلى منكري عمومها من أهل الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

٣١- أن الحكمة من إرساله ﷺ - كغيره من الرسل - البشارة للمؤمنين بالجنة، والإنذار للكافرين والعصاة من النار، وإقامة الحججة على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وليس إليه أمر إنزال الآيات، ولا هداية القلوب، فذلك إلى الله عز وجل.

٣٢- أن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة من إرسال الرسول ﷺ، بل لا يعلمون حقيقة العلم الذي ينفعهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على جهل وضلال.

٣٣- استعجال المشركين لما توعدوا به من العذاب في الدنيا والآخرة؛ استبعاداً

لذلك، وإنكاراً له؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾.

٣٤- تكذيبهم للرسول عليهم السلام؛ لقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٣٥- تهديدهم بالعذاب، وأن له ميعاد يوم مؤقت، لا يتأخر ولا يتقدم، سواء كان

عذاب الدنيا، أو عذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

٣٦- إثبات المعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

٣٧- أن كل شيء عند الله عز وجل بميعاد، وبمقدار، وأجل مسمى.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِي الظَّالِمِينَ مَوْفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْطَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٤٠﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعَرْشِ ءَامُونَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا ءَاتُواكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٥﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِّنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْغَنَىٰ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٤٦﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَقُولِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِي الظَّالِمِينَ مَوْفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْطَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متمادين في كفرهم وطغيانهم وعنادهم وتكذيبهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾، أي: لن نصدق بهذا القرآن، وبما جاء به من أمر المعاد وغير ذلك، وعبروا بـ«لن» الدالة على تأكيد النفي، ولم يقولوا: «لا نؤمن بهذا القرآن»؛ تأكيداً على انتفاء حصول الإيمان منهم به في المستقبل، وأشاروا إليه بقولهم: ﴿بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ تحقيراً له، ﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ «لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي؛ أي: ولا نؤمن؛ أي: ولا

نصدق بالذي تقدمه من الكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل والزرور. ويحتمل أن يكون المراد بالذي بين يديه: ما يأتي بعده مما أخبر به، ومما ينزل منه بعد مقالته هذه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ «لو»: شرطية غير جازمة؛ أي: ولو ترى يا محمد ويا أيها الرائي والمشاهد ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾، أي: الكافرون المشركون، و«إذ»: ظرف بمعنى «حين».

وأظهر في مقام الإضمار؛ للتسجيل عليهم بوصف الظلم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين.

﴿مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: محبوسون في موقف الحساب عند ربهم، وجواب الشرط محذوف؛ أي: لرأيت أمراً عظيماً فظيماً.

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ الْقَوْلِ﴾، أي: يرد بعضهم إلى بعض القول، يلقي كل منهم التبعة على الآخر، وقد فصله بقوله:

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ منهم، وهم الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم قادتهم وساداتهم وكبرائهم.

﴿لَوْلَا أَنْتُمْ﴾ «لولا»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع؛ أي: لولا أنتم صددتمونا عن الإيمان، وأضللتتمونا، وزيتتم لنا الكفر.

﴿لَكَا مُؤْمِنِينَ﴾ اللام: رابطة لجواب الشرط؛ أي: لكننا مؤمنين مصدقين بما جاءت به الرسل من الحق، متقادين له. ومقصودهم بذلك: أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ ردوا عليهم القول منكبين قولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي؛ أي: لسنا الذين صددناكم عن الهدى حين جاءكم بقوتنا وقهرنا إياكم، وما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاخترتم الكفر واتبعتمونا، بلا برهان ولا دليل.

﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي؛ أي: بل كنتم بأنفسكم قومًا مجرمين، مختارين الإجرام، متعمدين له بالشرك والكفر، واتباع شهواتكم. والإجرام: ارتكاب الجرائم؛ أي: الذنوب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ «بل»: للإضراب؛ أي: بل صدنا عن الهدى مكركم بنا الليل والنهار؛ أي: احتيالكم علينا، وكيدكم وتدبيركم الشر لنا بالليل والنهار، وخديعتكم لنا.

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ تفسير وبيان للمكر، و«إذ»: ظرف بمعنى «حين»؛ أي: حين تأمرونا ﴿أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ «أن» والفعل «نكفر» في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف؛ أي: إذ تأمرونا بالكفر بالله. والكفر بالله يكون بإنكار وجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، أو التكذيب بشيء من ذلك.

﴿وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾، أي: ونصير له أشباهاً ونظراء بشبه توردها علينا تذلوننا بها. وفي هذا دلالة على أنهم يؤمنون بوجود الله وربوبيته، لكنهم يشركون به. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾، أي: وأسر الفريقان السادة المستكبرون، والأتباع المستضعفون؛ أي: أخفوا في أنفسهم الندامة والحسرة على كفرهم؛ لثلا يظهر للناس أنهم نادمون على ما صنعوا، فيعيوهم ويعيروهم بذلك، على حد قول أبي ذؤيب الهذلي^(١):

وتجلدي للشامتين أريهم أني لربب الدهر لا أتضعضع
وقول الآخر:

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شامة الأعداء^(٢)
﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾، أي: حين أبصروا العذاب وشاهدوه، وأيقنوا أن لا خلاص لهم منه ولا مناص.

وقد يظهر منهم التحسر في بعض مواقف القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿[الملك: ١٠ - ١١]؛ ولهذا فسر بعضهم: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ بمعنى: أظهروا، واعتبروا الفعل «أسر» من

(١) انظر: «ديوان الهذليين» ٣/١، «نهاية الأرب» ٣/٧٢.

(٢) البيت أنشده ابن الأعرابي؛ كما في «الكشف والبيان» ٢/٣٠٩، ونسب في «محاضرات الأدباء» ١/٣١٤ لابن أبي عيينة.

الأضداد يأتي بمعنى «أخفى»، وبمعنى «أظهر».

﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «الأغلال»: جمع «غُلٌّ» وهي السلاسل، ﴿فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم الفريقان: المستكبرون المتبوعون، والضعفاء التابعون، ولم يقل: وجعلنا الأغلال في أعناقهم، للتسجيل عليهم بالكفر؛ أي: وصيرنا الأغلال في أعناق الذين كفروا إهانة وتعذيباً لهم، حيث تربط أيديهم إحداها بالأخرى وتعلق في رقابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الاستفهام: للنفي؛ أي: لا ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: موصولة؛ أي: إلا الذي كانوا يعملونه، أو مصدرية؛ أي: إلا عملهم؛ أي: جزاء عملهم، ولا يُظلم أحد منهم، فللقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع عذاب بحسبهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ولم يقل: إلا جزاء ما كانوا يعملون، بل قال: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ وقالوا نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحنُ بمُعذِّبينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا ذُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ ءَامُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِئَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾.

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾:

لما ذكر تكذيب المشركين له ﷺ بما جاء به من الوعيد، وتكذيبهم بالقرآن، وتوعدهم، أتبع ذلك بتسليته ﷺ ببيان أنه ما أرسل في قرية من نذير إلا كذبه مترفوها، وكفروا بما جاءهم به.

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ «قرية»: نكرة في سياق النفي، فتعم؛ أي: وما أرسلنا في أي قرية من القرى السابقة، والقرية: البلد، صغيراً كان أو كبيراً، قال تعالى: ﴿وَكُلِّينَ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣] فسمى مكة، وهي أم القرى وأكبرها آنذاك.

﴿مَنْ نَذِيرٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: أي نذير؛ أي: رسول ينذرهم ويحذرهم عذاب الله في الدنيا والآخرة.

﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا قال أهل الترف والمنعمون فيها لرسولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ الجملة في محل نصب مقول القول، و«بها»: متعلق بالخبر: «كافرون»، وقدم عليه؛ لإفادة الحصر - كأنهم يقولون: لا نكفر إلا بالذي أرسلتم به - مع مراعاة الفواصل.

ومعنى ﴿كَافِرُونَ﴾، أي: جاحدون منكرون له، لا يؤمن به ولا تتبعه.

وإنما يتفوه بهذا المترفون والكبراء وأولو النعمة؛ أشراً وبطراً منهم؛ كما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْآخِرَةُ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بِأَكُلِ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هِيَ هَاتِ هِيَ هَاتِ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَنْوَمُنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]، وقالوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الْأَرْضِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَحْنُكُمْ كَذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وقال المستكبرون من قوم صالح عليه السلام، لمن آمن من المستضعفين منهم: ﴿أَنْتَ لَمَوْءُونَ أَنْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمَّا كُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «أشرف الناس اتبعوه - يعني النبي ﷺ - أم ضعفاؤهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل»^(١).

﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال المترفون مفتخرين على من دونهم:

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾، أي: أكثر أموالاً وأولاداً ممن آمن.
 ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ لأنه لا بعث ولا حساب ولا عذاب، وأيضاً فعلى سبيل
 الفرض لو كان هناك بعث فلن نعذب، بل سننعم كما نعمنا في الدنيا.
 فاغثروا بكثرة أموالهم وأولادهم، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم،
 ورضاه عنهم، وأنهم على حق، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة،
 وهيهات لهم ذلك، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ
 لَهُ تَهْمِيدًا ﴿١٤﴾ تُوَظَّمُ أَنْ آرِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَيْلَتِنَا عَيْنِدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر: ١١-١٧].
 وقال تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ
 هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٦﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٧﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهَا
 وَهُوَ مُخَابِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ تُرَدُّ مِنْ تَظْفَرِهِ ثُمَّ سَوَّيْتُكَ رَجُلًا ﴿٣٨﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا
 أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٩﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا
 وَوَلَدًا ﴿٤٠﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤١﴾
 أَوْ يُصْبِحُ مَاوًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ وَطْلَبًا ﴿٤٢﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ بِقَدْبِكَ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ
 فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: ٣٥-٤٢].

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المترفين الذين يفتخرون بأموالهم وأولادهم: ﴿إِنَّ
 رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أي: يوسع الرزق، وهو العطاء؛ ابتلاءً وامتحاناً للذي يشاء
 من عباده من مؤمن وكافر، ﴿وَيَقْدِرُ﴾، أي: ويضيق الرزق والعطاء على من يشاء
 منهم، وله في ذلك الحكمة البالغة؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
 وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَأُمِدُّ هَؤُلَاءِ
 وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

ومن أعظم الحكم في ذلك: الابتلاء والامتحان؛ كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا
 مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ومن ذلك أن الله يختار للعبد ما هو أصلح له، فمن الناس من لا يصلحه إلا الغنى، ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر.

ومن ذلك قيام مصالح الخلق، فلو كان الناس كلهم على حد سواء في الغنى والفقر لم يخدم بعضهم بعضاً، ولا قام بعضهم بمصالح بعض؛ كما قال تعالى: ﴿أَهْمُرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحَابًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

قال الشاعر:

جل من قَسَمَ الحظوظ فهذا يتغنى وذاك يبكي الديرار^(١)

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك، والحكمة فيه؛ ولهذا يعتقد كثير منهم أن بسط الرزق دليل على محبة الله ورضاه، وأن تضيقه دليل على عدم محبته ورضاه، والصحيح: أن ذلك خاضع لمشيئته عز وجل وحكمته، ولا ارتباط له بمحبته ورضاه، أو عدم ذلك، فإنه عز وجل يهب الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يهب الدين إلا لمن أحب؛ ولهذا قال ﷺ: «قد أفلح من رزق كفافاً، وقنعه الله بما آناه»^(٢).

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ التي تفتخرون بها، ﴿بِالَّتِي﴾ الباء: زائدة لفظاً، مؤكدة من حيث المعنى ﴿تُقْرَبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾، أي: تدنيكم عندنا منزلة ودرجة وقربى؛ أي: ليست دليلاً على محبتنا لكم، ورضانا عنكم، بل قد تكون سبباً لفتنتكم وبعثكم عنا. ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الاستثناء: منقطع، «من»: موصولة؛ أي: لكن الذي آمن وعمل عملاً صالحاً هو القريب عندنا؛ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح.

وإذا جعل الضمير في قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ لجميع الناس، كان الاستثناء متصلًا.

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» ص ٢٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، الكفاف والقناعة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨؛ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ روى رويس: «جَزَاءً» بالنصب على الحال مع النصب، وكسره وصلًا، ورفع «الضَّعْفُ» بالابتداء، وقرأ الباقون برفع: ﴿جَزَاءُ﴾ من غير تنوين، وخفض ﴿الضَّعْفُ﴾: ﴿جَزَاءُ الضَّعْفِ﴾ على الإضافة، من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: فأولئك الذين آمنوا وعملوا صالحًا لهم الثواب المضاعف، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِمَّا هَا^ط﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية أو موصولة؛ أي: بسبب عملهم، أو بسبب الذي عملوه.

﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفِ عَامُونَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الراء من غير ألف على الأفراد: «العُرْفَةُ»، وقرأ الباقون بضمها مع الألف على الجمع: ﴿الْعُرْفَاتِ﴾، وهي: جمع «غرفة»، وهي: المنازل العالية الرفيعة في الجنة، والغرفة: المنزل العالي، والحجرة: المنزل في الأرض. ﴿عَامُونَ﴾، أي: مطمئنون آمنون من الموت، ومن الخروج منها، ومن كل بأس وخوف وأذى، ومن المكدرات والمنغصات من الحزن والغل والمرض وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مَّبِينَةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ عُرفًا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [العنكبوت: ٥٨] وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ ﴿٢٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤ - ٣٥]، وقال

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر، تحريم ظلم المسلم ٢٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٤٣٨، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩، والترمذي في النكاح ١١٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٣، وأحمد ٥٣٩ / ٢.

تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَدِّمِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].
 عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً ترى ظاهرها
 من بطونها، وبطنونها من ظهورها»، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «لمن أطاب الكلام،
 وأطعم الطعام، وأدام الصيام»^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾.

لما ذكر جزاء المؤمنين وما أعد لهم من السكن الطيب والنعيم في الأرض، أتبع
 ذلك بذكر ما أعد لغيرهم من العذاب، جمعاً بين الوعد والعيد، والترغيب والترهيب،
 وهذا كقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ [سبأ: ٥].

أي: والذين يسعون جاهدين على وجه التعجيز لنا، والتكذيب في آياتنا ورسولنا،
 والصد عن ديننا، ظانين أنهم سيفوتونا ويعجزوننا.

﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحَضَّرُونَ﴾ خبر المبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ﴾.

وقوله: ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ متعلق بـ ﴿مُحَضَّرُونَ﴾، وقُدِّم عليه؛ لزيادة التهديد والوعيد
 والتحذير؛ أي: تحضرهم الزبانية إلى جهنم.

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرْ لَهُ وَاَعَادَ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -
 ليرتب عليه ما بعده، وهو قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

ولما كان هذا الثاني موجهاً للمؤمنين، أشير إلى تشريفهم بزيادة قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾،
 أي: المؤمنين، وضمير «له» عائد إلى «من».

قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: شرطية، و«من»: زائدة من
 حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و«شيء» نكرة في سياق النفي
 فتعم أيضاً؛ أي: وما أنفقتم من أي شيء، قليلاً كان أو كثيراً، من النفقات الواجبة
 كالزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كالصدقات،
 والهدايا، ونحو ذلك، والنفقات المباحة.

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و﴿يُخْلِفُهُ﴾ من «أخلف» الرباعي؛

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٠٩، ونسبه لابن أبي حاتم.

أي: أعطى الخلف، وليس من «خلف» الثلاثي، بمعنى خلف غيره؛ أي: فهو عز وجل يأتي بخلفه، ويعطيكم ما يخلف عنه كمية بأن يزيد في أموالكم وأرباحها، وكيفية بأن يبارك لكم في أموالكم، قال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»^(١). وقال ﷺ: «أنفق ينفق عليك»^(١). وقال ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يناديان، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(١).

فلا ينبغي أن يتوهم المنفق في الوجوه المشروعة أن الإنفاق ينقص الرزق؛ لأن الله عز وجل وعد المنفقين بالخلف؛ قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فالأرزاق كلها منه وبيده، فيجب طلب الرزق منه، والتوكل عليه، مع بذل الأسباب.

وجمع «الرازقين»؛ لأن المخلوق قد يكون سبباً للرزق، فيسمى بهذا الاعتبار: رازقاً، وإلا فإن الرزاق في الحقيقة هو الله تعالى وحده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي أَمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِينَ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾، أي: واذكر يوم القيامة، يوم يحشر الله الخلائق ويجمعهم جميعاً، ويحشر المشركين وأهلهم التي عبدوها من دون الله من الملائكة وغيرهم، في ذلك اليوم العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُم لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠].

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه التقريع لمن عبدوهم من دون الله: ﴿أَهْلُوا لِي أَمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين الذين يزعمون أنهم كانوا يعبدون

(١) سبق تخرجه.

الملائكة؛ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم.

كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾

[الفرقان: ١٧].

وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن

دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾، أي: قالت الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، أي: تنزيهاً وتقديساً لك عن

النقص، وعن مشابهة المخلوقين، ومن أن يكون لك شريك، لا منا ولا من غيرنا.

كما قال عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿أَنْتَ وَإِلَيْنَا مِن دُونِهِمْ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛

أي: أنت وحدك ولينا: ربنا وإلهنا، ولا موالاة بيننا وبينهم، ونحن عبيدك مفتقرون إليك،

فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح أن نتخذ من دونك أولياء وشركاء؟

﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي؛ أي: بل

كان هؤلاء المشركون، ﴿يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾، أي: يعبدون الشياطين ويطيعونهم؛ لأنهم هم

الذين يزينون لهم عبادة غير الله، ويضلونهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا

إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي حديث عدي قال ﷺ: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم

الله فتحلونه؟» قال: بلى. قال: «فتلك عبادتهم»^(١).

ولهذا حذر عز وجل بني آدم من عبادة الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْعَدُوا

إِلَىٰ كُفْرٍ بَيْنِي وَبَيْنَ أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ [يس: ٦٠-٦١].

﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾، أي: أكثر المشركين بالجن ﴿مُؤْمِنُونَ﴾، أي: مصدقون

بهم، يصدقونهم فيما يقولون، وينقادون لهم، ويعوذون بهم، ويعتقدون فيهم جلب

(١) سبق تحريجه.

النفع ودفع الضر؛ كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لأن منهم سادة وأتباعاً، فالسادة مصدقون للجن، والأتباع مقلدون لساداتهم.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ «ال»: للعهد الذكري؛ أي: اليوم المذكور في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لَا يَمَلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ﴾ الخطاب للمشركين ومعبوداتهم من الجن وغيرهم، ﴿تَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا يقدر بعضكم أن يقدم لبعض نفعاً، من شفاعاة ولا غيرها، ولا يدفع عنه ضرراً برفع العذاب، وتتقطع بكم الأسباب، فلا المعبود المؤمل فيه النفع ينفع عابده؛ كما أن العابد لا ينفع معبوده؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ] ﴿[الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: معطوف على قوله: ﴿لَا يَمَلِكُ﴾، أي: واليوم نقول للذين ظلموا بالشرك والكفر والتكذيب بالنار؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ أي: بشرك.

أي: ونقول لهم؛ تبيكيتاً وتقريعاً وتوبيخاً وإهانة لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾، أي: تجرعوا عذاب النار وقاسوه، وأحسوا بالألم الشديد.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: ونقول لكم، بل قال: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ للتسجيل عليهم بالظلم، وليعمهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين.

﴿الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾، أي: في الدنيا بقولكم: لا بعث، ولا حساب، ولا عذاب، ولا جنة، ولا نار؛ كما قال في سورة السجدة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

الفوائد والأحكام:

١ - شدة عتو كفار مكة وعنادهم؛ لنفيهم أن يؤمنوا بالقرآن، ولا بالذي بين يديه،

لا في الحال، ولا في الاستقبال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

٢- تقليلهم من شأن القرآن، وتحقيرهم له؛ لقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾، ولم يقولوا: «لن نؤمن بالقرآن»، بل قالوا: ﴿بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾، فأشاروا إليه بإشارة القريب تحقيراً وانتقاصاً له.

٣- كفرهم بالكتب السابقة، وتماديهم بالطغيان؛ لقولهم: ﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأن هذا يحتمل نفیهم الإیمان بما سبق القرآن من الكتب، ويحتمل نفیهم الإیمان بما يأتي مما أخبر به، ومما لم ينزل بعد منه.

٤- شدة حال الكافرين والظالمين المكذبين عند وقوفهم عند ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: لرأيت أمراً عظيماً، وهو لا جسيماً.

٥- إثبات البعث والحشر، والوقوف بين يدي الله تعالى، والحساب والجزاء بالعذاب أو الثواب؛ لقوله تعالى: ﴿مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ الآية، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَأَمُوتَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

٧- ترداد الظالمين والكفرة القول بينهم، واتهام الأتباع منهم للمتبعين، بأنهم هم الذين حالوا بينهم وبين الإیمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَننَا لَكُم مَّؤْمِنِينَ﴾.

٨- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَننَا لَكُم مَّؤْمِنِينَ﴾ فهم سبب كفرهم وضلالهم، لكنهم لا يعذرون بهذا؛ لقيام الحجة عليهم بمجيء الهدى إليهم، مع ما أعطاهم الله من العقول والقدرة والاختيار.

٩- تبرؤ المتبعين من أتباعهم، وإنكارهم أن يكونوا هم الذين صدوهم عن الهدى، وأنه إنما صدوهم عن ذلك كونهم مجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ

أَسْضَعِفُوا أَنْحُنُ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِكُلِّ كُفْرٍ مَجْرِمِينَ ﴿٣١﴾.

١٠- إقرارهم بمجيء الهدى إليهم، ولكن في وقت لا ينفعهم ذلك؛ لقولهم:
﴿أَنْحُنُ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾.

١١- مكر المستكبرين الكبار بالمستضعفين، وجرأتهم على أمرهم بالكفر بالله،
وجعل الأنداد والشركاء له؛ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ
الْيَلِ وَالنَّهَارِ إِذَا تَمُرُّونَنَا أَنْ تَكْفُرَ بِاللَّهِ وَتَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾.

١٢- وجوب الحذر من المستكبرين ودعاة الكفر والشرك والضلال؛ لأنهم سبب
للحيلولة بين الإنسان وبين الإيمان والهدى، ووقوعه في الكفر والشرك والردى،
وزعيمهم في ذلك إبليس الذي أخرج الأبوين من الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَسَهُمَا آيَاتِي
لَكُمَا لِمَنِ النَّصِيحِينَ ﴿٣١﴾ فَذَلَّلَهُمَا بَعْرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١-٢٢].

ولهذا حذرنا الله منه ومن جنوده وذريته؛ كما قال تعالى: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ
الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

١٣- تقطع الأسباب بالكفار يوم القيامة، من الأتباع والمتبوعين والأخلاء، وتبرؤ
بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا
كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]،
وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال
تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]،
وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ
لَعَنَّتْ أُمَّةً﴾ [الأعراف: ٣٨].

١٤- إسرارهم الندامة والحسرة على كفرهم في أنفسهم يوم القيامة؛ خوف الخزي
والفضيحة حين رؤيتهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ تَمَّارًا وَأَوَّا الْعَذَابَ﴾.

١٥- أن الندم لا ينفع عند معاينة العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ تَمَّارًا وَأَوَّا
الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٦- الجمع للكفار بين العذاب والإهانة؛ بربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال؛

لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْتَقَلَّ فِي أَعْتَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٧- أن الجزء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، ولا يجازى أحد إلا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فالؤمنون يجازون بالفضل، والكفار يجازون بالعدل، ولا يظلم ربك أحداً.

١٨- إرسال الرسل إلى جميع الأمم وأهل القرى؛ إعداراً وإنذاراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

١٩- أن من حكمة إرسال الرسل: الإنذار والتحذير من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾، أي: من رسول ينذر من عصي منهم عذاب الله، ومن لازم ذلك أن يبلغهم رسالة الله، وأوامره ونواهيه، ويشر من أطاع منهم بثواب الله.

٢٠- تكذيب المترفين في كل قرية للرسل، وكفرهم بما أرسلوا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

٢١- التحذير من الترف؛ لأنه يحمل على الأشر والبطر والاستكبار، والطغيان ورد الحق، وعدم الإيمان بالرسل.

٢٢- اغترار المترفين وافتخارهم على غيرهم بكثرة أموالهم وأولادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنُحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾.

٢٣- أن كثرة الأموال والأولاد من أسباب الافتتان، ومما يحمل على الطغيان.

٢٤- نفيهم أن يعذبوا؛ زعمًا منهم أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، أو أنهم إن كان ثمة بعث فسينعمون في الآخرة كما نعموا في الدنيا؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كما قال صاحب الجنتين: ﴿وَلَيْن رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّمَّا مِنْ بَعْدِ صَرَءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنِ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠].

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي﴾.

٢٦- حكمة الله تعالى البالغة في توسيع الرزق لمن يشاء من عباده، وتضييقه على من

يشاء، وأنه لا دلالة في ذلك على رضا الله ومحبته، أو عدم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رِئِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ رِئِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾.

٢٧- أن الرزق كله بيد الله، ومنه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٤٦]، فيجب طلب الرزق منه وحده مع بذل الأسباب.

٢٨- إثبات الأفعال الاختيارية والمشیئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ﴾، وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾.

٢٩- أن كثيرًا من الناس يجهلون حقيقة ما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم؛ كما يجهلون حكمة الله في توسيع الرزق وتضييقه بمشيئته، وأنه لا ارتباط له برضا الله ومحبته، أو عدم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٣٠- نفي أن تكون كثرة الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله زلفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقْرَبُونَ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾.

وكما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَا أُؤْتَىٰ ۖ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۗ﴾ [مريم: ٧٧-٧٨]، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۗ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَمْ مَمْدُودًا ۗ وَبَيْنَ شُهُودًا ۗ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۗ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۗ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينًا ۗ سَاءَ هَقُّهُ صَعُودًا ۗ﴾ [المدثر: ١١-١٧].

٣١- أن الذي يقرب إلى الله تعالى زلفى هو الإيثار والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

٣٢- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح، وكون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٣٣- أن الذي يقربه ماله وولده إلى الله هو من آمن وعمل صالحًا، فعمل بالمال وفق شرع الله، وربى أولاده على طاعة الله؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

ولهذا قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم

ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

٣٤- مضاعفة جزاء وثواب من آمن وعمل صالحاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا﴾ الآية.

٣٥- علو منازلهم ومساكنهم في الجنة، وأمنهم فيها من جميع المخاوف: من الموت، ومن المرض، ومن الهرم، ومن انقطاع النعيم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْعَرْشَاتِ امْنُونَ﴾. وعن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَنَّ تِلْكَ أَلْجَنَّةُ أُرِثْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»^(٢).

٣٦- أن الإيثار والعمل الصالح سبب لدخول الجنة ومضاعفة الأجور، والتنعم بمنازلها العالية والأمن فيها، وليس عوضاً عن ذلك، كما يقول المعتزلة. قال ﷺ: «لن يدخل أحداً عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة»^(٣).

٣٧- الوعيد والتهديد للذين يسعون في آيات الله معاجزين؛ لإبطلها، مغالين لله، بأنهم لن يفلتوا من عقابه، وسيحضرون في العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

٣٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ عِبَادِهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

٣٩- الترغيب بالإنفاق والحث عليه؛ لوعده عز وجل للمنفقين بضمان خلف ما

(١) أخرجه مسلم في التوحيد، ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تحريجه.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى، تمني المريض الموت ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة، لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ٢٨١٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنفقوه من قليل أو كثير في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾. ٤٠- أنه يجوز أن يطلق على من كان سبباً في الرزق من المخلوقين أنه «رازق»، وإن كان الرزق كله من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

٤١- التذكير بيوم القيامة يوم الحشر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾. ٤٢- إثبات القول والكلام لله تعالى بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكِ الْكَلِمَةَ﴾ الآية.

٤٣- إثبات وجود الملائكة، ومخاطبته عز وجل لهم، وتكليمهم له؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكِ الْكَلِمَةَ أَهْلُؤَلَاءِ إِنَّا كَرِهْنَا لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُونَهُ﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ الآية. ٤٤- تنزيه الملائكة لله عز وجل، وتقديسهم له أن يكون له شريك لا منهم ولا من غيرهم، وتبرؤهم من المشركين ومن عبادتهم لهم؛ لقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

٤٥- إثباتهم ولاية الله تعالى وربوبيته لهم دون سواه؛ لقولهم: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾. ٤٦- عبادة المشركين للجن والشياطين بطاعتهم لهم، باتخاذ الأنداد والشركاء مع الله، وتصديقهم والانقياد لهم، واعتقادهم أنهم يقدرون على جلب النفع، ودفع الضر؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمِّ مُؤْمِنُونَ﴾.

٤٧- إثبات وجود الجن، وهم عالم غيبي خلقوا من نار؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾، فيجب الإيمان بوجودهم، لكن لا تجوز عبادتهم.

٤٨- عدم قدرة المشركين ومعبوداتهم يوم القيامة على جلب نفع أو دفع ضر لبعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

٤٩- تقرير الظالمين وتبكيتهم؛ لتعذيب قلوبهم عذاباً معنوياً مع ما هم فيه من العذاب الحسي في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ﴾.

٥٠- تكذيب الظالمين بالبعث والحساب، وبالنار وعذابها.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آفَاكُ مَقْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُؤْمِينٌ ﴿١٣٦﴾ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿١٣٧﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا تَبَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٣٨﴾ * قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى وَفَرْدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿١٣٩﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٤٠﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ ﴿١٤١﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿١٤٢﴾ قُلْ إِنْ ضَلَّكَ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿١٤٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آفَاكُ مَقْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُؤْمِينٌ ﴿١٣٦﴾ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿١٣٧﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا تَبَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٣٨﴾:

لما ذكر ما أعده للظالمين من العذاب الحسي والمعنوي في النار، بين استحقاقتهم لذلك بسبب تكذيبهم الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

قوله: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وإذا تقرأ على هؤلاء الظالمين المكذبين.

﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾، أي: آيات القرآن الكريم واضحات، في ألفاظها ومعانيها وأحكامها وإعجازها، وأنها ليست من كلام البشر.

﴿قَالُوا﴾ تكذيباً للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق: ﴿مَا هَذَا﴾ يعنون النبي ﷺ، وأشاروا إليه بقولهم: ﴿مَا هَذَا﴾ كأنه قريب حاضر احتقاراً له، وتقليلاً لشأنه.

﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ «يريد»، و«ما» موصولة، وقولهم: ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ بصيغة الإنكار كأنهم لا يعرفونه.

أي: ما هذا إلا رجل يريد صرفكم عن الذي كان يعبد آباؤكم وأجدادكم من الآلهة، وليس مراده الإصلاح لكم، ولا الهداية والإصلاح، وإنما يريد صرفكم عن دين آبائكم، فاتهموه ﷺ بسوء القصد، ولم يقولوا: «يصدكم عما كنتم تعبدون»، بل قالوا:

﴿يُصَدِّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ لإثارة الحمية والعصبية في نفوسهم؛ للتمسك بما عليه آبائهم، ولو كان باطلاً؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آفَاكُ مُفْتَرِيًّا﴾، أي: ما هذا القرآن، فطعنوا في الرسول ﷺ وفي قصده، وطعنوا في القرآن.

و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا آفَاكُ﴾، أي: كذب بنفسه، ﴿مُفْتَرِيًّا﴾، أي: مخلق؛ أي: أنه ﷺ اختلقه من عند نفسه، وافتراه وتقوله على الله، وليس فيه شيء من الصدق، وليس من عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ [الطور: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا آفَاكُ أَفْتَرْتَهُ وَآعَانَهُ وَعَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أظهر في مقام الإضرار فلم يقل: «وقالوا»، بل قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لتسجيل الكذب عليهم، وليشملهم الوصف بالكفرهم وغيرهم ممن سلك سبيلهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

أي: وقال الذين كفروا للحق، وهو القرآن حين جاءهم من عند الله تعالى على لسان الرسول ﷺ.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ «إن»: نافية، بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما هذا إلا سحر بين واضح ظاهر.

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ الضمير يعود إلى مشركي العرب؛ أي: وما أنزلنا عليهم. ﴿مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ «من» في الموضوعين زائدة، من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما آتيناهم من أي كتب يقرؤونها؛ أي: لم نؤتاهم أي كتاب يقرؤونه قبل القرآن.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾، أي: وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد أي نذير.

أي: أن الله بعثه ﷺ في قوم أميين لا يقرؤون، ولم ينزل عليهم كتاباً قبل القرآن، ولم يرسل إليهم قبله ﷺ نذيراً، وكانوا في أشد الحاجة إلى ذلك.

كما قال تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣]؛ ولهذا امتن الله عليهم بذلك فقال:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فكان الأليق بهم أن يفرحوا بإنزال القرآن، وبارسالك إليهم، ويصدقوك، ويقبلوا ما جئت به، ولا يكذبوك، وقد كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]؛ أي: أهدى من غيرنا.

فالآية على هذا المعنى فيها توبيخ لهم على تكذيبهم له ﷺ وللقرآن.

ويحتمل أن المراد: أن هؤلاء المكذبين من قومك لم يستندوا في تكذيبهم لك ولما جئتهم به على وحي منا، لا على كتب أنزلناها عليهم يدرسونها، ولا على علم من نذر أرسلناهم إليهم، وإنما مستندهم الجهل المركب، والتقليد الأعمى لأبائهم. ولا تنافي بين المعنيين.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مَعْشَرَ مَاءِ آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِيَّ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾
لما ذكر تكذيب المشركين له ﷺ ولرسالته، أتبع ذلك بذكر تكذيب الذين من قبلهم لرسولهم، وعقابه إياهم، تسلياً له ﷺ، وتهديداً للمكذبين.

قوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: من الأمم؛ أي: كذبوا رسولهم، وما جاؤوا به من الحق من عند الله، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وفرعون، وغيرهم.

﴿وَمَا بَلَغُوا مَعْشَرَ مَاءِ آتَيْنَهُمْ﴾ «المعشار»: واحد من عشرة؛ أي: العشر، و«ما» موصولة؛ أي: وما بلغ المكذبون من قومك يا محمد عشر الذي آتينا أولئك الأقوام، من القوة والأموال والأولاد، وطول الأعمار؛ أي: ولم ينفعهم ذلك أو يدفع عنهم عذاب الله؛ ولهذا قال:

﴿فَكَذَّبُوا رَسُولِيَّ﴾ إليهم؛ أي: كذبوهم بما أرسلتهم به من الحق، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فكيف كان إنكارهم عليهم ونكالي بهم، وانتصاري لرسلي؛

أي: ما أشد إنكارى عليهم، وعقابي إياهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي مَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٩].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٨٢].

أي: وما دفع عنهم ما مكنوا فيه وما أعطوه من القوة والنعمة عذاب الله، وما رده، بل دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها؛ كما قال تعالى: ﴿* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ امْتِثَالَهُمْ ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿* قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَجْدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٥١﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين لك، الزاعمين أنك مجنون.

﴿إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَجْدِهِ﴾ «إنما»: أداة حصر، ﴿أَعْطَاكُمْ بِوَجْدِهِ﴾، أي: أمركم ببخلة واحدة فقط؛ أي: ما أمركم - لتقريب شقة الخلاف بيننا وبينكم، وطى بساط

المناظرة- إلا بخصلة واحدة، وهي طريقة نصف: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ «أن» والفعل «تقوموا» في تأويل مصدر في محل جر بدل من «واحدة»، أو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هي واحدة، والجملة صفة لواحدة.

﴿لِلَّهِ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: قيامًا خالصًا لله تعالى، وبحثًا عن الحق والصواب، من غير هوى ولا عصبية، ولا مراعاة لي، ولا لأحد من الخلق، والمراد بقوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾، أي: أن تثبتوا على شيء.

﴿مَثْنَى وَفُرْدَى﴾ حال؛ أي: حال كونكم مثنى وفرادى؛ أي: اثنين اثنين فأكثر، وجماعات، وفردًا فردًا؛ أي: واحدًا واحدًا.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، أي: تتأملوا فيما بينكم مجتمعين، وكل فرد مع نفسه خاصة. ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما بصاحبكم محمد أي جنة كما تزعمون؛ كما في قولهم: ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جَنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨].

وفي قوله: ﴿بِصَاحِبِكُمْ﴾ زيادة في التشنيع عليهم، والتوبيخ لهم، كيف يصفونه بالجنون والسحر ونحو ذلك وهو صاحبهم، يعرفون عقله وصدقه وأمانته؟! وكان الأجدر بهم أن يكونوا أول من يصدقه ويؤازره، ويؤمن بما جاء به.

كما قال تعالى: ﴿أَوْ لِمَ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جَنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْبَرُ هُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ يحتمل أن يكون معناه: نفي وإبطال قولهم؛ أي: ثم تنفكروا وتتأملوا أنه ما بصاحبكم من جنة.

ويحتمل أن المعنى: ثم تنفكروا وتتأملوا، فيظهر لكم أنه ما بصاحبكم من جنة، فيكون قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ نتيجة تفكرهم.

قال ابن القيم: «فأشار بقيامهم اثنين اثنين إلى المناظرة، وفرادى إلى النظر والتفكير. وكل منها ينقسم إلى محمود ومذموم؛ فالنظر المحمود: النظر في الطريق الصحيح؛ ليتوصل به إلى معرفة الحق.

والنظر المذموم نوعان: أحدهما النظر في الطريق الباطل - وإن قصد به التوصل إلى الحق - فإن الطريق الباطل لا يفضي إلى الحق.

والثاني: النظر والتفكر الذي يقصد به رد قول خصمه مطلقاً، حقاً أو باطلاً، فهو ينظر نظراً يرد به قول من يبغضه ويعاديه بأي وجه كان.

فأما المناظرة فتتقسم إلى محمودة ومذمومة، والمحمودة نوعان، والمذمومة نوعان، وبيان ذلك: أن المناظر إما أن يكون عالماً بالحق، وإما أن يكون طالباً له، وإما ألا يكون عالماً به ولا طالباً له، وهذا الثالث هو المذموم، وأما الأولان: فمن كان عالماً بالحق فمناظرته التي تحمد: أن يبين لغيره الحججة التي تهديه، إن كان مسترشداً طالباً للحق، أو تقطعه أو تكسره إن كان معانداً غير طالب للحق، ولا متبع له، أو توقفه وتبعثه على النظر في أدلة الحق، إن كان يظن أنه على الحق وقصده الحق^(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

لما نفى أن يكون به ﷺ جنة كما زعموا، بين لهم حقيقة أمره، فقال:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما هو

ﷺ إلا نذير لكم، ينذركم ويحذركم عذاب الله؛ ولهذا قال:

﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ﴾، أي: قبل عذاب قريب في الدنيا والآخرة، في الدنيا كما حصل

لهم في بدر وغيرها من القتل والسبي والأسر والإذلال، وفي الآخرة بعذاب النار، وهو آتٍ، وكل آتٍ قريب، ﴿شَدِيدٍ﴾ قوي شاق، لا يطاق.

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا

صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، قالوا: ما لك؟ قال: «أرأيتم لو أخبرتم أن العدو

يصبحكم ويمسيكم، أما كنتم تصدقوني؟»، قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب

شديد». فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٢).

وعن بريدة رضي الله عنه، قال: خرج علينا النبي ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات،

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ ٤٨٠١، والترمذي في التفسير ٣٣٦٣.

فقال: «أيها الناس، تدرون ما مثلي ومثلكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًّا يأتيهم، فبعثوا رجلاً يترأى لهم، فبينما هم كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس، أتيتم، أيها الناس، أتيتم، ثلاث مرات»^(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَفْزِدُ بِالْحَقِّ عَلَّمَ الْغُيُوبَ ﴿١٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدْعَى الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿١٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٢٠﴾﴾: قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

لما نفى ما زعموه من أن به جنة، ويبيّن لهم حقيقة أمره، وأنه إنما هو نذير لهم بين يدي عذاب شديد، أتبع ذلك ببيان أنه ما سألهم على ذلك أجرًا، فيستثقلوا المغرم، بل الأجر في ذلك لهم، وأجره على الله.

قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ «ما»: شرطية؛ أي: أي أجر سألته منكم فهو لكم. أو موصولة؛ أي: الذي سألته منكم ﴿مَنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

و«من»: بيانية؛ أي: قل يا محمد للمكذبين لك: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ على إنذاري لكم، وتبليغي رسالة الله إليكم ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾.

والأجر هو: ما يعطى مقابل عمل أو استيفاء نفع؛ أي: لا أريد منكم مقابل ذلك أجرًا وجعلًا وعطاءً، فتعدون ذلك غرمًا مانعًا لكم من تصديقي واتباعي؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا على سبيل التنزل مع الخصم؛ أي: على فرض أنني سألتكم أجرًا فهو لكم، علمًا أنه لم يسألهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [ص: ٨٦].

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما أجري وثوابي في تبليغكم رسالة ربي إلا على الله تعالى وحده.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: محيط بكل شيء، عليم به، مطلع عليه، يشهد على تبليغي رسالته إليكم، وعلى تكذيبكم إياي، وعلى جميع أعمالكم يحصيها ويحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: «الغُيُوبِ» بكسر الغين، وقرأ الباقون بضمها: ﴿الغُيُوبِ﴾.

أي: قل يا محمد: ﴿إِنْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾، أي: يرمي بقوة بالقول الحق وحججه وبراهينه على الباطل فيمحوه ويزهقه؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ، فَيَأْذَاهُ وَرَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ «علام» على وزن «فَعَّال» صيغة مبالغة، وفيه دلالة على سعة علمه وإحاطته بالغيوب كلها على كثرتها، ودقة علمه فيها.

و«الغيوب»: جمع «غيب»؛ وهو: كل ما غاب عن الناس فلم يدركوه بحواسهم؛ في الحاضر والماضي والمستقبل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾، أي: الأمر الثابت والدين الحق الذي بعث الله به محمداً ﷺ بالكتاب والسنة.

﴿وَمَا يَبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ «الباطل»: ضد الحق، وهو الكفر، كذب في الأخبار، وظلم في الأحكام. والإبداء: الإتيان بالشيء ابتداءً. والإعادة: الإتيان به مرة أخرى؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧].

ومعنى: ﴿وَمَا يَبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾: أن الباطل ينهار أمام قوة الحق، فلا يبدئ ولا يعيد، ولا يُقَدِّم ولا يُؤَخِّر، فلا يقوى على مقاومة الحق ولو لحظة، بل يزهق ويضمحل ويذهب؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعنها بعود معه ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ﴾، ﴿جَاءَ

الْحَقُّ وَمَا يُدْعَى الْبَاطِلُ وَمَا يُعْبَدُ ﴿سَبَأ: ٤٩﴾ [١].

﴿قُلْ إِنْ ضَلَّكَ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: ﴿إِنْ ضَلَّكَ﴾، أي: إن ضللت عن الحق كما تزعمون، وهذا من باب التنزل مع الخصم، وإلا فهو ﷺ يعلم أنه أهدى الناس، ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾، أي: فإنما إثم ضلالي على نفسي، وليس عليكم من ذلك من شيء.

﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحق، ﴿فَمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، والباء: للسيبية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية؛ أي: فبسبب الذي يوحى إلي ربي، أو فبسبب وحي ربي إلي من القرآن والسنة، ففي ذلك الهدى والنور.

كما قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ لَشَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

قال ابن القيم: «فهذا نص صريح في أن هدى الرسول إنما يحصل بالوحي، فإعجاباً كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول والأقوال المضطربة، ولكن من يهدى الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجده له ولياً مرشداً.

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها إلى عقل فلان ورأي فلان، وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين» (٢).

﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: إنه سميع مجيب لدعائي، ودعاء عباده، ذو السمع الواسع،

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٢٨٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٨١، والترمذي في التفسير ٣١٣٨، وأحمد ٣٧٧/١، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم بمعناه ١٧٨٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٠.

الذي يسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿قَرِيبٌ﴾ إلى عباده، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه؛ كما قال ﷺ في حديث أبي موسى رضي الله عنه: «أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، لكن تدعون سمياً بصيراً»^(١).

وفي رواية: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إقامة الحجة على المشركين المكذبين للنبي ﷺ وما جاء به، بتلاوة آيات الله تعالى بينات عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾.

٢- شدة عتوهم وتكذيبهم له ﷺ، واحتقارهم له، واتهامهم إياه بسوء القصد، وأنه إنما يريد أن يصدّهم عما يعبد آباؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ﴾.

٣- تقليدهم آباءهم على جهل وضلال، وإثارتهم الحمية في التمسك بما هم عليه من الباطل وعبادة غير الله؛ لقولهم: ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ﴾.

٤- إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ﴾.

٥- تكذيبهم القرآن، وزعمهم بأن الرسول ﷺ اختلقه من عند نفسه وافتراه على الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آفَاكُ مُفْتَرَىٰ﴾.

٦- زعمهم أن ما جاءهم به الرسول ﷺ ما هو إلا سحر بين واضح؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٧- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق، دون سواه.

٨- جمعهم أوصاف الكفر كلها من تكذيبه ﷺ، وتكذيب القرآن، وزعمهم بأنه سحر؛ ولهذا أظهر في مقام الإضمار، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية؛ لتسجيل

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، الدعاء إذا علا عقبه ٦٣٨٤، ومسلم في الذكر، استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٧٠٤.

(٢) جاء هذا في إحدى روايات مسلم لحديث أبي موسى رضي الله عنه ٢٧٠٤.

- الكفر عليهم، وليعمهم وصف الكفر ومن سلك مسلكهم.
- ٩- أن أهل الباطل لا يتورعون من وصف الحق ومن جاء به بأبشع الأوصاف للتفسير من ذلك، فوصفوا الرسول ﷺ بسوء القصد، وبأنه مفترٍ، ووصفوا القرآن بأنه كذب مفترى وسحر.
- ١٠- أن الله عز وجل لم ينزل على العرب كتاباً قبل القرآن، ولم يرسل إليهم رسولاً قبل محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [١١].
- ١١- الامتنان عليهم بإنزال القرآن عليهم، وبعثه فيهم رسولاً منهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].
- ١٢- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿فِيمَا يُوحِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.
- ١٣- أن الله لم يبعث في العرب رسولاً إلا محمداً ﷺ.
- ١٤- أن من أعظم مهمات الرسل عليهم السلام: الإنذار والتحذير من عذاب الله تعالى. ومن لازم ذلك: بيان الأوامر والنواهي التي يُنذر ويحذر من عدم امتثالها، ويبشر من امتثالها؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ﴾ الآية.
- ١٥- أنه ليس لدى من كذب الرسول ﷺ من مشركي مكة، وطعن في رسالته وما جاء به: مستند من كتاب، ولا أثره من علم رسول؛ لأنه لم يأتهم كتاب قبل القرآن، ولا رسول قبل محمد ﷺ، فيزعموا أنه ﷺ خالف ما جاءهم قبله.
- ١٦- تسليته ﷺ بذكر تكذيب الأمم السابقة لرسولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ الآية.
- ١٧- تهديد المكذبين له ﷺ بذكر شدة عقابه للمكذبين قبلهم، مع أن أولئك الأقوام أقوى منهم، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأطول أعماراً، وما نفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [١٨].

- ١٨- تشریف الله عز وجل للرسول بإضافتهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلًا﴾.
- ١٩- أن السعيد من وعظ بغيره فاتعظ.
- ٢٠- إثبات قياس الأولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَلْعَوُا مَعَشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ الآية، فإذا كان عز وجل أخذ أولئك الأقوام مع قوتهم وشدتهم وكثرة أموالهم وأولادهم لما كذبوا، ولم ينفعهم ذلك، فمن دونهم من باب أولى.
- ٢١- دعوة المعاندين له ﷺ دعوة إنصاف بخصلة واحدة فقط؛ تقريباً لشقة الخلاف، وهي أن يقوموا قومة خالصة لله جماعات وفرادى، ثم يتفكروا فيما رموه به ﷺ من الجنون؛ لتظهر لهم حقيقة الأمر، وأنه العاقل الرشيد، وما به من جنة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْءٍ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ وَمَا يَصْحَابِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾.
- ٢٢- ينبغي لمن يطلب الحق في أي خلاف يحصل، أن يكون مخلصاً لله تعالى متجرداً من الهوى وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾.
- ٢٣- مشروعية التعاون، وإعمال الفكر للوصول إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْءٍ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ﴾.
- ٢٤- نفي انتصافه ﷺ بالجنون؛ كما كانوا يزعمون، والإشارة إلى أنهم يعلمون أنه الرشيد العاقل الأمين؛ لأنه صاحبهم يعرفونه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَصْحَابِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾.
- ٢٥- إثبات الآخرة والحساب، والتحذير للمكذابين من عذاب قريب شديد في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.
- ٢٦- أن من بلاغة القرآن الاكتفاء بما يناسب المقام؛ فقد اكتفى في هذه الآيات بذكر الإنذار؛ لأن المقام مقام تحذير وتخويف.
- ٢٧- أنه ﷺ لم يطلب من أحد أجراً على تبليغ الرسالة والإنذار، وكذا غيره من المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.
- ٢٨- سد الذرائع التي قد يتعلل بها من أراد رد دعوة الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].
- ٢٩- أنه لا يجوز أخذ الأجر على الدعوة إلى الله ونشر العلم الشرعي الواجب نشره.
- ٣٠- إخلاصه ﷺ في دعوته وتبليغ رسالة ربه، وطلبه الأجر من الله، وضمن الله

عز وجل له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

٣١- إثبات علم الله تعالى الواسع، واطلاعه وشهادته على كل شيء، ومن ذلك شهادته عز وجل على صدقه في تبليغ رسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ وَيَعْلَمُهَا وَالْمَلَائِكَةُ يُشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وفي هذا تقوية وتأيد له.

كما يشهد عز وجل على تكذيب المشركين له، وفي هذا تهديد لهم.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾.

٣٣- قذفه عز وجل بقوة وشدة بالحق - وهو ما أرسل به رسله - على الباطل؛ فإذا هو زاهق زائل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْدِفُ بِالْحَقِّ﴾.

٣٤- علم الله تعالى وإحاطته بجميع الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾.

٣٥- زهوق الباطل وزواله، وعدم ثباته أمام قوة الحق، واضمحلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

٣٦- التنزل مع الخصم ولو كان في ذلك غضاضة على النفس بقصد الوصول إلى المقصود؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾، أي: فإنما إثم ضلالي على نفسي، وليس ذلك عليكم، وحاشاه ﷺ من الضلال.

٣٧- أن الهداية والتوفيق بيد الله تعالى، واتباع وحيه؛ لقوله ﷺ: ﴿وإِنِ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّي﴾.

٣٨- أن ما يصيب الإنسان من حسنة فمن الله، وما يصيبه من سيئة فمن نفسه، فمن ضل فضلاله من نفسه، ومن اهتدى فهدايته من الله.

٣٩- أن هدى الله هو الهدى؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠]، وهو سبب الاهتداء، لمن تدبره واتبعه.

٤٠- إثبات الأسباب وتأثيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّي﴾.

٤١- إثبات صفة السمع الواسع لله تعالى، وقربه بذاته من عباده وسماعه دعاءهم واستجابته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّتْنَا بِهٖ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهٖ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾.

لما ذكر تكذيب المشركين له ﷺ ولما جاء به من الآيات البينات، وزعمهم أن ذلك ما هو إلا إفك مفترى، وسحر مبین، أتبع ذلك بذكر شدة فزعهم عند الموت، ويوم القيامة وأخذهم بالعذاب.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿إِذْ فَرَغُوا﴾، أي: خافوا أشد الخوف، وذلك عند الموت، ويوم القيامة حين ينفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَّجَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥١-٥٢].

﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ الفاء: تعليلية، و«لا»: نافية للجنس، ﴿قُوَّةَ﴾: اسمها منصوب، وخبرها محذوف؛ أي: فلا يفوتون الله، ولا يعجزونه ولا مفر لهم ولا مهرب، ولا محيد ولا مناص؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَاتِجِبِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].
وجواب «لو» محذوف للتهويل والتعظيم؛ أي: لرأيت أمراً عظيماً، ومنظراً فظيماً، وهو لا جسيماً.

﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، أي: وأخذوا بالعذاب من مكان قريب، ليس ببعيد؛ أي: أخذوا من الدنيا بالموت، أو من قبورهم، أو من المحشر.

﴿وَقَالُوا﴾، أي: عند فزعهم وأخذهم بالعذاب: ﴿ءَأَمَّتْنَا بِهٖ﴾، أي: آمنا وصدقنا بما كنا مكذبين به من الحق، فآمنا بالله وبكتبه ورسله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي وخلف وأبو بكر بالمد والهمز: «التَّنَاطُوسُ»، وقرأ الباقون بالواو بعد الألف من غير همز: ﴿التَّنَاطُوسُ﴾.

﴿وَأَنَّى﴾ استفهام بمعنى الاستبعاد، و﴿التَّناوُشُ﴾ معناه: أخذ الشيء وتناوله من بعيد؛ أي: وأنى لهم تناوش الإيـان وتناوله ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، أي: عند الموت، أو يوم القيامة؛ لأن ما عند الموت حالة اضطرار لا يقبل فيها الإيـان ولا ينفع، ولأن القيامة دار جزاء لا دار عمل.

وبين قوله: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، وقوله قبله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ طباق. و﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ الواو: حالية؛ أي: كيف يحصل لهم الإيـان عند الموت أو يوم القيامة، والحال أنهم قد كفروا به قبل الموت، وفي الدنيا قبل الآخرة. و﴿وَيَقْدِرُونَ﴾، أي: ويرمون ويرجمون ﴿بِالْغَيْبِ﴾، أي: بالظن الكاذب؛ كما قال تعالى: ﴿رَحِمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢].

وفي هذا إشارة إلى أنهم لم يحاولوا الدنو والقرب والنظر والتأمل فيه، وفيما جاء به ﷺ، فتارة يقولون عن النبي ﷺ: شاعر، وتارة: ساحر، وتارة: كاهن، وتارة: مجنون؛ كما قالوا عن القرآن تارة: إنه سحر، وتارة: إفك مفترى، وتارة: أساطير الأولين، وغير ذلك. كما كذبوا بالبعث والحساب، وبالجنة والنار، وغير ذلك، وقالوا: ﴿إِن تَنْظُرُوا إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، أي: جعل حائلًا بينهم وبين الذي يشتهونه من النجاة وقبول الإيـان والتوبة عند الموت، أو يوم القيامة؛ لفوات وقت ذلك؛ كما حيل بينهم وبين شهواتهم وملذاتهم الدنيوية، وارتهنوا بأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿كَمَا فَعَلْ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾، أي: كما فعل بأشباهم وأمثالهم في الكفر والتكذيب من الأمم الماضية؛ حيث حيل بينهم وبين شهواتهم وارتهنوا بأعمالهم، ولم ينفعهم الإيـان حين جاءهم بأس الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ﴾: تعليل لما قبلها؛ أي: إنهم كانوا في الدنيا هم وأشياعهم من قبل ﴿فِي شَكِّ مُرِيبٍ﴾، أي: في شك محدث للريبة، وتكذيب وكفر.

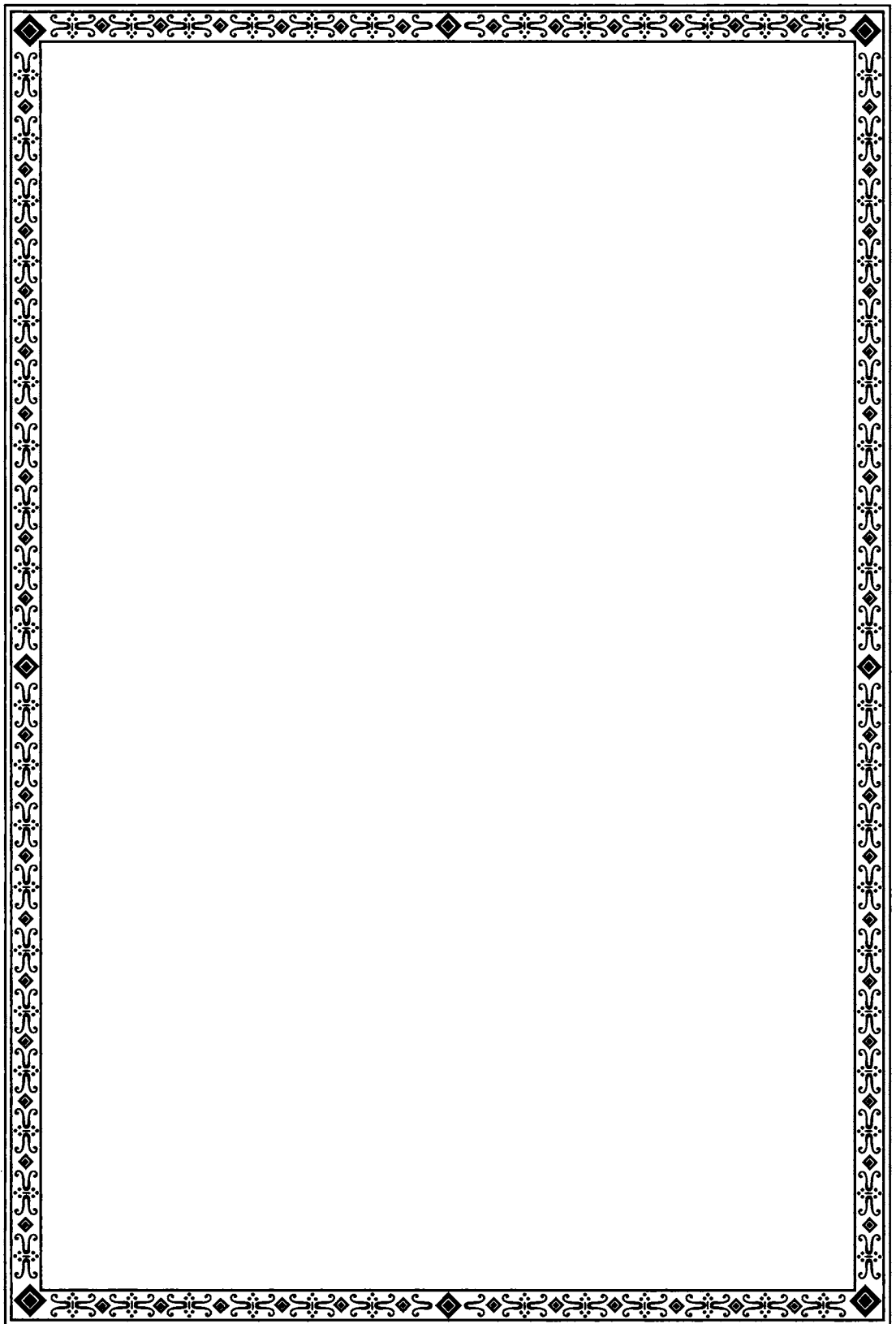
الفوائد والأحكام:

- ١- شدة فزع المكذبين والكفار عند الموت ويوم القيامة؛ لعظم الهول وفضاعة الخطب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ﴾.
- ٢- أنهم لا يفوتون الله ولا يعجزونه، ولا مفر لهم ولا مهرب من أمر الله وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾.
- ٣- أخذهم بالعذاب من مكان قريب؛ لأنهم لا يقدرّون على الهروب والفوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.
- ٤- إيمانهم عند رؤية العذاب بعد فوات وقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾.
- ٥- هيهات أن يقبل منهم الإيمان، وأن ينفعهم آنذاك؛ لأنه إن كان عند الموت فهو إيمان اضطرار لا اختيار، وإن كان في الآخرة فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُوسُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.
- ٦- التبيكيت والتنديد لهم، وأن سبب عدم قبول الإيمان لما رأوا العذاب هو كفرهم من قبل في الدنيا حين كان الإيمان مقبولاً ونافعاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ﴾.
- ٧- شدة جهلهم وكفرهم ورجمهم بالغيب والظنون الكاذبة، والأقاويل الباطلة؛ في تنقصه ﷺ، وما جاء به، من غير أن يحاولوا القرب والنظر؛ ليتفهموا ما جاء به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.
- ٨- الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون ويتمنون من الإيمان عند الموت؛ كما حيل بينهم وبين شهواتهم وملذاتهم الدنيوية، وارتهنوا بأعمالهم؛ كما حيل بينهم يوم القيامة وبين الرجوع إلى الدنيا بعد معاينتهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وهم في هذا كاذبون؛ ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].
- ٩- عدل الله عز وجل في مجازاة المكذبين سابقهم ولاحقهم، ووجوب الاعتبار

- بأحوال السابقين؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾.
- ١٠- أن هؤلاء المذكورين إنما أخذوا بالعذاب، ولم يقبل منهم الإيمان، وحيل بينهم وبين ما يشتهون؛ كما فعل بأمثالهم من قبل؛ لأنهم كانوا في شك وريب وتكذيب وكفر في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ﴾.
- ١١- أن من شك فيما يجب الإيمان به، فهو كافر وليس بمؤمن.
- ١٢- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وإثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة فاطر»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ١].

وتسمى: «سورة الملائكة»؛ لأنه ذكر في أولها وصف الملائكة في قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَثَلَّثَ وَرُبِعَ﴾ [الآية: ١].

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بالشثناء على الله تعالى، وبيان اختصاصه عز وجل بالحمد وصفات الكمال، وذكر مظاهر تمام قدرته ورحمته ونعمته، في خلق السموات والأرض والملائكة وتمام تدبيره وعزته وحكمته، وتفرده بالخلق والرزق، والألوهية وتوبيخ المشركين.

٢- تسليته ﷺ تجاه تكذيب قومه له: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

٣- بيان أن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء حق، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ومن غرور الشيطان، وبيان عداوته: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْهُ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥-٦].

٤- وعيد الكافرين بالعذاب الشديد، ووعد الذين عملوا الصالحات بالمغفرة والأجر الكبير.

٥- شتان بين من زين له عمله فرآه حسناً وأضله الله، وبين من هداه الله تعالى ووقفه.

٦- بيان مظاهر قدرة الله تعالى ونعمته في إرسال الرياح تثير السحاب، وسوقه إلى بلد ميت وإحياء الأرض به بعد موتها، والاستدلال بذلك على البعث والنشور.

٧- تفرده عز وجل بالعزة إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه،
والوعيد للذين يمكرون السيئات بالعذاب الشديد والبولار.

٨- تذكير العباد بأصل خلقهم، وتام علمه عز وجل وقدرته: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمُرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

٩- بيان مظاهر قدرته عز وجل ونعمته في إيجاد البحرين لا يستويان، هذا عذاب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج، وما فيها من المنافع، من الحيتان والحلية، وجريان الفلك. وفي إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، وما في ذلك من المصالح العظيمة للعباد، ومن الدلالة على كمال ربوبية الله تعالى، واختصاصه بالملك - دون ما يعبد المشركون من دونه، ممن لا يملكون شيئاً، ولا يسمعون ولا يستجيبون، بل يكفرون بهم، وبشركهم يوم القيامة.

١٠- بيان حاجة الناس وافتقارهم إلى الله عز وجل، وغناه عز وجل عن جميع الخلق، وقدرته على إذهابهم، واستبدالهم بخلق جديد ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧].

١١- تمام عدله عز وجل، فلا تحمل نفس مذنب ذنب نفس أخرى، ولا أحد يحمل ذنب أحد، ولو كان ذا قربي، وإنما يجازى كل بعمله، وبيان أنه إنما ينتفع بالإنذار الذين يخشون ربهم وأقاموا الصلاة ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

١٢- شتان بين المؤمن والكافر، وبين من كان على هدى ومن كان على ضلال، فلا يستوى الأعمى والبصير، ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور، ولا الأحياء والأموات.

١٣- تسليته ﷺ، وبيان أن الله يسمع ويهدي من يشاء، وأنه ﷺ لا يستطيع إسماع المكذبين وهدايتهم، وهم كالموتى في القبور، وأن مهمته الإنذار والبشارة، وأنه ليس أول من كذبه قومه، فقد كذب الذين من قبلهم، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر والكتاب المنير، فأخذهم الله وعاقبهم.

١٤- بيان وتقرير مظاهر قدرته ونعمته في إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات، وفي إيجاد الجبال المختلفة الألوان، وكذا الناس والدواب والأنعام، وبيان أنه إنما يخشى الله من عباده العلماء الذين يتفكرون في آيات الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

١٥- التنويه بشأن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقهم الله سرا وعلانية وعظم ما أعد لهم من التجارة الرباحة ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠].

١٦- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم، وبيان أنه هو الحق مصدقاً للكتب قبله، وبيان انقسام الناس في العمل به إلى ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذنه وذلك الفضل الكبير، لما أعد لأهله من الجنات وما فيها من النعيم المقيم، وذهاب الحزن، والسلامة من النصب والتعب.

١٧- الوعيد والتهديد للذين كفروا بذكر ما أعد لهم من عذاب جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣٦) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ صَادِقَاتٍ لِّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

١٨- بيان سعة علمه عز وجل، وشموله غيب السموات والأرض وعلمه بذات الصدور.

١٩- الامتتان على الناس بجعلهم خلائف في الأرض، والوعيد لمن كفر منهم، ومقتهم وخسرانهم، والتفريع لهم في عبادتهم من دون الله آلهة لم تخلق شيئاً من الأرض، وما لهم شرك في السموات، وبلا كتاب ولا دليل ولا برهان، بل ظلماً منهم وغروراً من بعضهم لبعض.

٢٠- بيان عظيم قدرته عز وجل وواسع حلمه ومغفرته في إمساك السموات والأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

٢١- إقسام المشركين غاية الأيمان- جهلاً منهم- لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من غيرهم، وكذبهم ونفورهم لما جاءهم واستكبارهم ومكرهم، وتهديدهم ووعيدهم بانتظار العذاب كما هي سنته عز وجل في المكذبين الأولين، وعاقبتهم الوخيمة، وكانوا أشد منهم قوة ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

٢٢- بيان سعة حلمه عز وجل، وعدم معاجلته الناس بكسبهم، وأنه يمهل ولا يهمل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظُهُرِهِمْ دَابِئًا وَلَا كُن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَتَّيَّهَا النَّاسُ أَذْكَرَ أُنْعَمَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَزُفُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَنَّى تُوَفَّكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَتَّيَّهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَظُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزَتُكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ سبق الكلام عليه في مطلع سورة سبأ.

﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خالق السموات والأرض ومبدعها على غير مثال سبق. عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، قال: ابتدأتها». وعنه أيضًا: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: «بديع السموات والأرض»^(١).

﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ﴾، أي: مصير الملائكة كونًا وقدرًا ﴿رُسُلًا﴾: مفعول به لـ «جاعل»؛ أي: جاعل الملائكة رسلًا في تدبير أوامره القدريّة؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]؛ أي: رسلنا من الملائكة، وهم: ملك الموت، وأعوانه.

وأيضًا: رسلًا ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية، ﴿يَتَّيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فُؤَا أُنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحریم: ٦].

والمراد بقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾، أي: جاعل منهم رسلًا، وليس كلهم؛ بدليل

(١) أخرجهما ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣١٧٠.

قوله تعالى في سورة الحج: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].
 ﴿أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ﴾: نعت لـ «رسلاً»؛ أي: أصحاب أجنحة يطرون بها بسرعة فائقة-
 لتنفيذ ما يأمرهم الله به- تفوق سرعة الجن وغيرهم.
 ﴿مَثْنَىٰ﴾: نعت لـ «أجنحة»، وكذلك: ﴿وَتُكَلِّمُكَ وَرُبْعًا﴾، وهي ألفاظ ممنوعة من
 الصرف للوصفية والعدل؛ لأنها معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة، وتدل على المكرر من
 نوعها؛ أي: اثنين اثنين بلا حصر، وثلاثة ثلاثة بلا حصر، وأربعة أربعة بلا حصر؛ أي:
 منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، بحسب ما اقتضته
 حكمته، ومنهم من له أكثر من ذلك؛ لقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾.
 عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل له ستمئة
 جناح»^(١).

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، أي: يزيد في خلق الملائكة الذي يشاؤه من الأجنحة أكثر
 من أربعة وغير ذلك؛ كما يزيد في المخلوقات كلها الذي يشاؤه من الزيادة في بعضها
 على بعض، في صفتها وقوتها، وكثرة أعضائها، وفي حسنها وجمالها، وحسن صوتها،
 وغير ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: تعليل لما قبله؛ أي: لا يعجزه شيء؛ لكمال قدرته، وسعة
 علمه.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعدما ذكر
 تفرده بالخلق والتدبير، ذكر تفرده بالعطاء والمنع، والبسط والقبض.
 قوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ «ما» في الموضعين: اسم شرط جازم.
 ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ «من»: بيان لـ «ما»؛ أي: ما يفتح الله للناس من أي رحمة دينية أو
 دنيوية، من علم وعبادة، وولد ومال، وغير ذلك.

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ أي: فلا أحد يستطيع إمساك رحمته

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٢، ومسلم في الإيمان ١٧٤، والترمذي في التفسير ٣٢٧٧، وأحمد

وردها عن فتحها الله تعالى عليه، مهما حاول منعها بالحسد والتشويه.

﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ حذف متعلق: «يمسك»، فلم يقل: «وما يمسك من رحمة»؛ ليفيد العموم؛ أي: وما يمسك من أي شيء، من رحمة أو نقمة، من خير أو شر، نفع أو ضرر.

﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ الإرسال: ضد الإمساك، وجاء الضمير في «لَهُ» مذكراً؛ مراعاة للفظ «ما»؛ أي: فلا مرسل ولا جالب لما أمسكه الله ومنعه، مهما بذل في ذلك من الأسباب.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ الضمير يعود إلى الله عز وجل؛ أي: فلا مرسل له من بعد الله؛ أي: غير الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. وسمعته ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومنع وهات»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع، قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٢).

وقال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٣، ومسلم في المساجد ٥٩٣، وأحمد ٤ / ٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٧، وأبو داود في الصلاة ٨٤٧، والنسائي في التطبيق ١٠٦٨.

(٣) سبق تخريجه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة والقهر والغلبة والامتناع.
﴿الْحَكِيمُ﴾ ذو الحكم التام، والحكمة البالغة.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾^(١) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١﴾.

قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: اذكروا نعمة الله تعالى عليكم، واشكروها بقلوبكم؛ اعترافاً بها، وبألستكم ثناءً على الله بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٢) [الضحى: ١١]، وبجوارحك انقياداً له عز وجل.

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «أفضل من ذكر الله باللسان، ذكر الله عند أمره ونهيه»^(١).

ومن ذكر النعمة وشكرها بالجوارح: أن يظهر أثر نعمة الله على العبد؛ كما قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»^(٢).

و«نعمة»: مفرد مضاف إلى معرفة، وهو لفظ الجلالة «الله»، فيعم كل نعم الله التي لا تحصى، من نعمة الإيجاد والإعداد والإمداد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لما أمرهم بذكر نعمته عليهم، التي تعم جميع نعمه عليهم، نبه على أصول النعم، وهي: نعمة الخلق والرزق.

﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ قرأ أبو جعفر وحمة والكسائي وخلف بكسر الراء: «غَيْرِ اللَّهِ»؛ نعت لـ «خالق» على اللفظ، وقرأ الباقر برفعها: ﴿غَيْرِ اللَّهِ﴾ نعت لـ «خالق» على المحل.

والاستفهام بمعنى النفي المشرب بالتحدي، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: لا خالق إلا الله.

(١) انظر: «الرسالة» للقيرواني ص ١٦١، «التحرير والتنوير» ١ / ٤٥١.

(٢) أخرجه أحمد ٤ / ٤٣٨؛ من حديث عمر بن حنبل رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في الأدب

٢٨١٩؛ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».

﴿يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الرزق: العطاء؛ أي: يرزقكم من السماء بإنزال المطر،
وبتقدير أرزاقكم في السماء.

﴿وَالْأَرْضِ﴾، أي: ويرزقكم من الأرض بإخراج النبات منها، والأشجار والثمار
والمعادن، وغير ذلك من خيراتها.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو عز وجل؛ لانفراده بالخلق والرزق،
وغير ذلك من أفعال الربوبية، وإنما خص بالذكر الخلق والرزق؛ لأنها أظهر دلائل
إلهيته عند الناس.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«أنى»: اسم استفهام للتعجب
والتقريع والتوبيخ؛ أي: فكيف تصرفون عن عبادة الخالق الرازق، الذي تُقرنون
وتعترفون به ربًّا إلى عبادة المخلوق المرزوق، الذي لا يملك من الأمر شيئًا؟!

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، أي: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون؛ أي: ينسبوك إلى
الكذب فيما دعوتهم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وفيما أخبرتهم به من البعث
والحساب والجزاء، فيقولوا: لست برسول، بل أنت كاذب أو ساحر أو شاعر أو
مجنون، ولا بعث ولا حساب، ونحو ذلك.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ أي: فقد كذب رسل كثيرون
من قبلك، كذبهم أقوامهم فيما جاؤوهم به من الدعوة إلى توحيد الله، فلك فيهم سلوة،
فلمست أول من كُذِّب، قال ﷺ: «عرضت على الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي
ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»^(١).

وقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، وما
آمن معه إلا قليل.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، أي: وإلى الله وحده تصير الأمور كلها في الدنيا والآخرة،
فينصر رسله وأوليائه، ويجازي كلاً بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَلَىٰ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾
الشورى: ٥٣، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

(١) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٠٥، ومسلم في الإيمان ٢٢٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الْأَشْهَدُ ﴿٥١﴾ [غافر: ٥١].

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥١﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ كرر النداء: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ للتأكيد والعناية والاهتمام.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، ونصر أوليائه، وخذلان أعدائه، وغير ذلك، كله ﴿حَقٌّ﴾، أي: ثابت وصادق، كائن لا محالة ولا بد، لا شك فيه ولا مرية؛ كما دلت على ذلك الأدلة السمعية، والبراهين العقلية.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الفاء: عاطفة؛ أي: فلا تخدعنكم الحياة الدنيا، ولا تفتننكم وتلهينكم بشهواتها ولذاتها وزخارفها وزهرتها الفانية، عما خلقتن له، وعن الاستعداد لوعد الله ولقائه.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾، أي: ولا يخدعنكم بالله في حلمه وإمهاله، وما يجب له من التعظيم والطاعة، والتصديق بوعده، والاستعداد للقائه، ﴿الْغُرُورُ﴾، أي: الشيطان، بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

قال تعالى في آخر سورة لقمان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الآية: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورَةَ رَبِّهِ بَابًا بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿٣٣﴾ ينادونهم ألم تكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وعرثكم الأمان حتى جاء أمر الله وعرثكم بالله الغرور ﴿٣٤﴾﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ «إن» للتوكيد، وقدم الخبر ﴿لَكُمْ﴾ لإفادة الحصر؛ أي: لكم يا بني آدم خاصة، فعداوته لكم متأصلة وقديمة؛ لعداوته لأبويكم، وسعيه في إخراجهما من الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١١٧].

﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أي: فاجعلوه عدوًّا؛ أي: فعادوه أنتم أشد العداوة، وأبغضوه، وأطيعوا الله وحده، وخالفوا الشيطان، ولا تطيعوه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ

إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦١﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٢﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨، البقرة: ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].

قال ابن القيم: «والأمر باتخاذ عدوًّا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربتة، ومجاهدته؛ كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر في محاربة العبد على عدد الأنفاس» (١).

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ تعليل لما سبق من النهي عن غرور الشيطان، وبيان عداوته، والأمر باتخاذ عدوًّا.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر؛ أي: ما يدعو حزبه إلا ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، واللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن يكونوا من أصحاب السعير، وهي النار المستعرة المتوقدة الشديدة.

أي: إنما يدعو أتباعه؛ ليضلوا كما ضل، فيكونوا معه من أصحاب السعير؛ كما قال تعالى محذراً عنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٦]، ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءِ وَيَهْدَى مِنْ يَشَاءِ فَلَا تَذَهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [الأنعام: ١١٥].

قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: لما ذكر عداوة الشيطان لبني آدم، وحذرهم منه، أتبع ذلك ببيان انقسامهم في ذلك إلى قسمين: كفار اتبعوا الشيطان، فلهم عذاب شديد، ومؤمنون خالفوه وعملوا الصالحات، فلهم مغفرة وأجر كبير.

قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الذين جحدوا ما جاءت به الرسل، وما دلت عليه الكتب، واتبعوا الشيطان، وعصوا الرحمن.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: لهم خاصة عذاب شديد؛ أي: قوي، مخلدون فيه في نار جهنم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه، بجوارحهم.

﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ بستر ذنوبهم عن الخلق، والتجاوز عن عقوبتها. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: وثواب كبير في ذاته وفي صفته، لا يقدر قدر كبره إلا من منحهم إياه، ووصفه بذلك، وهو العلي الكبير. وفي تسمية جزائهم وثوابهم «أجرًا»، إخبار بتكفله عز وجل بذلك، وضمانه لهم، وإيجابه عز وجل ذلك على نفسه.

وقدم المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية قبل التحلية. فجازى عز وجل الكافرين بالعذاب الشديد؛ بسبب كفرهم، وجازى المؤمنين بالمغفرة والأجر الكبير؛ لإيمانهم وعملهم الصالحات.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه: الإنكار، و«من»: اسم موصول في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: كمن لم يزين له سوء عمله، وهداه الله إلى الصراط المستقيم؟ يدل على هذا قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

و﴿سُوءُ عَمَلِهِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: عمله السيئ، و«عمل»: مفرد مضاف، فيعم جميع أعماله السيئة من الكفر والشرك والظلم والمعاصي. و«الترزين»: التحسين؛ أي: أفمن حُسن له سوء عمله؛ أي: حُسن له عمله السيئ، وبني الفعل لما لم يسم فاعله ليعم، فيحتمل أن يكون المعنى: أفمن زين الله له قدرًا وكونًا سوء عمله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤].

ويحتمل أن يكون التقدير: أفمن زين له الشيطان أو نفسه الأمانة بالسوء أو الهوى، أو غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤].

﴿فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾، أي: فرأى عمله السيئ حسنًا، وهذا من أعظم البليات، وأشد المصائب، أن يزين للمرء عمله السيئ فيراه حسنًا، فيتأدى في الباطل، ولا يستمع لقول ناصح أو عدل عادل، فيبوء بالصفقة الخاسرة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

قال الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الجملة مستأنفة، أو تعليلية؛ أي: فلا تأسف على ذلك، فكل ذلك كائن بقدر الله تعالى، يضل الذي يشاء من الخلق بعدله، ويهدي الذي يشاء منهم؛ أي: يوفقه بفضله، له الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ قرأ أبو جعفر بضم التاء وكسر الهاء ونصب السين: «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ»، وقرأ الباقر بفتح التاء والهاء وضم السين: «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ». والفاء: رابطة لجواب شرط مقدر؛ أي: فلا تهلك نفسك على هؤلاء المكذبين. و﴿حَسْرَتٍ﴾ منصوب على المفعول لأجله؛ أي: لأجل الحسرات؛ أي: حزناً وهمماً وغماً على كفر هؤلاء الضالين؛ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أَكْفَرًا وَمَا تُعَلِّمُهُ الْغُرُفُ فَتَوَلَّىٰ أُخْرَىٰ ۚ وَأُولَٰئِكَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْأُولَٰئِكَ حَسْرَتُ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ الْمَكِيدُونَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تعليل للنهي السابق، و«ما»: موصولة أو مصدرية؛ أي: عليم بالذي يصنعونه؛ أي: بالذي يفعلونه، أو عليم بصنعهم؛ أي: بفعلهم. أي: فيجازيهم بأعمالهم، فليس عليك هدايتهم ولا حسابهم، ما عليك إلا البلاغ.

الفوائد والأحكام:

- ١- ثبوت الحمد الكامل لله تعالى، واختصاصه باستحقاق ذلك وحده؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وفي هذا حمد منه عز وجل لنفسه، وأمر لعباده أن يحمده.
- ٢- تفرده عز وجل بخلق السموات والأرض وما فيها من المخلوقات، وتمام قدرته وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٣- إثبات وجود الملائكة، وتسخير الله تعالى لهم، بجعلهم رسلاً لتنفيذ أوامره القدريّة، ووسائط بينه وبين خلقه في تبليغ أوامره الدنيّة، وكما طاعتهم لرّبهم، وانقيادهم لأمره؛ لقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾.
- ٤- عظمة قوة الملائكة وقدراتهم، وشدة خلقهم، وأن الله جعل لهم أجنحة

يطيرون فيها بسرعة فائقة؛ لتنفيذ أوامره الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَجْنَحَهُ مَشَىٰ وَتُلُكَّ وَرُيْعٌ﴾.

٥- اختلاف الملائكة في قوتهم، وعدد أجنحتهم، وأشكالهم، وقدراتهم، وفق ما وكل إليهم من الأعمال.

٦- أن له عز وجل التصرف التام، والتدبير المطلق في الخلق، يزيد فيه ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي: الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

٨- قدرته تعالى التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى، ولا مقدرة له.

٩- تفرد عزه وجله بالعطاء والمنع، والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

١٠- وجوب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه دون سواه؛ لأن بيده القبض والبسط، والعطاء والمنع.

١١- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾، وأنه سبحانه ذو العزة والقوة والقهر، والغلبة والامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾ وما يدل عليه من إثبات صفة الحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾.

١٣- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبه والعناية والاهتمام؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

١٤- إثبات عموم رسالته ﷺ لجميع الناس، وتأکید ذلك؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

١٥- وجوب ذكر نعمة الله تعالى وشكرها اعترافاً بها في القلوب، وثناء على الله تعالى بها بالألسن، وانقياداً له تعالى بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

- ١٦- تقرير وإثبات ربوبية الله تعالى، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ١٧- أن من أعظم نعم الله تعالى على الناس، وأظهرها، وأدلها على تمام ربوبيته، وكمال ألوهيته: نعمة الخلق والرزق؛ ولهذا خصها بالذكر، ودل بها على تفردة بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.
- ١٨- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.
- ١٩- أن الاسم المفرد إذا أضيف إلى معرفة أفاد العموم؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَتَ اللَّهُ﴾، أي: جميع نعمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكُومُنَّ نِعْمَةً مِنْ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].
- ٢٠- أن رزق الله للخلق من السماء والأرض؛ بإنزال المطر من السماء، وتقدير الأرزاق فيها، وبإنبات النبات والأشجار والزررع والثمار من الأرض والمعادن، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٢١- أنه لا إله ولا معبود بحق إلا الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.
- ٢٢- الإنكار على المشركين، وتسفيههم في انصرافهم عن عبادة الله تعالى الخالق الرازق، وعبادة آلهة من دونه لا يملكون شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.
- ٢٣- تسليته ﷺ تجاه تكذيب قومه له، بذكر تكذيب الأمم السابقة للرسول من قبله، فله بهم أسوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾.
- ٢٤- أن المصائب إذا عمت خفت، فإذا علم ﷺ أن الرسل كُذِّبَتْ من قبله، خف عليه وهان تكذيب قومه له، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر^(١):
 ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
 وما يكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

(١) انظر: «ديوانها» ص ٨٤.

٢٥- أن مرجع الأمور كلها، ومصيرها إلى الله عز وجل وحده، ينصر رسله وأوليائه في الدنيا والآخرة، ويهلك أعداءه، ويجازي كلاً بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ تُرْجِعُ الْأُمُورَ﴾.

٢٦- أن شكوى الحال ينبغي أن يكون إلى الله تعالى وحده؛ لأن بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله.

٢٧- إثبات وتأكيد أن وعد الله تعالى بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، ولقاء الله تعالى، كل ذلك حق وصدق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

٢٨- النهي عن الاغترار بالحياة الدنيا، وشهواتها، ولذاتها، وزينتها الفانية، والانشغال بها عن طاعة الله تعالى، وعن الاستعداد لوعده ولقائه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْرَتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

وقد قال ﷺ: «فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»^(١).

٢٩- التحذير من الشيطان وغروره وخداعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

٣٠- إثبات عداوة الشيطان الشديدة القديمة لبني آدم، ووجوب اتخاذه عدواً، والحذر منه، ومن طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

٣١- أنه إنما يدعو أتباعه؛ ليضلهم عن طريق الحق؛ ليكونوا معه في النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

٣٢- التحذير من الكفر، والوعيد للكفار ببيان ما أعد لهم من العذاب الشديد، والترغيب في الإيمان والعمل الصالح ببيان ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المغفرة والأجر الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٧) وفي هذا جمع بين الترغيب والترهيب.

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧، من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

٣٣- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحاً؛ أي: خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه.

٣٤- تكفله عز وجل بثواب من آمن وعمل صالحاً، وضمانه له؛ ولهذا سماه أجراً.

٣٥- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم المغفرة على الأجر.

٣٦- أنه لا حيلة فيمن زين له سوء عمله فرآه حسناً؛ لقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَةَ غَشَاهٍ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجنات: ٢٣].

٣٧- شتان بين من زين له سوء عمله فرآه حسناً، وبين من هداه الله إلى الصراط المستقيم، فلا يستوي هذا وذاك، شتان بين مشرق ومغرب.

٣٨- نفوذ مشيئة الله تعالى في العباد، يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وفي هذا رد على القدرية، الذين يقولون: إن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله.

٣٩- نهي الله عز وجل له ﷺ أن يهلك نفسه حسرات وحرزاً على ضلال من ضل من الكفار؛ لأن مهمته البلاغ، وليس عليه هداية القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾.

وفي هذا درس للدعاة إلى الله، والمربين والمصلحين من الآباء والأمهات والمعلمين وغيرهم، فلا يحزنهم، ولا يفث في عضدهم من لم يستجب لدعوتهم.

٤٠- شدة شفقتة ﷺ على أمته، وحرزه الشديد على ضلال من ضل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ الْإِكْرُوتُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

٤١- أنه ﷺ كغيره من البشر، ينتابه الحزن والفرح والسرور، وفي هذا رد على الذين يغلون به، ويصرفون له شيئاً من خصائص الإلهية.

٤٢- إثبات وتأکید علم الله عز وجل التام بالذي يفعله الكفار من الضلال والكفر، وأنه سيحاسبهم ويمجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ①﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ② وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمْرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ③ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَكَسُّوْنَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ④ بُولِجِ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَبُولِجِ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ⑤ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِيَشْرِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ بِمِثْلِ خَيْرٍ ⑥

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ①﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ② وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمْرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ③

قوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ قرأ ابن كثير وحمة والكسائي وخلف: «الرِّيح»؛ بالإفراد، وقرأ الباقون: «الرِّيح» بالجمع.

و«الريح» بالإفراد هي بمعنى الجمع؛ لأن «أل» للاستغراق والشمول، فتشمل كل الرياح.

وتستعمل «الرياح» غالبًا في الخير، و«الريح» بالإفراد بصد ذلك، وقد روي أن النبي ﷺ قال في دعاء الريح: «اللهم اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا»^(١).

أي: الله وحده الذي أرسل الرياح وسخرها.

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» ٥٠٢، وأبو يعلى في «المسند» ٢٤٥٦، والطبراني في «المعجم الكبير» ١١ /

٢١٣ رقم ١١٥٣٣؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿فَتَشِيرُ سَحَابًا﴾ الفاء: عاطفة في المواضع الثلاثة؛ أي: فتشير سحبًا وتحركه، و«السحاب» هو: المزن والغيم في الجو، وسمي سحبًا؛ لانسحابه في الجو، وسحب الرياح له.
﴿فَسَقَنَاهُ﴾، نحن، بتسخيرنا الرياح لسوقه؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [السجدة: ٢٧].

﴿إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بسكون الياء: «مَيِّتٍ»، وقرأ الباقون بكسرها مشددة: ﴿مَيِّتٍ﴾، أي: مجذب، لانبات فيه.
﴿فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الباء: للسببية؛ أي: فأحيينا بسببه.
﴿الْأَرْضِ﴾، أي: أرض البلد الميت، بالنبات والزرع والكلأ.

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعد يسها وجدبها، وخلوها من النبات؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥].

﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾، الكاف: للتشبيه، والنشور: بعث الخلائق من قبورهم يوم القيامة، ونشرهم على وجه الأرض أحياء؛ أي: كما سقنا السحاب إلى بلد ميت وأنزلنا منه الماء فأحيينا به الأرض بعد موتها بالنبات والأشجار والزرع والثمار.
كذلك النشور، وبعث الأجساد حية من القبور، إذا أراد الله بعثها ونشرها، أنزل من تحت العرش مطرًا يعم الأرض جميعًا، فتنبت الأجساد في قبورها؛ كما ينبت الحب في الأرض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم ينزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا وهو: عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»^(١).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ «من»: اسم شرط جازم، يفيد العموم، و«كان» فعل الشرط، والعزة: القوة والغلبة والمنعة والشرف والسؤدد؛ أي: أيُّ أحد، أو أيُّ إنسانٍ يريد العزة؛ أي: يطلبها ويحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٥، ومسلم في الفتن ٢٩٥٥، وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦.

﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والجملة تعليل للجواب المقدر، واللام في «الله» للاختصاص، وهو متعلق بمحذوف خبر قُدِّم؛ لإفادة الحصر، و«العزة»: مبتدأ، و«جميعًا»: حال.

أي: من كان يريد العزة فليطلبها من الله تعالى وحده بطاعته، فإنها لا تطلب إلا منه، ولا تنال إلا بطاعته؛ لأن له عز وجل العزة جميعًا؛ أي: بجميع أنواعها ملكًا وتصرفًا في السموات والأرض، وفي الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ ولهذا قال هنا بعد هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

أي: فليطلب العزة من الله بالكلم الطيب والعمل الصالح؛ لأنها منه، وتنال بطاعته؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وفي هذا رد على الذين يعبدون من دون الله آلهة ليتعزوا بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

فالعز كل العز، ورفع الرأس عاليًا فوق هام السحاب وفوق الشرباء، يكون بطاعة الله تعالى، والذل كل الذل، وتنكيس الرأس في الثرى، يكون بمعصية الله تعالى؛ ولهذا كان من دعاء الإمام أحمد وبعض السلف: «اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك»^(١). وكان عامة دعاء إبراهيم بن أدهم: «اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة»^(٢). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة من غيره أذلنا الله»^(٣).

وقال الحسن البصري: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن

(١) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب ص ٦٤، «حلية الأولياء» ٣/ ١٩٦، «الجواب الكافي» ص ٥٩.

(٢) انظر: «لطائف المعارف» ص ٦٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ١٨/ ٣٢٠، والحاكم في «المستدرک» ١/ ٦٢.

ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبا الله إلا أن يذل من عصاه»^(١).

وقال عبدالله بن المبارك^(٢):

رأيت الذنوب تमित القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، أي: بهذا تكون العزة، بالكلم

الطيب، والعمل الصالح.

أي: إليه عز وجل يرتفع ويعرج الكلم الطيب الحسن، وهو ذكر الله؛ بتلاوة

القرآن، والتسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير، والدعاء، ونحو ذلك.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ الذي توفر فيه الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه، من صلاة

وزكاة وصوم وحج، وبر للوالدين، وصلة للأرحام، وجهاد في سبيل الله، وغير ذلك.

﴿يَرْفَعُهُ﴾، أي: يرفعه الله عز وجل إليه كالكلم الطيب.

ويحتمل أن المعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ أي: أن الكلم الطيب لا

يرفع إلا إذا عمل صاحبه أعمالاً صالحة، فلا يقبل قول بلا عمل.

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ بالكفر والشرك والرياء والمعاصي، وكل ما يسوء فعله،

ويضر بفاعله أو غيره في الدنيا والآخرة.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: لهم خاصة عذاب شديد قوي حسياً على الأبدان في

إيلامه، وفي كثرته وتنوعه وغير ذلك، ومعنوياً على القلوب يذلهم ويهينهم؛ لأنهم طلبوا

العزة من غير الله.

﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: يبطل، ويضمحل، ويهلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلُّوا

قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ﴾ ﴿[إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» تحقيراً لهم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجاً﴾ الآية.

(١) انظر: «الجواب الكافي» ص ٥٩، «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» ١/ ٨٩.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٢٢. بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٣.

ذكر عز وجل دلائل قدرته في الآفاق بقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ الآية، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته في الأنفس؛ كما قال تعالى: ﴿سَتْرِيهِمْ أَيَّتَنَّا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾، أي: ابتداء خلقكم من تراب بخلق أياكم آدم من تراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ من ماء قليل، وهي المنى؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ٥٥ مِنْ نُطْفَةٍ إِذْ أَنْتُمْ ٥٦﴾ [النجم: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ مِنْ نُطْفَةٍ مِّن مَّيِّمَتِي ٣٧﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ﴾، أي: ثم لم يزل عز وجل ينقلكم طورًا بعد طور بقدرته؛ لطفًا منه ورحمة حتى ﴿جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: ذكورًا وإناثًا، يتزوج الذكر الأنثى، فيحصل بينهما - بتوفيق الله - الأنس والمودة، وإنجاب الذرية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، والجمله معطوفة على قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾.

و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و«أنثى» نكرة في سياق النفي، فتعم، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: وما تحمل أي أنثى من النساء، وغيرها من إناث الحيوانات.

﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا عَلَيْهِنَّ﴾، أي: ولا تضع حملها إلا بعلمه، فيعلم متى تحمل، ويعلم متى تضع حملها؛ كما يعلم حملها وأحواله وأطواره؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ٨﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَمَا يُعَمَّرُ﴾ معطوفة على «خلقكم»، أو: على «تحمل»، ومعنى ﴿يُعَمَّرُ﴾، أي: يزداد في عمره، ﴿مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي،

و«معمر»: نكرة في سياق النفي، فتعم؛ أي: وما يعمر أيّ معمر، ومعنى «معمر»؛ أي: طويل العمر.

﴿وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عَمْرِهِ﴾ قرأ روح عن يعقوب بفتح الياء وضم القاف: «يُنْقِصُ»، وقرأ الباقر بضم الياء وفتح القاف: «يُنْقِصُ»، أي: فلا يعمر؛ أي: فلا يزداد في عمره. والمعنى: وما يعمر من أحد ولا ينقص من عمره.

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه»^(١).

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا مكتوب مسطور محفوظ ﴿فِي كِتَابٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ؛ أي: فكل ذلك معلوم لله تعالى، ومكتوب عنده قبل كونه. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق من الزيادة في العمر، والنقص، وكتابة ذلك كله في اللوح المحفوظ.

﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهل، هين؛ لسعة علمه، وإحاطته بكل شيء. قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلُكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِبَتَعْوَأٍ مِنْ فَضْلِهِ وَعَلَيْكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٥).

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي﴾، أي: وما يتساوى ويتماثل ﴿الْبَحْرَانِ﴾ مثنى «بحر»، والبحر: الماء الكثير، ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ تفسير وبيان لـ ﴿الْبَحْرَانِ﴾ ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، أي: أحدهما عذب حلوا، ﴿فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة والحلاوة، ﴿سَائِغٌ شْرَابُهُ﴾، أي: مستساغ شربه، سهل ميسر مروره في الحلق، وفي عروق النباتات والغراس. ﴿وَهَذَا﴾، أي: والثاني ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: شديد الملوحة مرٌّ زعاف، وهو ماء البحار الكبيرة الساكنة، جعله الله مالحة لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بسبب روائح

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٨٦، ومسلم في البر، صلة الرحم، وتحريم قطيعتها ٢٥٥٧، وأبو داود في

الزكاة، صلة الرحم ١٦٩٣.

ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ وأطيب.

والجواب: أنه لا يستوي البحر العذب الفرات السائغ شرابه، والبحر الملح الشديد الملوحة، وشتان ما بينهما؛ كما لا يستوي المؤمن والكافر.

﴿وَمِنْ كُلِّ﴾، أي: ومن كل من البحرين العذب والمالح.

﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك، ﴿طَرِيًّا﴾، أي: لم يتغير بنتن، وإن مات فإنه طري؛ لأن الله أحل صيد البحر، وهو ما أخذ منه حيًا، وطعامه، وهو ما أخذ منه ميتًا، قال تعالى: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٦].

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً﴾ معطوف على «تأكلون»؛ أي: وتستخرجون من كل منهما حلية من اللؤلؤ والمرجان، وغير ذلك، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾، أي: تتحلون وتتجملون بها؛ كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

قيل: الحلية إنما تخرج من الملح فقط، أو منها بعد اختلاط الملح بالعذب، ولا تخرج من العذب وحده، وظاهر القرآن أنها تخرج منها؛ أي: من كل منهما (١).

وقال هنا ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ بينما قال في أخذ السمك: ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا﴾؛ لأن أخذ السمك سهل لا يحتاج إلى كلفة؛ ولهذا عبر بالأكل مباشرة بينما الحلية يُحتاج للحصول عليها إلى كلفة وغوص وتعب؛ ولهذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً﴾.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ الخطاب عام؛ أي: وترى - أيها المشاهد - السفن، أي: وتبصرها ﴿فِيهِ﴾، أي: في كل من البحرين.

﴿مَوَاجِرَ﴾، أي: تمخر عباب البحر وماءه؛ أي: تشقه في مقدمها المسنم، وتجري على ظهره مقبلة ومدبرة، مع كبرها وسعتها وثقلها؛ لكثرة ما على ظهرها من الناس والبضائع والأرزاق وغير ذلك؛ وذلك من أكبر وأعظم الآيات؛ ولهذا قال: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ﴾.

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن تبتغوا؛ أي: تطلبوا من فضله تعالى الرزق والتجارة، بالتثقل عبر البحر على ظهور هذه السفن في تجاراتكم وأسفاركم من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم، ومن بلد إلى آخر، وهذا من أعظم النعم على العباد؛ لما فيه من المصالح والمنافع لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله على هذه النعم بالاعتراف بها بقلوبكم، وأنها من الله عز وجل وحده، والثناء على الله عز وجل بها بألسنتكم، واستعمالها في طاعته بجوارحكم، والاستعانة بها على ذلك.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الآية.

لما ذكر دلائل قدرته ونعمته في تسخير البحر يأكلون ويلبسون مما فيه ويركبونه، أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته ونعمته في تسخير الليل والنهار والشمس والقمر.

قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾، أي: يدخل عز وجل شيئاً فشيئاً بنظام محكم دقيق من ساعات الليل في النهار، فيقصر الليل ويطول النهار، وهذا في الصيف، ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، أي: ويدخل من ساعات النهار في الليل، فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا في الشتاء.

وفي هذا من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة ما لا يعلمه إلا الله لبي آدم في أبدانهم، وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم وحروثهم وثمارهم وغير ذلك.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

لما ذكر إيلاجه الليل في النهار والعكس، ذكر ما جعله الله سبباً لذلك، وهو جريان الشمس، وذكر القمر بالتبع لما يحصل به من نور الليل، والعلم بالحساب وعدد السنين، وغير ذلك.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، أي: سخرهما لمصالح عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ

لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَيْنِ ﴿٣٣﴾ [إبراهيم: ٣٣]؛ أي: مستمرين.

﴿كُلُّ يَجْرِي﴾، أي: كل من الشمس والقمر يسير في فلكه؛ كما قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٨-٣٩].

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين محدد مقدر؛ كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩].

أي: إلى يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، ويجمع الشمس والقمر، وتلنان ويذهب بنورهما؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [النكوير: ١]، وقال تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ٩].

﴿ذَالِكُمْ﴾، أي: ذلكم الذي انفرد بخلق هذه المخلوقات، وسخرها بقدرته، وأنعم عليكم بها ﴿اللَّهُ﴾، أي: الإله المعبود بحق محبة وتعظيماً، الذي يجب أن تعبدوه وحده، ﴿رَبُّكُمْ﴾، أي: خالقكم ومالككم ومدبركم.

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾، أي: له وحده الملك كله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾، أي: والذين تعبدون من الأوثان والأصنام، وتدعونهم دعاء مسألة، ودعاء عبادة، ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، أي: من دون الله؛ أي: غير الله.

﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما يملكون أيّ قطمير. و«القطمير»: هو اللفافة والقشرة الرقيقة البيضاء على النواة. والمعنى: لا يملكون شيئاً مهما قل.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾، أي: ومع كون هؤلاء الذين تدعون من دون الله ما يملكون من قطمير، فهم ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾؛ لأنهم جمادات وأموات، وعن دعاء من دعاهم غافلون؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٥﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ

عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾، أي: على وجه الفرض والتقدير.

﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، أي: ما أجابوكم؛ لأنهم لا يملكون من الأمر شيئاً، فلا

يقدرّون على ما تطلبون منهم، بل ولا رضوا بعبادتكم إياهم؛ ولهذا قال:

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾، أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ

وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ [سبأ: ٤١]، ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾

[الفرقان: ١٨].

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إلهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ

بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ [مریم: ٨١-٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ

أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا

مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ

بَعْضًا وَمَأْوَأَتُهُمُ النَّارُ وَمَأْوَأَتُكُمْ مِنَ النَّصْرَةِ ﴿٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾، أي: ولا أحد يخبرك بأحوال الدنيا والآخرة، وبأحوال هؤلاء

العابدين ومعبوداتهم خاصة، وأنهم لا يملكون شيئاً، ولا يسمعون دعاءهم، ولو

سمعوا ما استجابوا لهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم.

﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، أي: مثل خبير بذلك كله، مطلع عليه، عالم به، وهو الله عز وجل،

الخبير ببواطن الأمور وظواهرها، ودقائقها وجلالاتها، وخفياتها وجليلاتها.

ولهذا يقولون في المثل: «على الخبير سقطت»؛ أي: على الخبير الذي يخبرك الخبر

اليقيني.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات البعث والمعاد، وقدرة الله تعالى التامة على ذلك، والتدليل على ذلك

بقياسه على قدرته على إحيائه الأرض بعد موتها بإرسال الرياح تثير السحاب، وسوقه

إلى بلد ميت؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَمُسْقَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١﴾﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾.

٢- أن من منافع الرياح وفوائدها: إثارتها للسحاب، وسوقها إياه حيث شاء الله

من البلاد.

٣- كمال قدرة الله تعالى وعظمته، ونعمته على العباد، بإرسال الرياح تثير السحاب وتسوقه، وإنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها.

٤- إثبات الأسباب، وأن الله قد جعل لكل شيء سبباً، وجواز إضافة الشيء إلى سببه المعلوم، فالرياح سبب لإثارة السحاب، والمطر سبب لحياة الأرض ونباتها.

٥- الحث على طلب العزة من الله عز وجل وحده، وأنها لا تطلب إلا منه عز وجل دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

٦- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبوراً على أفعاله؛ كما تقول الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾.

٧- أن الله تعالى وحده العزة جميعاً، يعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

٨- أن العزة لا تنال إلا بطاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

٩- إثبات علو الله تعالى، على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾.

١٠- أن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيباً.

١١- أنه لا يصعد إليه عز وجل من الكلم إلا ما كان طيباً، ولا يرفع إليه من الأعمال إلا ما كان صالحاً، خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه.

١٢- أن الكلم منه ما هو طيب، ومنه ما هو خبيث، وليس بطيب؛ كما أن العمل منه ما هو صالح، ومنه ما هو فاسد، وليس بصالح.

١٣- الترغيب في الكلم الطيب: من الذكر، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وغير ذلك، وفي العمل الصالح: من الصلاة، والصدقة، والبر، والإحسان، وغير ذلك.

١٤- أن العزة مطلب لكل أحد، لكن أكثر الخلق يطلبها من غير طريقها، فمنهم من يطلبها بالمال وما أكثرهم، ومنهم من يطلبها بالمناصب والجاه، ومنهم من يطلبها بغير ذلك من مُتَع الدنيا، وأبى الله أن تكون العزة إلا بطاعته.

١٥- التهديد والوعيد للذين يمكرون السيئات بالكفر والشرك والمعاصي؛ بالعذاب الشديد، وبوار مكرهم واضمحلاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

١٦- أن السيئات كلها مكر وخداع وباطل، سواء ما كان منها خفية أو علانية.

١٧- بيان تمام قدرة الله تعالى في ابتداء خلق بني آدم من تراب، ثم من نطفة، إلى أن جعلهم أزواجاً، والامتنان عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

١٨- أن من حكمة الله تعالى ورحمته، ونعمته على بني آدم؛ أن جعلهم أزواجاً، يسكن بعضهم إلى بعض، ويأنس بعضهم ببعض، وجعل بينهم مودة ورحمة؛ لتطيب الحياة، ويحصل النسل ويبقى ويتكاثر.

١٩- إحاطة علم الله بالحمل والأجنة حملاً ووضعاً، وغير ذلك، وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ [فاطر: ١١].

٢٠- تقدير الله عز وجل للأعمار طويلها وقصيرها، وما فيها من الزيادة والنقصان، وكتابة ذلك كله باللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾.

٢١- أن خلقه عز وجل لبني آدم وغيرهم، وإحاطة علمه بما تحمل كل أنثى وما تضعه، وبكل شيء، وكتابته الأعمار كلها، طويلها وقصيرها، وغير ذلك في اللوح المحفوظ، كل ذلك عليه يسير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٢٢- بيان قدرة الله تعالى التامة، ونعمته في إيجاد من الماء هذين البحرين: العذب والمالح، وكونهما لا يستويان، فهذا في غاية العذوبة مستساغ شربه، وهذا في غاية الملوحة لا يطاق شربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، وهكذا فلا يستوي المؤمن والكافر، والحق والباطل.

٢٣- حكمة الله تعالى ورحمته في جعله لكل من البحرين خاصيته؛ لما في ذلك من المصالح العظيمة للعباد.

٢٤- الامتنان على العباد بما أودع عز وجل في هذين البحرين من المنافع؛ يأكلون

مما فيها من الحيتان، ويستخرجون منها حلية يلبسونها، ويركبون ظهر البحر على الفلك، في أسفارهم وتجاراتهم؛ طلباً للرزق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

٢٥- مشروعية طلب الرزق، وبذل الأسباب في ذلك؛ بل ذلك واجب في حدود ما يُستغنى به عن الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

٢٦- وجوب شكر نعمة الله عز وجل على إيجاد هذين البحرين، وما فيها من المنافع والمصالح، وعلى جميع نعمه بالقلب واللسان والجوارح، ونسبة هذه النعم إليه وحده، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٧- بيان قدرة الله تعالى وحكمته ونعمته، بإدخال الليل في النهار، والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان في فلكهما، وما في ذلك من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة، للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٢٨- أن تعاقب الليل والنهار، واختلافها طولاً وقصرًا، بسبب جريان الشمس.

٢٩- أن لكل من الشمس والقمر أجلاً محددًا ووقتًا معينًا يتوقف فيه جريانها، وينقطع فيه سلطانهما، وذلك عند قيام الساعة، وانتهاء هذه الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٣٠- التدليل بإيجاد هذه المخلوقات العظيمة- الليل والنهار، وتعاقبها زيادة ونقصًا، وتسخير الشمس والقمر يجريان في منازلها- على وحدانيته عز وجل في ألوهيته وربوبيته العامة لجميع الخلق، وتفردده واختصاصه وحده بالملك كله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

٣٢- تحقير جميع ما يدعى من دون الله من الآلهة والأنداد والأوثان والأصنام، وأنها لا تملك أقل الأشياء وأحقرها وهو القطمير؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿٩﴾.

٣٣- بلوغ القرآن الكريم الغاية في تحقير ما يريد التنفير منه.

٣٤- تسفيه عقول المشركين في عبادتهم من دون الله من لا يسمعون دعاءهم؛ لأنهم أموات وجادات، وغافلون عنهم، ولو سمعوا- على الفرض والتقدير- ما استجابوا لهم؛ لأنهم لا يملكون من الأمر شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

٣٥- كفر هؤلاء المعبودين وجحودهم شرك من أشرك بهم، وتبرؤهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

٣٦- إثبات القيامة والبعث والحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

٣٧- أنه لا أحد أصدق خبراً من الله تعالى؛ لإحاطة علمه بكل شيء؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَا يَنْبِئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلِمَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الصُّبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۗ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ ۖ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلِمَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ۝

قوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۝﴾، أي: المحتاجون إلى الله من جميع الوجوه، وفي جميع الأحوال، والخلق كلهم مفتقرون إلى الله.

وإنما خص الناس؛ لأنهم هم العقلاء المكلفون، المخاطبون بالشرع، ولأن منهم من قد يطغيه ما أعطي من الدنيا - بخلاف سائر المخلوقات - فيظن أنه في غنى عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

بل لقد قال اليهود لعنة الله عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَمَنْ غَنِيًّا﴾ [آل عمران: ١٨١].
﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ «هو»: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، والله وحده هو الغني؛ أي: ذو الغنى الواسع التام من جميع الوجوه، الغني عما سواه؛ كما قال تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [التغابن: ٦].

﴿الْحَمِيدُ﴾، أي: الحميد في ذاته وصفاته، وفي شرعه وقدره وجزائه، المحمود على غناه؛ لجوده وكرمه وإحسانه، فهو عز وجل الحميد في غناه، الغني في حمده.

قال ابن القيم: «بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم؛ كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، وفقر

سواه إليه ثابت لذاته، لا لأمر أوجبه؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:
فالفقر لي وصف ذاتٍ لازمٌ أبداً كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي

فالعالم كله فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى، وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً؛ كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً، والرب إلا رباً^(١).

﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: إن يشأ عز وجل يذهبكم أيها الناس ويهلككم، ويأت بأخرين أطوع لله منكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ويحتمل أن المراد: إثبات البعث والنشور؛ أي: وبعثكم خلقاً جديداً يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [وما ذلك على الله بعزيز] [إبراهيم: ١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَلَةً آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

ويدل على هذا المعنى قوله بعده: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الآية.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾، أي: وما إذهابكم وإهلاككم والإتيان بخلق جديد ﴿على الله بعزيز﴾، أي: بممتنع ولا معجز له؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء؛ لتسام قدرته، وسعة علمه.
﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَلَا زِرَةٌ﴾ تحتل معنيين: إما أن تكون بمعنى: مذنب، أو بمعنى: أنها من ذوات الوزر؛ أي: مكلفة. فالمعنى: ولا تحمل نفس مذنبه أو مكلفة - وإن لم تذنّب - ذنب نفس أخرى يوم القيامة، بل يجازى كلُّ بعمله، ولا يحمل أحد ذنب

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٤.

أحد، ولا يُحْمَل أحد ذنب غيره.

﴿وَأَن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ﴿٣٤﴾ لما ذكر أنه لا تحمل نفس وازرة وزر نفس أخرى ابتداءً، أتبع ذلك بذكر أنه حتى لو كان ذلك بطلبٍ منها لثقل حملها؛ فإنه لا يحمل منه شيء. ٤.

﴿وَأَن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ الواو: عاطفة، ﴿مُثْقَلَةٌ﴾: نكرة في سياق الشرط فتعم؛ أي: وإن تدع أي نفس مثقلة بالأوزار ﴿إِلَىٰ جَمِلِهَا﴾؛ ليحمل عنها أو بعضه.

﴿لَا يَحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ جواب الشرط؛ أي: لا يحمل من حملها ووزرها شيء. ٥.
و«شيء»: نكرة في سياق الشرط، فتعم؛ أي: لا يحمل منه أي شيء مهما قل؛ لأن كل إنسان مرتين بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ﴿٣٨﴾ [المدر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ﴿٣٩﴾ [النجم: ٣٩].

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ﴿٣٩﴾ [النجم: ٣٩].
﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، أي: ولو كان المدعو للحمل عنها ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي: ذا قرابة منها، أبا أو ابناً أو غير ذلك، فإنه لا يحمل عنها شيئاً؛ لانشغال كل بنفسه وحاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ ﴿٣٦﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ [المؤمنون: ١٠١].

والناس في الدنيا يتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويقول قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخاله كساع إلى الهيجا بدون سلاح (١)
ولكن في الآخرة هيئات لهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلِنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾: «إنما» أداة حصر. والحصر: إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه؛ أي: إنما تنذر يا محمد؛ أي: تخوف وتحذر من عذاب الله.

(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر: «ديوانه» ص ٢٩.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي: يخافون ربهم ويعظمونه في قلوبهم؛ لعلمهم ومعرفتهم به.

﴿بِالْغَيْبِ﴾، أي: وهو عز وجل غيب لم يروه، وإنما استدلوا عليه بآياته الكونية والشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ [فصلت: ٣٧].

وهذا غاية الإحسان؛ كما قال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

وأيضاً: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، أي: وهم في غيبة عن أعين الناس. فهم في خشيتهم لله تعالى ومراقبتهم له في حال سرهم وغيبتهم عن الناس؛ كحال علانيتهم وكونهم في مشهد من الناس.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، أي: وأقاموا الصلاة فرضها ونفلها بجوارحهم، إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها وسننها، وحافظوا عليها. وخص الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات، وعمود الإسلام، وقاعدته التي يدور عليها رحاه، وميزان الأعمال، ونور المسلم.

وإنما خص بالإنذار الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة؛ لأنهم هم المنتفعون بالإنذار دون من عداهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وإلا فهو ﷻ نذير للناس كافة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ «من»: شرطية؛ أي: ومن تزكى؛ أي: ومن تطهر من الشرك والمعاصي والرياء، وغير ذلك من أمراض القلوب والجوارح، وزكى باطنه بخشية الله تعالى في السر والعلانية، وظاهره بإيتاء الزكاة والأعمال الصالحة.

﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنما»: أداة حصر؛ أي: فإنما يعود نفع تزكيه لنفسه هو، لا إلى غيره، والله عز وجل لا ينتفع بذلك؛ كما قال تعالى:

(١) سبق تخريجه.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ١٧].

﴿وَالَىٰ اللَّهُ﴾ وحده ﴿الْبَصِيرُ﴾: المرجع والمآل والمآب؛ أي: إليه وحده مصير الأمور كلها، في الدنيا والآخرة، ومرجع الخلائق كلهم يوم القيامة إليه إياهم، وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]. وفي هذا وعد لمن خشى الله وأطاعه، ووعد لمن كفر به وعصاه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا الظُّلْمَتُ وَلَا النُّورُ﴾ ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿١٦﴾.

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا الظُّلْمَتُ وَلَا النُّورُ﴾ ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾:

في هذه الآيات ضرب الله أربعة أمثال؛ لبيان الفرق الشاسع، والبون الواسع، بين المؤمن والكافر، وبين الإيمان والكفر.

قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ﴿١٦﴾، أي: وما يستوي الأعمى، فاقد البصر، الذي لا يرى طريقه، ولا يشاهد ما حوله، ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الذي يبصر طريقه، ويرى ويشاهد ما حوله، وكذلك لا يستوي المؤمن الذي اهتدى للطريق المستقيم فهو على نور من ربه، والكافر الذي يتخبط في ظلمات الجهل والكفر حائرًا مذذبًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [هود: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [غافر: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٩﴾ [الرعد: ١٩].

قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يمتدح النبي ﷺ:

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع^(١)

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ «لا»: زائدة لتأكيد النفي في المواضع الخمسة؛ أي: ولا تستوي الظلمات التي تجعل المرء حائرًا لا يدري أيّ طريق يسلك، ولا بأي اتجاه يسير. ﴿وَلَا النُّورُ﴾ الذي يستنير به صاحبه، ويعرف به الطريق الموصل إلى مقصوده، وكذلك لا يستوي الكفر ولا الإيـان، فالكفر جهل وظلام وحيرة وقلق وتذبذب، والإيمان علم ونور وبصيرة، وطمأنينة وثبات؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْفُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولهذا جمع الظلمات؛ لأن طرق الكفر كثيرة متشعبة، يسير فيها الكافر على غير هدى متشعب القلب في اتجاهات متعددة منحرفة في كل وادٍ.

وأفرد النور؛ لأن طريق الإيـان واحد، وهو صراط الله المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الحُرُورُ﴾، أي: ولا يستوي الظل ولا الحرور، وهو حر الشمس أو الريح الحارة والسموم، فالظل بارد مريح لمن جلس فيه، والحرور مزعج متعب لمن ابتلي به، وكذلك لا يستوي الإيـان والكفر، فالإيـان طمأنينة وسعادة لأهله، والكفر قلق وشقاء لأهله.

ولا يستوي المؤمن والكافر، لا في ذاتيتها، ولا في عملها ومنهجها، ولا في مآلها ومستقرها.

وقدم الظل على الحرور - والله أعلم - لمراعاة الفاصلة. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْواتُ﴾؛ لأن الأحياء يتحركون ويذهبون ويحيئون

(١) أخرجه البخاري في التهجد ١١٥٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويسمعون ويعقلون ويأكلون ويشربون وغير ذلك، والأموات كالجحادات لا شيء عندهم من ذلك، وكذلك لا يستوي المؤمنون، الذين أحيا الله قلوبهم بالإيمان، والكفار الذين أمات الكفر قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن القيم: «فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيرًا حيًّا في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك مستنيرًا بنوره، والآخر أعمى ميتًا في حر الكفر والشرك والضلال، منغمسًا في الظلمات»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: إن الله يسمع الذي يشاء من عباده؛ أي: يسمعهم الحق سماع فهم وقبول؛ لأنه سبحانه هو الهادي الموفق.

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ الباء: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ أي: وما أنت بمسمع الذين في القبور؛ لأنهم موتى لا يسمعون ولا يعقلون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّعْفَ الدُّعَاءَ إِذَا أَوَّلُوا مُدِيرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

أي: وما أنت بمسمع موتى القلوب من الكفار؛ لأنهم كالأموات.

﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: ما أنت إلا نذير، وليس عليك أن توصل الهداية إلى قلوب الكفار، واقتصر على الإنذار؛ لأن السياق مع الكفار.

وأيضًا: فإن من لازم الإنذار تبليغ الأوامر والنواهي، التي يُنذر ويحذر من مخالفتها، ومفهوم ذلك أن من امتثلها فله البشارة؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: إنا أرسلناك يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة؛ أي: بالدين الحق والعدل والصدق والهدى؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار والشقاء في الدنيا والآخرة.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٥.

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: نافية، بمعنى: «ما»، و«من»: زائدة للتوكيد؛ أي: وما من أمة من الأمم الخالية الماضية.

﴿إِلَّا أَخْلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا مضى فيها نذير، إقامة للحجة عليهم، فليست بدءاً من الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذَلَ وَنُخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾، أي: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك.

﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم، فليس بيدع أن يكذبك قومك؛ لأن الذين من قبلهم كذبوا الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: ٣٤].

﴿جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الباء في المواضع الثلاثة للمصاحبة؛ أي: جاءتهم رسلهم مصطحين الآيات البينات، والدلائل الواضحات، والمعجزات الظاهرات، الدالة على صدقهم وصدق ما جاؤوا به من الحق.

﴿وَبِالزُّبُرِ﴾، أي: وجاءتهم بالزبر، و«الزبر»: جمع «زبور» وهي: الكتب المجموع فيها كثير من الأحكام كزبور داود، قال تعالى: ﴿وَعَاتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، أي: وجاءتهم بالكتاب المنير، والكتاب: اسم جنس، يشمل كل كتاب بعث به عز وجل أحداً من رسله؛ كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿الْمُنِيرِ﴾: المضيء الواضح البين الذي لا لبس فيه، الهادي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم؛ أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم، فيما جاؤوهم به.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: ثم عاقبت الذين كفروا من أولئك الأقوام بسبب تكذيبهم رسلهم، وما جاؤوهم به من الآيات والبراهين والمعجزات.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ الاستفهام للتقرير؛ أي: فكيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم؟ أي: ما أشد إنكاري عليهم وعقابي لهم؛ أي: أنه واقع موقعه، وعين الحكمة والصواب؛ لشدة كفرهم.

أي: فليحذر قومك من تكذيبك فيما جئتهم به من الحق، فيصيبهم ما أصاب أولئك الأقوام من النكال والعذاب الأليم.

الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبية والعناية والاهتمام؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.
- ٢- أن رسالته ﷺ وما جاء به من الوحي عام لجميع الناس؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.
- ٣- افتقار الناس كلهم إلى الله تعالى، وحاجتهم المطلقة إليه عز وجل من جميع الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لِقُرَّاءِ إِلَى اللَّهِ﴾.
- ٤- إثبات اسم الله تعالى: «الغني»، وأنه سبحانه بذاته ذو الغنى الواسع الكامل المطلق، المختص بذلك من جميع الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾.
- ٥- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْحَمِيدُ﴾ وأنه سبحانه الحميد في أسمائه وصفاته، وأقواله وأفعاله، وفي قدره وشرعه وجزائه، وفي غناه.
- ٦- في اقتران اسميه عز وجل: «الغني» و«الحميد» في الآية، وفي مواضع عدة في القرآن الكريم دلالة على كمال غناه؛ لأنه عز وجل المحمود في غناه لكرمه وجوده وإحسانه.

٧- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٨- إثبات تمام قدرته تعالى على إذهاب الناس وإعادةهم خلقًا جديدًا يوم القيامة، وعلى إهلاك المكذبين والإتيان بخير منهم، وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

٩- أن إذهاب الناس وإهلاكهم، والإتيان بخلق جديد ليس بممتنع على الله تعالى

ولا معجز له؛ لأنه على كل شيء قدير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَلِك عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.
 ١٠- التحذير من مخالفة أمر الله تعالى، والتولي عنه؛ كما قال: ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ
 قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

١١- كمال عدل الله عز وجل بين الخلائق يوم القيامة، فلا تحمل نفس وزر نفس
 أخرى، بل كل يجازى بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.
 ١٢- أنه لا يقبل التحميل إلا من كان أهلاً لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَازِرَةٌ ﴿١٩﴾﴾ لأن غير
 الوازرة لا تحمل إثم نفسها فضلاً عن إثم غيرها.

١٣- أنه لو سألت نفس مثقلة بالأوزار أن يحمل عنها من ذلك، لم يحمل عنها أحد
 شيئاً من ذلك، ولو كان من أقرب الناس إليها، فكل مرتين بعمله، وكل مشغول
 بخلاص نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْرُعَ مُثْقَلَةً إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿٢٠﴾﴾،
 فلا يستطيع أحد أن يحمل عن أحد، ولا هو يقبل ذلك لو مكن منه.

١٤- أنه إنما ينتفع بالإنذار الذين جمعوا بين صلاح الباطن، بخشية ربهم وهو
 غيب لم يروه، وهم غيبٌ عن أعين الناس، وصلاح الظاهر، بإقام الصلاة؛ لأن الله
 خصهم بالذكر في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴿٢١﴾﴾ علماً أنه
 ﷻ نذير للناس جميعاً.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأهل خشيته وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُمْ ﴿٢٢﴾﴾.
 ١٦- أهمية صلاح القلب والباطن، وأنه سبب لصلاح الظاهر؛ لهذا قدمت الخشية
 في الآية.

١٧- عظم مكانة الصلاة في الإسلام، وأنها أعظم العبادات البدنية؛ لهذا خصت
 بالذكر في الآية من بين العبادات.

١٨- أن من تزكى وتطهر بخشية الله تعالى بالغيب، وصلاح الباطن، وبإقام
 الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك من الأعمال الظاهرة، فإنها يعود نفع ذلك لنفسه، ولا
 ينال الله من ذلك شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴿٢٣﴾﴾، وقال تعالى في
 الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى

قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً»^(١).

١٩- الترغيب والحث على تركية النفس باطنًا وظاهرًا بالإخلاص والأعمال الصالحة، وترك الأعمال السيئة، والبعد عنها.

٢٠- أن مصير الأمور، ومرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، إليه إياهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالِىَّ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ وفي هذا وعد لمن زكى نفسه بالأعمال الصالحة، ووعد لمن دنسها بالكفر والمعاصي.

٢١- أنه كما لا يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ولا الأحياء ولا الأموات؛ فإنه لا يستوي الكافر والمؤمن، ولا يستوي الكفر والإيمان، ولا يستوي مستقر المؤمنين الجنة، ومستقر الكافرين النار، ولا يستوي أهل العلم والمعرفة بالله أحياء القلوب، وأهل الجهل والسفه موتى القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٢﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿١٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾.

٢٢- أن طريق الإيمان والحق واحد، وطرق الكفر والباطل كثيرة متشعبة؛ لهذا جمع الظلمات وأفرد النور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾.

٢٣- أن الله يُسمع الحق من يشاء من عباده سماع فهم وقبول؛ لأن التوفيق بيده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾، فيجب طلب الهداية منه وحده.

٢٤- أن أفعال العباد واقعة بتقدير الله تعالى ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾، وفي هذا رد على القدرية المنكرين لذلك.

٢٥- أن موتى القلوب من الكفار، لا يمكن أن يسمعوا سماع فهم؛ لأنهم كأصحاب القبور الذين لا يسمعون مطلقًا.

٢٦- أن إسماع الناس الحق، سماع فهم وهدايتهم ليست إليه ﷺ، إنما هو نذير محذر من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿١٤﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

(١) سبق تحريجه.

- ٢٧- إثبات وتأكيد رسالته ﷺ من عند الله عز وجل، بشيراً للمؤمنين بالجنة، ونذيراً للكافرين من النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.
- ٢٨- تشریفه ﷺ، وتكريمه بخطاب الله تعالى له، واصطفائه للرسالة.
- ٢٩- أن ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن والسنة هو الحق الثابت؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾، صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام.
- ٣٠- رحمة الله تعالى بالعباد، وإقامته الحججة عليهم، بإرسال الرسل إلى جميع الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا اخْلَافَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾.
- ٣١- أنه ﷺ ليس بدعاً من الرسل، فقد خلت من قبله الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].
- ٣٢- تسليته ﷺ تجاه تكذيب قومه له، ولما جاء به من الحق بذكر تكذيب الأمم لرسولهم من قبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.
- ٣٣- أن المكذبين من الأمم السابقة كذبوا رسولهم بعدما أقاموا عليهم الحججة بالآيات البينات والزبر والكتاب المنير، ولم ينجع ذلك فيهم؛ كما كذبه المشركون وقد جاءهم بالقرآن الكريم، أفصح كتب الله تعالى، وأبينها وأفضلها؛ لقوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.
- ٣٤- اشتغال الكتب السماوية على ما فيه هداية الناس من الآيات البينات، والأحكام والمواعظ، والهدى والنور.
- ٣٥- شدة أخذه عز وجل وعقابه للذين كفروا، وإنكاره عليهم، وتحذير المكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ ﴿٣٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٣٩﴾ لِيُؤْتِيَهُمُ آجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ أَبْطَقْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٤٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٤٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٤٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَآيَمَسُّنَا فِيهَا نَهَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٤٥﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له؛ أي: ألم تشاهد وتبصر أن الله أنزل من السماء؛ أي: من السحاب الذي في العلو، ﴿مَاءً﴾ وهو المطر.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ الفاء: عاطفة، وفي «أخرجنا» الثفات من الغيبة إلى التكلم؛ لتبنيه المخاطب، ولتعظيم نفسه عز وجل؛ لأن إخراج الثمرات بالماء أعظم من إنزاله بالنسبة للنعمة على العباد؛ فإنه لو نزل المطر ولم يخرج النبات لم ينتفع الناس؛ ولهذا قال ﷺ: «ليست السنة بالأتمطروا، ولكن السنة أن تمطرا وتمطروا، ولا يثبت لكم»^(١).

والباء في قوله ﴿بِهِ﴾: للسببية؛ أي: فأخرجنا بسبب الماء الذي أنزلناه من السماء ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿مُخْتَلِفًا﴾ صفة لـ«ثمرات» منصوب، ﴿أَلْوَانُهَا﴾ فاعل لاسم الفاعل «مختلفًا»؛ أي: مختلفًا ألوانها أحمر وأصفر وأخضر، وغير ذلك، ومختلفًا أصنافها وأشكالها وطعومها وروائحها ومنافعها؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَّجُورَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِّنْ

(١) أخرجه مسلم في الفتن، باب في سكنى المدينة ٢٩٠٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَعْتَبِ وَزَرَعٌ وَنَجِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِيدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ [الرعد: ٤٤].

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿جُدَدٌ﴾ مبتدأ مؤخر.

﴿بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ﴾ صفات لـ«جدد»، ﴿أَلْوَانُهَا﴾ فاعل لاسم الفاعل «مختلف». و«جدد»: جمع «جُدَّة»؛ وهي الطرق في الجبل والخطوط المختلفة عنه في لونها: بيض وحمرة وصفرة وغير ذلك، وفي ماهيتها.

﴿وَعَرَابِيْبٌ﴾: معطوف على ﴿جُدَدٌ﴾، و«غرابيب»: جمع غريب، والغريب: الشيء الأسود الخالك؛ أي: شديد السواد.

﴿سُودٌ﴾: بدل من «غريب»، أو عطف بيان على نية التأكيد، وهي جمع «أسود». ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾.

و«الناس»: البشر، بنو آدم.

﴿وَالْذَّوَابِّ﴾ كل ما يدب على وجه الأرض من الحيوانات، والطيور، والحشرات، وغير ذلك.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾: الإبل والبقر والضأن والمعز، وكل ما ينتفع به؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَفْئِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مِنْتَفِعُ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣]، وقال تعالى: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: ١].

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ فالناس منهم الأبيض والأسود والأحمر، وما بين ذلك، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَاحْتَلَفَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كُنْتُمْ إِذْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

والدواب كذلك مختلفة الألوان والأشكال، وكذلك الأنعام منها الأبيض والأسود والأحمر وغير ذلك، ومنها ما يجمع بين لونين كالأبلق، الذي يجمع بين البياض والسواد. كما تختلف أجناس الناس وأشكالهم وصفاتهم وغير ذلك، وكذلك الدواب

والأنعام، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾.

لما ذكر دلائل كمال قدرته وعظمته في إنزال المطر، وإخراج الثمرات المختلفة، وإيجاد الجبال مختلفة الألوان، والناس والدواب والأنعام، ذكر أنه إنما يخشى الله بالتأمل في دلائل قدرته العلماء.

﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة حصر، ﴿ يَخْشَى اللَّهَ ﴾، أي: يخافه أشد الخوف ويعظمه، ﴿ الْعُلَمَاءُ ﴾، أي: العلماء العارفون بالله، وما يجب له، العالمون بشرعه، العاملون به، فمن كان بالله أعلم كان له أخشى.

ولهذا كان ﷺ أتقى الناس لربه، وأخشاهم لله (١).

وليس المراد بالعلماء: طلاب المناصب والأموال والبدلات، الذين يرون أنفسهم كالأجراء، ولا يحتسبون لله شيئاً في عملهم، وتثور حفيظتهم لو تأخرت مرتباتهم، أو انتقص منها درهم.

قال ابن القيم: «يقضي الحصر من الطرفين: ألا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالماً إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم».

وقال أيضاً: «ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته لله؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته» (٢).

قال بعضهم: العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله.

فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض. قلت: وما أقل هؤلاء!

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٠٨؛ من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٤٥، ٤٤٨.

والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله، ولا يعلم الحدود والفرائض.
والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله عز وجل (١).

قلت: وما أكثر هؤلاء، لا أكثرهم الله، وهم أول من تسعر بهم النار؛ كما جاء في الحديث (٢).

قال الشاعر:

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن (٣)

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾، أي: له العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

﴿عَفُورٌ﴾، أي: واسع المغفرة، يغفر ذنوب عباده، بسترها، والتجاوز عنها.

فمن تاب إليه من أي ذنب حتى الشرك غفر له، ومن لقيه لا يشرك به شيئاً غفر له.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

يَرْجُونَ تَجْرَةً لَّن تَبُورَ ﴿١١﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٢﴾:

امتدح الله عز وجل في الآية السابقة العلماء، فحصر خشيته فيهم، ثم أبان عن

صفتهم وأعمالهم، عما أعده لهم من الأجور والزيادة من فضله في هاتين الآيتين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾، أي: يقرؤون كتاب الله القرآن الكريم، ويتبعونه،

فيتدبرون ألفاظه ومعانيه، ويصدقون أخباره، ويعملون بأحكامه، وهم المؤمنون أهل العلم

والمعرفة بالله؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وعن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: حدثنا من كان يقرئنا القرآن من أصحاب

النبي ﷺ أنهم كانوا يقرؤون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر

الأخرى حتى يتعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: «فعلمنا العلم والعمل» (٤).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦ / ٥٣١.

(٢) سيأتي تحريجه.

(٣) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان شرح زيد ابن رسلان» ص ٤.

(٤) أخرجه أحمد ٥ / ٤١٠.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إقامة تامة كما شرعها الله عز وجل، فرضها ونفلها، وحافظوا عليها.

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ «من»: تبعيضية، أو للجنس؛ أي: وأخرجوا من الذي أعطيناهم من الأموال النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، والنفقات المستحبة من الصدقات والهدايا ونحو ذلك.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، أي: خفيةً وجهراً، حسب مقتضى الحال، فقد يكون الإسرار أفضل؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص وأسلم من الرياء، وقد يكون الإعلان أولى إذا كان بقصد تشجيع الآخرين على الصدقة والمنافسة، وغير ذلك، وقدّم الإسرار؛ لأنه أفضل وأولى من حيث العموم، قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقال ﷺ: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» (١).
﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن»؛ أي: يطلبون ويؤملون تجارة. والتجارة في الأصل: اسم يقع على عقود المعاوضات التي تطلب بها الأرباح، كالبيع والشراء والإجارة وغير ذلك. والمراد بها هنا: المتاجرة مع الله بالأعمال الصالحة، التي هي سبب لنيل ثوابه عز وجل وجنته، والتي لا تقدر بعوض.

﴿لَنْ تَبُورَ﴾، أي: لن تكسد ولن تفسد، بل هي أجلُّ التجارات وأعلاها، وأرباحها وأعظمها وأبقاها؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢٣، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»^(١).

قال ابن القيم^(٢):

يا سلعة الرحمن لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها بالألف إلا واحد لا اثنان

﴿يُؤْتِيهِمُ أَجْرَهُمْ﴾ اللام: للتعليل؛ أي: لأجل أن يعطيهم الله أجورهم وافية

كاملة من غير نقص، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

أي: أجور وثواب أعمالهم الصالحة، من تلاوة كتاب الله تعالى، وإقام الصلاة،

والإنفاق مما رزقهم الله سرًا وعلانية.

وسُمي ثواب أعمالهم أجورًا- مع أنه لا يجب على الله تعالى شيء خلقه- إيدانًا

بضمان ذلك لهم؛ لأن الأجر لا بد أن يدفع لمن قام بالعمل؛ كما قال عز وجل في الحديث

ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه،

ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره»^(٣).

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾، أي: ويزيدهم على أجورهم ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾، أي: مما عنده

من الفضل العظيم، والزيادة والإحسان لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾

[البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ

وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

وقال ﷺ: «كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى

أضعاف كثيرة، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»^(٤).

ويزيدهم من فضله في دينهم؛ بأن يحب إليهم الازدياد من العمل الصالح؛ لأن

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(٢) «النونية» ص ٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، إثم من باع حرًا ٢٢٢٧، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٤٢؛ من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

الحسنة سبب لعمل الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٧) ﴿محمد: ١٧﴾.

ويزيدهم من فضله أيضًا في دنياهم بالخلف العاجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿إِنَّهُ وَعَفْوُ شُكُورٍ﴾: تعليل لما قبله؛ أي: لأنه عز وجل ذو مغفرة واسعة لمن تاب إليه.

﴿شُكُورٍ﴾، أي: يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل، ويعطي العامل أجره ويزيده من فضله، ويجازي من أحسن العمل بإحسان الجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٦) ﴿الرحمن: ٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣) ﴿ثُرُورُنَا الْكِتَابِ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٣):

قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، أي: والذي أوحينا إليك يا محمد من الكتاب؛ أي: القرآن.

﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ «هو»: ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، فالجملة فيها توكيد وحصر بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

أي: والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق وحده دون ما عداه؛ أي: هو الحق الثابت والصدق والعدل؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: لما سبقه من الكتب والرسول؛ لأنها بشرت وأخبرت به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنبِيُّ رَبُّنَا أَوْلِينَ﴾ (١٦) ﴿الشعراء: ١٩٦﴾؛ أي: وإنه المذكور في كتب الأولين، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَ آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١٧) ﴿آل عمران: ٨١﴾.

فلما جاء ظهر به صدقها، فكان مصداق ما أخبرت؛ كما أنه شاهد بصدقها؛ لما فيه من ذكر الرسل وكتبهم التي أنزلت عليهم؛ كما أنه شاهد بصدقها، وهي شاهدة بصدقها؛ لتطابق أخبارهما، وتطابقهما في أصول الشرائع، من الدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك ونحو ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ «الخبير»: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، و«البصير»: المطلع على ظواهر الأمور وجلالها وجلياتها، والأمور المبصرة والمحسوسة؛ فهو عز وجل خبير بصير بأحوالهم وأعمالهم، يعطي كلاً منهم ما يستحق، ويجازي كلاً منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن صدق بالقرآن وآمن به، ووعد لمن كذبه وكفر به.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾، أي: ثم أعطينا ﴿الْكِتَابَ﴾، أي: الكتاب العظيم المهيمن على جميع الكتب قبله، وهو القرآن الكريم، المصدق لما بين يديه من الكتاب.

﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾، أي: الذين اخترناهم واجتبتناهم من عبادنا، وهم أمة محمد ﷺ، اصطفاهم الله تعالى، واختارهم من بين الأمم، وجعلهم يرثون الكتاب المهيمن على جميع الكتب قبله.

﴿فَمِنْهُمْ﴾، أي: فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب واصطفيناهم من عبادنا، وهم هذه الأمة.

﴿ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ متقص بعض حقها، مفرط في فعل بعض الواجبات، مرتكب لبعض المحرمات، قال بعضهم: وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ خُلُقًا نَفْسًا أَهْلَكَهَا﴾ [التوبة: ١٠٢].

﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ مكثف بفعل الواجبات، وترك المحرمات.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، أي: مجتهد بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

﴿يَاذُنِ اللَّهِ﴾، أي: بأمر الله تعالى الكوني، يعطي من يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَاذُنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ

الْكَبِيرِ ﴿٥٨﴾، قال: هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب» (١).

قال ابن كثير (٢): «فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة». ثم ذكر حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر» (٣).

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى توريث الكتاب العظيم لمن اصطفاهم الله تعالى من عباده، وهم هذه الأمة، وأشار إلى ذلك بإشارة البعيد «ذلك» تعظيماً له.

﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ «هو»: ضمير فصل يفيد التوكيد والحصر، فالجمله فيها توكيد وحصر بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هو»؛ أي: ذلك هو العطاء الكبير في كميته الكثير في كميته وعدده، الذي لا فضل أكبر منه على الإطلاق، ولا نعمة أعظم منه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِيَا سُهُرَ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾.

لما ذكر توريثه الكتاب للذين اصطفاهم الله تعالى من هذه الأمة، ونيلهم بذلك

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩ / ٣٦٨، وروي بأطول من هذا من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أخرجه أحمد ٥ / ١٩٨.

(٢) في «تفسيره» ٦ / ٥٣٦.

(٣) أخرجه أبو داود في العلم، الحث على طلب العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم، فضل الفقه في العبادة ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة، فضل العلماء والحث على طلب العلم ٢٢٣، وأحمد ٥ / ١٩٦.

الفضل الكبير، ذكر ما أعد لهم من الثواب العظيم. نسأل الله من فضله.

قوله: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ «جنات»: جمع «جنة» وهي ما أعدده الله تعالى لأولائه يوم القيامة من البساتين العظيمة، والمنازل الرفيعة، والغرفات العالية.

و﴿عَدْنٍ﴾ بمعنى: «إقامة»؛ أي: جنات الإقامة والخلود الأبدي التي لا يظعن أهلها، ولا يخرجون منها، ولا يفنون، ولا يبغون عنها حولا.

﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ الضمير يعود للذين أورثهم الله تعالى الكتاب، واصطفاهم من عباده من هذه الأمة الذين نالوا الفضل الكبير.

وقدم - والله أعلم - وصفها بـ«عدن» قبل ذكر دخولهم إياها؛ تعظيماً لشأنها، وبشارة لهم بالخلود فيها.

﴿يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ قرأ عاصم وأبو جعفر: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب معطوفة على محل ﴿أَسَاوِرٍ﴾ وقرأ الباقر بالجذر: ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾؛ معطوفة على «ذَهَبٍ».

أي: يخلون في الجنان؛ أي: يزينون ويلبسون فيها ذكورهم وإنائهم.

﴿مِنْ أَسَاوِرٍ﴾ «من» تبعيضية، و«أساور»: جمع سوار، وهو ما تسور وتزين به الأيدي. وفي الحديث: «تبلغ الحلية من المؤمن كما يبلغ الوضوء»^(١).

﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ «اللؤلؤ»: الدر والجمان والجوهر. فحليتهم فيها من الذهب واللؤلؤ، ومن الفضة أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ ذكورهم وإنائهم، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿حَرِيرٌ﴾ من سندس وإستبرق أخضر، من أنعم اللباس وأرقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿عَلِيَّاهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَصَلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

وقد كان الذهب والحري في الدنيا محرماً على الذكور؛ كما قال ﷺ: «هذان - يعني:

(١) سبق نخرجه.

الذهب والحريز - حرام على ذكور أمتي»^(١) فأحلها الله لهم كرامة لأهل الجنة. ﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال أهل الجنات بعد دخولهم الجنات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله وحده ﴿الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾، أي: الذي أزال وأبعد عنا الحزن، و«أل» في «الحزن» للاستغراق، و«الحزن»: الأسى والغم على ما مضى، والهَمَّ والخوف مما يستقبل. أي: الحمد لله الذي أزال عنا الحزن، بإكمال النعمة علينا، وسلامتنا من جميع الأقدار والمنغصات، فلا نأسى على شيء، وهذا من أعظم نعيم أهل الجنة؛ لأن الحزن هو الذي نكد على أهل الدنيا حياتهم، وكدر صفو عيشهم. قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بآكار الموت والمهرم^(٢)

وفي الحديث: «يؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»^(٣).

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ اللام: للتوكيد؛ أي: لذو مغفرة واسعة، يغفر ما دون الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ويغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب حتى الشرك.

﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاعه وامتل أمره، يعطي العطاء الجزيل على العمل القليل، ويضاعف الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «غفر الله لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات»^(٤).

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ﴾، أي: الذي أنزلنا وأسكننا دار الإقامة الدائمة، التي لا

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٥٧، والنسائي في الزينة ٥١٤٤؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «أوضح المسالك» ١/ ٢٤٢.

(٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، صبغ أنعم أهل الدنيا في النار ٢٨٠٧.

(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٣٧.

يرغب ساكنها التحول عنها، ولا يُخرج منها.

﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ «من»: سببية؛ أي: بسبب فضله علينا، وعطائه لنا، وجوده وكرمه وإحسانه إلينا، لا بعملنا؛ كما قال ﷺ: «لن يدخل أحد منكم عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»^(١).

﴿لَا يَمْسُنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمْسُنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾، أي: إننا في راحة تامة تامة، لا يصيبنا فيها ﴿نَصَبٌ﴾، أي: تعب ومشقة، بسبب حر أو برد، أو غير ذلك.

﴿وَلَا يَمْسُنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أعاد النفي والفعل للتأكيد؛ أي: ولا يصيبنا فيها لغوب؛ أي: إعياء وفطور، وهو ما يحصل أحياناً نتيجة التعب، وأحياناً بدون ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- التقرير والتبني والبيان لكمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته، وبديع حكمته، في إنزاله من السماء ماء، وإخراجه به النباتات المتنوعة، المختلفة الألوان والطعوم، مع اتحاد مادتها: ماء واحد، وأرض واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾.

٢- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾، وقوله: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

٣- كمال عظمته عز وجل وبديع صنعه في خلق الجبال العظيمة، مختلفة الألوان والطرائق والأشكال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

٤- تمام قدرته تعالى ونعمته، وبالغ حكمته في خلق الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان والأشكال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾.

٥- أنه إنما يخشى الله ويخافه العلماء العارفون بالله وما يجب له، فهم الذين يتأملون

(١) سبق تخرجه.

في آيات الله، وكمال قدرته، وتمام نعمته، وبديع صنعه في إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفة، وخلق الجبال والناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

٦- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ﴾.

٧- فضيلة العلم وأهله العاملين به؛ لأن الله امتدحهم وأثنى عليهم، وخصهم بخشيته؛ لأن العلم سبب لخشيته عز وجل.

٨- أن من خشي الله فأمن وعمل صالحاً فهو عالم مهما قل علمه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧، ٨].

٩- أن من لم يخش الله فهو جاهل، جهلاً مركباً، أجهل من حمار أهله، مهما بلغ من العلم؛ لأن ثمرة العلم هي خشية الله تعالى، وماذا علم من لم يعرف قدر ربه، خالقه ومالكة ومدبر أمره.

١٠- إثبات صفة العزة التامة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾.

١١- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿غَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿لَعَفُورٌ﴾.

١٢- امتداح الله عز وجل للذين يتلون كتابه، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقهم الله سراً وعلانية، وبيان عظم ما أعد لهم من الأجور والزيادة من فضله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿١٢﴾ لِيُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

١٣- الترغيب في اتباع كتاب الله تعالى، وقراءته وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، والعمل به؛ وإقام الصلاة، والإنفاق من رزق الله عز وجل في الوجوه الواجبة والمستحبة؛ لأن الله امتدح المتصفيين بذلك، ووعدهم عليه بالأجر العظيم.

١٤- أنه إنما يمدح من جمع بين تلاوة القرآن والعمل به، بإقام الصلاة، والإنفاق من رزق الله، وغير ذلك؛ أي: من أقام حروفه وحدوده، لا من أقام حروفه وضيع

حدوده؛ كما هو حال كثير من القراء اليوم، وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في ذكر الثلاثة الذين أول ما يقضى يوم القيامة عليهم، وأول من تسعر بهم النار، قال: رجل استشهد - فذكره - ثم قال: «ورجل تعلم العلم، وقرأ القرآن، فأتي به، وعرفه نعمه، فعرّفها، قال، فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم؛ ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار» الحديث (١).

١٥ - عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لأن الله قدّم ذكرها في الآية.

١٦ - فضيلة الإنفاق في الوجوه الواجبة كالزكاة وغيرها، والمستحبة كالصدقة، ونحو ذلك؛ لأن الله ذكر ذلك بعد الصلاة.

١٧ - أن الرزق كله من الله تعالى، فلا ينبغي البخل في الإنفاق منه ولا طلبه من غير الله؛ لقوله تعالى: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾.

١٨ - جواز الإنفاق وإخراج الزكاة والصدقات ونحو ذلك سرًا وعلانية، والإسرار أفضل؛ ولهذا قدّم في الآية، ما لم تدع حاجة إلى الإعلان بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

١٩ - أن التجارة مع الله تعالى هي التجارة الربحية، التي لا تكسد ولا تخسر، ولا ينقطع ربحها وثوابها، وذلك بالأعمال الصالحة ابتغاء جنته وثوابه العظيم، وفضله العميم؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۗ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ ۗ﴾.

٢٠ - وجوب الإخلاص لله تعالى في العمل، وطلب الأجر والثواب منه، وابتغاء مرضاته، بلا رياء ولا سمعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ﴾.

٢١ - فضيلة الرجاء وحسن الظن بالله، إذا قارن ذلك الإيثار والعمل الصالح، بل الواجب أن يجمع المؤمن بينهما.

٢٢ - أن طلب الفضل والأجر من الله غاية عظيمة؛ كما قال تعالى في وصف نبيه ﷺ والمؤمنين: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩٠٥، والنسائي في الجهاد ٣١٣٧، والترمذي في الزهد ٢٣٨٢.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يقولون: نعبد الله الله، لا رجاء في ثوابه، ولا خوفاً من عقابه.

٢٣- توفية المؤمنين أجورهم تامة غير ناقصة، وضمانه عز وجل إياها لهم؛ لهذا سماها: «أجورهم»، وزيادتهم على ذلك من فضله عليها.

٢٤- أن الله عز وجل شكور يعطي الأجر والثواب الجزيل على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿شَكُورٌ﴾.

٢٥- إثبات أن القرآن هو كلام الله، أوحاه إلى نبيه ﷺ، وأنه هو الحق الثابت المصدق لما سبقه من كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهو مصداق ما أخبرت وبشرت به، وهو شاهد على صدقها.

٢٦- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وبما أوحى إليه من هذا القرآن العظيم.

٢٧- اطلاع الله عز وجل التام على أحوال العباد، بواطنها ودقائقها وخفياتها، وعلى ظواهرها وجلالها وجلياتها، وتمام خبرته وبصره بهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾، وفي هذا وعد لمن آمن بالقرآن وعمل بما فيه، ووعد لمن كفر به، وخالفه.

٢٨- امتنان الله عز وجل على هذه الأمة بتوريتهم الكتاب العظيم: «القرآن الكريم» أفضل كتب الله عز وجل، المهيمن على جميع الكتب السابقة، والحاكم عليها، واختيارهم واجتباؤهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٢٩- أن هذه الأمة أفضل الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، وكما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣٠- الإشارة لطول الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾.

٣١- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٣٢- انقسام الذين أورثهم الله تعالى الكتاب إلى أقسام ثلاثة: ظالم لنفسه بالتفريط في بعض الواجبات، وارتكاب بعض المحرمات، ومقتصد مكتفٍ بفعل الواجبات، وترك

المحرمات، وسابق بالخيرات ياذن الله، مجتهد بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ﴾.

٣٣- إثبات زيادة الإيوان ونقصانه؛ لأن تفاضل الأعمال يدل على تفاضل الإيوان وزيادته ونقصانه.

٣٤- إثبات الإذن الكوني لله تعالى، وأن كل ما يفعله المرء من خير أو شر، فهو بإذن الله الكوني وإرادته الكونية ومشئته؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْذِنُ اللَّهُ﴾.

وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد ليست بتقدير الله، ولا مخلوقة له، بل ولا معلومة له قبل فعلهم لها. تعالى الله عن قولهم.

٣٥- أن ما ييسر للإنسان من سبق في الخير فهو بتوفيق الله وتقديره، فلا ينبغي أن يفخر بذلك وينسبه إلى نفسه، أو يمنَّ به.

٣٦- أن أكبر فضل يتفضل الله به على عبده: أن يوفقه للإيوان والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

٣٧- عظم ما أعده الله تعالى لمن أورثهم الكتاب واصطفاهم من عباده، من دخولهم جنات عدن يقيمون فيها ولا يظعنون، ويتنعمون بما فيها من أنواع الفواكه وأصناف الثمار، ويتجملون فيها بالحلي، ولبس الحرير، والناعم من الثياب؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحِطُونَ فِيهَا مِنْ آسَاورٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

٣٨- أن الجنة دار ثواب وجزاء، وليست دار تكليف وعمل؛ ولهذا يتنعم أهلها بكل ما شاءوا من أنواع المأكول والمشرب، والحلية واللباس، وغير ذلك، ولا يمنعون من شيء مما كان محرماً على أهل الدنيا كالتحلي بالذهب ولبس الحرير للرجال.

٣٩- اغتباط أهل الجنة، وثناؤهم على الله تعالى الذي أذهب عنهم الحزن، وأولاهم النعم، ودفع عنهم النقم، وغفر لهم، وجازاهم بالثواب الجزيل على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

٤٠- كمال الفرح والسرور لأهل الجنة؛ لقولهم: ﴿الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ والصفات السلبية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، فهم في غاية السرور، فلا يأسون على

ما مضى، ولا يغمون ولا يهتمون لما يستقبل، وهذا من أعظم نعيم أهل الجنة.

٤١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقول أهل الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾.

٤٢- ثناؤهم على الله تعالى بأن أسكنهم الجنة دار المقامة بفضله، لا يصيبهم فيها

تعب ولا إعياء؛ لقولهم: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ﴾^(١).

٤٣- أن دار الجنة دار إقامة، من دخلها لا يريد الظعن منها، ولا التحول عنها، ويخلد فيها أبداً.

٤٤- أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله، وإنما بفضل الله عز وجل ورحمته؛ لقوله

تعالى: ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ كما قال ﷺ: «لن يدخل أحداً عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(١).

٤٥- كمال راحة أهل الجنة، فلا يصيبهم فيها تعب ولا إعياء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا

يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ﴾ والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

٤٦- أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم إنما يحتاج إليه لنقض التعب والإعياء، وهم

لا يحصل لهم تعب ولا إعياء؛ كما أن النوم نقص؛ لأنه أخو الموت، فهو الموتة الصغرى.

* * *

(١) سبق تخرجه.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْفَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا يَنْزِلُ بِهِ فَمَنْ يَزِيدُهُ كُفْرًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرًا إِلَّا أَلْحُسَارَاءَ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُفْرَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ عُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السُّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السُّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِيهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلا كُنَ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْفَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾.

هذا من أظهر الأدلة على أن الأقسام الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات بإذن الله؛ كلهم من المؤمنين من هذه الأمة؛ لأن الله قابل بينهم وبين جزائهم بذكر الكافرين وجزائهم، فبعد أن ذكر ما أعده لأوليائه من الجنات والنعيم وطيب المقام، أتبع ذلك بذكر ما أعد للكفار، من النار، والعذاب الشديد، والتفريع، وسوء المقام، جمعاً بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: كفروا بالله، وكذبوا رسله، وجحدوا آياته، وأنكروا لقاءه ﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ ليس لهم سواها، يعذبون فيها أشد العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

و«نار جهنم»: من إضافة الموصوف إلى صفته، وسميت «جهنم»؛ لجهمتها؛ أي: ظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

﴿لَا يَفْقَضُ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت؛ أي: لا يحكم عليهم كونًا بالموت.

﴿فَيَمُوتُوا﴾ الفاء للسببية؛ أي: فيموتوا ويستريحوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَيْمَانُكُ لِيُقَضِّ عَيْنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَلَائِكَةٌ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكَبْرَىٰ﴾ ١٣، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢، ١٣].

وقال ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون»^(١).

فلا هم يموتون فيستريحون، ولا يحيون حياة طيبة، بل هم في عذاب دائم يتمنون الموت فلا يحصل لهم.

﴿وَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ لا من شدته، ولا من دوامه واستمراره، ولو يومًا أو لحظة، بل هو شديد ومستمر لا ينقطع أبدًا؛ كما قال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [١٩] قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا حَبَّتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ قرأ أبو عمر وبالياء في: «ئجزي»، ورفع «كل».

وقرأ الباقون بالنون وفتحها وكسر الزاي ونصب «كل»: «ئجزي كل».

أي: مثل هذا الجزاء الشديد الأليم بنار جهنم نجزي كل كفور، و«كفور» صفة مشبهة؛ أي: كل متصف بالكفر.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ﴾: مبالغة من «يصرخون»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، و«الصراخ»: الصياح الشديد؛ أي: يصيحون في النار بشدة، ويصرخون فيها أشد الصراخ ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، فاستغاثوا به عز وجل؛ لأنهم

(١) أخرجه مسلم في الإبان ١٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٣٠٩، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

عرفوا أنه لا مُنجي إلا الله، وقد كانوا بالأمس يستغيثون بغير الله، من الأصنام والأوثان: ﴿أَخْرَجْنَا﴾ من النار.

﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، ﴿نَعْمَلْ﴾ مجزوم؛ لأنه جواب الطلب؛ أي: إن تخرجنا نعمل؛ أي: إن تخرجنا من النار نعمل عملاً صالحاً خالصاً لوجهك، موافقاً لشرعك.

﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أي: غير العمل الذي كنا نعمل قبل ذلك؛ أي: فاعترفوا بذنوبهم، وأن الله عدل معهم ولم يظلمهم، وسألوا الرجعة، ولكن هيهات، وقد علم الله أنهم كاذبون، وأنهم لو ردوا العادوا لما نهوا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴿الملك: ١٠-١١﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ولهذا وبخهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ نُعَذِّبُكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتنديد والتقريع، و«ما»: موصولة؛ أي: أولم نعمركم الذي يتذكر فيه من تذكر؟ و«التعمير»: تطويل العمر.

أي: أولم نعمركم؛ أي: نعطيكم من العمر والحياة الوقت الذي يتمكن فيه من أراد التذكر من التذكر والعمل؟

وقد اختلف في مدة العمر المراد هنا، فقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة، وقيل: أقل من ذلك، ولا دليل على شيء من ذلك، ولا مصلحة للأمة في تحديده.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله إلى امرئ، آخر أجله حتى بلغ ستين سنة»^(١).

وهذا هو الغالب على أعمار الأمة؛ ولهذا قال ﷺ: «أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»^(٢).

﴿وَجَاءَ كُرُّ النَّذِيرِ﴾، أي: الرسول المنذر والمحذر لكم من عذاب الله تعالى؛ كما قال

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، من بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله إليه ٦٤١٩، وأحمد ٢ / ٢٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٥٠، وابن ماجه في الزهد ٢٤٣٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،

وقال: «حسن غريب».

تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتَهُمَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

والمعنى: قد عمرناكم الوقت الذي يتمكن فيه من أراد التذكر من التذکر، وأرسلنا إليكم الرسل، وأقمنا عليكم الحجة بذلك.

﴿فَذُوقُوا﴾ الأمر للإهانة؛ أي: فذوقوا عاقبة تكذيبكم، أو فذوقوا العذاب؛ أي: تجرعوا العذاب وغصصه بسبب كفركم.

﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أظهر في مقام الإضرار، فلم يقل: فما لكم، بل قال: فما للظالمين؛ لبيان أن سبب تعذيبهم في النار، وانتفاء النصير لهم هو ظلمهم بالكفر والشرك، وليشملهم هذا العذاب هم وغيرهم من الظالمين.

و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى؛ أي: فما للظالمين أي نصير ينصرهم، فيخرجهم من النار، أو يخفف عنهم من عذابها، ويدفع الشر عنهم، أو يجلب لهم الخير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ٣٨ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ٣٩:

لما ذكر عز وجل الفريقين من أهل الإيمان والكفر، وجزاء كل منهم، أخبر عن سعة علمه واطلاعه على غيب السموات والأرض وعلمه بها في الصدور، فيهدي كلاً لما خلق له، ويمجازي كلاً بما عمل.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: عالم كل ما غاب في السموات والأرض عن الخلق، فلم يدركه بأبصارهم، ولا بأسماعهم، ولا بغير ذلك من حواسهم، من الغيوب السابقة والحاضرة والمستقبلة.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: إنه عز وجل ذو علم تام ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما فيها من الأسرار والمكنونات، وما تنطوي عليه من المضمرات، وسيجازي كلاً بعمله.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ﴾، أي: هو وحده عز وجل الذي صيركم.
 ﴿خَلَقَ فِي الْأَرْضِ﴾ «خلائف»: جمع «خليفة»؛ أي: يخلف بعضكم بعضاً في الأرض، فيذهب قرن وجيل، ويأتي بعده قرن وجيل آخر، ويذهب ملك، ويأتي بعده ملك آخر، وهكذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].
 ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، أي: فإنما يعود وبال كفره على نفسه، ويعذب به وحده، دون غيره، ولا يضر الله شيئاً؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ «إلا» في الموضعين: أداة حصر؛ أي: إلا بغضاً وغبضاً شديداً بسبب كفرهم، واستمرارهم على الكفر، فكلما استمروا على الكفر ازداد مقت الله تعالى لهم، وبغضه لهم، وغضبه الشديد عليهم، فيزداد بذلك انتقامه منهم، وعذابه لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّاءَ اسْفُونا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].
 ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ وهذا نتيجة لشدة بغض الله إياهم، فسبب كفرهم واستمرارهم على الكفر، مقتهم الله، وأبغضهم بغضاً شديداً، فازداد خسارتهم، وخاب سعيهم، فخسروا دينهم، ودنياهم وأنفسهم وأهلهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].
 قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ الَّذِينَ دَعَوْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا﴾ *
 إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٦﴾:

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل يا محمد للمشركين مبيناً بطلان آلهتهم وكمال نقصها وضعفها.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ الاستفهام للتقرير؛ أي: أخبروني.
 ﴿شُرَكَاءَ الَّذِينَ دَعَوْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: شركاءكم من الأصنام والأنداد الذين تعبدون؛ أي: الذين تدعونهم دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله.
 ﴿أُرُونِي﴾ الأمر للتعجيز والتحدي؛ أي: أخبروني.

﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول؛ أي: ما الذي خلقوه من الأرض؟

ويحتمل كون «ماذا» كلها اسم استفهام في محل نصب مفعول به لـ«خلقوا». أي: ما الذي خلقوه من الأرض؟ هل خلقوا الجبال، أو الرمال، أو القفار، أو الأشجار، أو الأنهار، أو البحار؟ والاستفهام بمعنى النفي؛ أي: أنهم لم يخلقوا شيئاً من الأرض.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾

لما نفى أن يكونوا خلقوا شيئاً من الأرض في العالم السفلي، أتبع ذلك بنفي مشاركتهم في السموات في العالم العلوي.

﴿أَمْ﴾ في الموضعين هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل ألهم ﴿شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، أي: ألهم مشاركة في السموات، خلقاً أو ملكاً أو غير ذلك؟ والجواب: ليس لهم شرك في السموات.

ولم يقل هنا: ماذا خلقوا من السموات؟ بل قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ لأن السموات ليست في متناول أحد من الخلق.

والمشركون يقرون بهذا وذاك، فيقرون أن معبوداتهم من دون الله لم يخلقوا شيئاً من الأرض، وليس لهم شرك في خلق السموات، وأن خالق السموات والأرض هو الله تعالى وحده، ومع ذلك يشركون به غيره، قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾

لما ذكر الدليل العقلي على وجوب عبادته تعالى وحده، وبطلان عبادة من سواه، أتبع ذلك بذكر الدليل السمعي على ذلك، فقال:

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾، أي: بل آتيناهم كتاباً من عندنا بأن معبوداتهم شركاء لله؟ كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]؛ أي: لم نزل عليهم سلطاناً بذلك.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهمزة وخلف وحفص بغير ألف

على الأفراد: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾، وقرأ الباقون بالألف على الجمع: «بَيِّنَاتٍ».

أي: فهم على حجة منه بأن معبوداتهم شريكة لله؛ أي: ليس الأمر كذلك، فلم نؤتهم كتاباً بذلك، بل رسلنا إلى جميع الأمم كلهم دعوا إلى توحيد الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴿٥٠﴾﴾ [البينة: ٥٠].

فإذا كان هؤلاء الشركاء من دون الله لم يخلقوا من الأرض شيئاً، وليس لهم شرك في خلق السموات، ولم نؤتهم كتاباً بأنهم شركاء لله، فعبادتهم إياهم باطلة؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ إِنْ يِعِدُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٥٠﴾﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»؛ أي: ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا وعداً غروراً، وخداعاً باطلاً، بقول بعضهم لبعض: هذه الأصنام تشفع لكم عند الله، وتزيين بعضهم لبعض الكفر والشرك والمعاصي.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٧٧﴾﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَنَا خَلِيلًا ﴿٥١﴾﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٥١﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿١٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].
﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴿٥٣﴾﴾.

لما نفى أن يكون لمعبودات المشركين شرك في خلق السموات والأرض وتدبيرهما، أتبع ذلك ببيان أنه القيوم وحده على السموات والأرض.

أي: إن الله عز وجل - بقوته العظيمة، وقدرته التامة، وعظيم سلطانه، وإحكامه مخلوقاته، ورحمته وحلمه ومغفرته - ﴿يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ التي هي من أكبر المخلوقات وأعظمها.

﴿أَنْ تَزُولَا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف؛

أي: من الزوال؛ أي: من أن تتحركا وتضطربا، وتزولا عن أماكنهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿وَلَيْنَ زَالَتَا﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم؛ أي: والله لئن زالتا؛ أي: لئن زالت السموات والأرض.

﴿إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا﴾ «إن»: حرف نفي بمعنى: «ما»؛ أي: ما أمسكها؛ أي: ما يمسكها ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: ما يمسكها أي أحد.

﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾، أي: من بعد الله؛ أي: غيره عز وجل؛ أي: أنه لا يستطيع أحد أيًا كان إمساكها وإرجاعها وإبقاءها غيره عز وجل.

﴿إِنَّهُ رَكَانٌ حَلِيمٌ﴾، أي: ذا حلم واسع، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل. والجملة تعليل لما قبلها، قال ابن القيم^(١):

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان
﴿غَفُورًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لمن تاب إليه.

ومن حلمه عز وجل الواسع، ومغفرته، عدم معاجلته العباد بالعقوبة، وهم يكفرون به ويعصونه، ولولا ذلك لأطبق السماء على الأرض، وأهلكهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ لَأَعَجَلَ لَكُمْ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ الْأُمَمِ قَلَمًا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٥٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٥٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾، أي: وأقسم مشركو العرب؛ أي: حلفوا بالله، ﴿جَهْدَ

أَيْمِيهِمْ ﴿٣٦﴾، أي: غاية الأيمان وأغلظها وأشدّها وأكدها.

﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ اللام: موطئة للقسم؛ أي: والله لئن جاءهم نذير؛ أي: لئن أتاهم نذير؛ أي: رسول من عند الله عز وجل.
﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم؛ أي: ليكونن أعظم هداية.

﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾، أي: من اليهود والنصارى، أو من جميع الأمم السابقة.
كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْأَلْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿٣٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿٣٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُفِّرُوا بِنِعْمِهِ فَسَوْفَ يَعْتَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٦٧-١٧٠].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ الفاء: عاطفة، و«لما»: شرطية؛ أي: فلما جاء هؤلاء المشركين نذير، وهو محمد ﷺ أفضل رسل الله عز وجل، الذي أنزل الله تعالى عليه أفضل كتبه القرآن الكريم.

﴿مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ جواب الشرط، و«إلا»: أداة حصر؛ أي: لم يهتدوا، فضلاً عن أن يكونوا أهدى الأمم كما قالوا، بل ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ مجيء الرسول ﷺ إليهم إلا نفوراً عن الهدى، وبعداً عن الحق، وزيادة ضلال على ضلالهم، وكفراً إلى كفرهم.
كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠].

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، «استكباراً» بدل من ﴿نُفُورًا﴾، وتفسير له، أو مفعول لأجله، أو مصدر في موضع الحال؛ أي: ما زادهم مجيء النذير إليهم إلا استكباراً في الأرض. والسين والتاء للمبالغة؛ أي: تكبراً في الأرض عن اتباع الحق، وعلى الخلق.
﴿وَمَكَّرَ السَّيِّئُ﴾ قرأ حمزة بإسكان الهمزة في الوصل: «السَّيِّئُ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿السَّيِّئُ﴾.

﴿وَمَكَّرَ السَّيِّئُ﴾: معطوف على ﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته؛

أي: المكر السيئ، أو مكر العمل السيئ، فتكون «السيئ» صفة لمحذوف، وهو «العمل». ومكر السيئ: الخديعة وتدبير الكيد الخفي للرسول ﷺ ولدعوته، وصد الناس عن دين الله.

وخص هذا؛ لأنه أشنع وأعظم قبحًا؛ لأن فيه جمعًا بين عمل السوء والكذب والمكر والخداع، وإلا فإنهم قد جمعوا بين محاربة الرسول ﷺ ودعوته، والصد عن دين الله ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾، أي: ولا يحيط المكر السيئ ولا ينزل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: ما يعود وباله وضرره إلا على أهله، دون غيرهم.

كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَكَنَّ فَاتَّمَا يَنْتَكُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

رُوي أن كعب الأحمبار قال لابن عباس رضي الله عنهما: «من حفر حفرة وقع فيها». فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا أجد ذلك في القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(١).

وفي المثل: «من حفر بئرًا لأخيه أوقعه الله فيه»، «ومن حفر لأخيه قلبيا، أوقعه الله فيه قريبًا»^(٢).

ومفهوم قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أن المكر قد يكون حسنًا، وذلك كمكر الله عز وجل بالماكرين مجازاة لهم على مكرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، وهل: للاستفهام، ومعناه: النفي؛ أي: فما ينتظرون ويرقبون.

﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر؛ أي: إلا سنة الله تعالى الكونية في أمثالهم من

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» ١١٦/٨، «تفسير ابن جزي» ١٧٧/٢.

(٢) انظر: «كشف الخفا» ٢٩٢/٢ (٢٤٦٤)، «المقاصد الحسنة» ص ٦٤٤ (١١١٤)، «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» ص ٢٢٨ (٥٠٦، ٥٠٧).

المكذبين الأولين، وهي أخذهم وإهلاكهم، بسبب تكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره.
﴿فَلَنْ نَجْدَ لِسِنَّتِ اللَّهِ﴾، أي: فلن تجد لسنة الله تعالى الكونية في إهلاك المكذبين
وتعذيبهم، ﴿تَبْدِيلًا﴾، أي: تغييرًا، بأن ينجوا من العذاب، أو ينعموا بدل أن يعذبوا.
﴿وَلَنْ نَجْدَ لِسِنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أعاد النفي للتأكيد؛ أي: ولن تجد لسنة الله في إهلاك
المكذبين تحويلاً، بأن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم.

أي: أن سنته عز وجل ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول، يهلك المكذبين،
وينجي أولياءه المؤمنين؛ لكمال حكمته وعدله، وتمام سلطانه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١١﴾ وَلَوْ يَأْخُذُ
اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فِإِذَا
جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿١٢﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أولم يسر هؤلاء المكذبون لك يا محمد في
الأرض، بأقدامهم، وأبدانهم، وقلوبهم.

﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بأبصارهم، ويتأملوا ويتفكروا ببصائرهم وعقولهم، ويعتبروا، فكم من
سائر في الأرض ناظر فيها لم ينتفع بذلك؛ لعمى قلبه وغفلته؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: كيف كان مآل ونهاية الذين من قبلهم من
المكذبين للرسول، كانت عاقبتهم أسوأ العواقب، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّكَهْرِينَ أَمْثَلَهَا ﴿١٣﴾﴾ [محمد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ
فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَوعُ مَعَطَلَةٌ وَفَصَّرَ مَشِيدٌ ﴿١٤﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ
يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الْصُّدُورِ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: وكان أولئك المكذبون ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، أي: أقوى منهم قوة؛ كعاد الذين قالوا: من أشد منا قوة، فما نفعتهم قوتهم، وما منعت ولا دفعت عنهم عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرًا مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْهُمْ مَأْكُوفِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ الواو: استثنائية، واللام: لام الجحود، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي؛ أي: وما كان الله ليعجزه أي شيء في السموات ولا في الأرض؛ أي: لا يحول بينه وبين ما يريد عجز في قدرته، بل هو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء ولا يفوته ولا يسبقه، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤].

﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ تعليل لكونه عز وجل لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض؛ أي: لكونه عليماً قديراً؛ أي: ذا علم واسع بكل شيء، وقدرة تامة على كل شيء، فلسعة علمه عز وجل وتمام قدرته، يخلق ما يشاء ويختار، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ كما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

والعلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، والقدرة: التمكن من الفعل بلا عجز.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾.

لما حذر المكذبين له ﷺ وهددهم بما حل بالمكذبين قبلهم، أتبع ذلك بذكر حلمه وإنظاره لهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا لأهلكهم جميعًا، ولكنه يمهل ولا يهمل، ويؤخرهم إلى أجل مسمى.

الواو: استثنائية، ولو: حرف شرط غير جازم؛ أي: ولو يعاقب الله الناس.
﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ الباء: سببية، و«ما»: مصدرية، أو موصولة؛ أي: بسبب كسبهم،
أو بسبب الذي كسبه من الكفر والذنوب والمعاصي.
﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث
المعنى لعموم النفي؛ أي: ما ترك على ظهر الأرض أي دابة؛ أي: لأهلك الناس
والدواب جميعاً بسبب شؤم الكفر والذنوب والمعاصي.
قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَلَا يَكُن يُوَخَّرُهُمْ﴾ أي: يُنظرهم ويمهلهم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾، أي: إلى مدة ووقت
وزمن ﴿مُسَمًّى﴾، أي: معين، محدد عند الله تعالى، وهو يوم القيامة.
كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١٠٤]؛ أي: إلى أجل مسمى
لا بد من مجيئه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾، أي: فإذا انتهت المدة، وقامت القيامة.
﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ جواب الشرط «إذا»؛ أي: بصيراً بهم
وبأعمالهم وأحوالهم، تام الإحاطة بهم في ذلك الوقت وقبلة وبعده، فيعاقب من يشاء
بعده، ويعفو عن من يشاء بفضله، ويثيب المؤمنين، ويعذب الكافرين، ويجازي كلًّا بما
عمل؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾
[الزلزلة: ٧، ٨].

الفوائد والأحكام:

- ١- الوعيد والتهديد للكافرين بنار جهنم التي أعدت لهم، وعذابها الشديد؛ لقوله
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ الآية.
- ٢- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، فبعد أن ذكر أولياءه المؤمنين وما أعد لهم
من الثواب العظيم، ذكر الكفار وما أعد لهم من العذاب الأليم.
- ٣- أن أهل النار لا يموتون، ولا يخفف عنهم من عذابها، بل هم في عذاب مقيم
شديد مستمر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾.
وفي هذا رد على من يقول من المعتزلة وغيرهم أن أهل النار يكونون فيها جهنميين

لا يتألون.

٤- أن هذا العذاب العظيم أعدّه الله لكل كفور، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

٥- شدة عذاب الكفار في النار، وصراخهم فيها واستغاثتهم للخروج منها، وهيئات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

٧- إقرارهم واعترافهم وهم في النار بربوبية الله تعالى، وأنه بأنه لا يملك دفع الضرر عنهم إلا الله؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾.

٨- اعترافهم بما كانوا عليه من عمل غير صالح، وندمهم حين لا ينفع الندم، وزعمهم أنهم سيعملون صالحًا لو أخرجوا منها، وهم كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ بِعَابِدِينَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٩- تقريرهم وتوبيخهم وتأسيسهم من الخروج من النار وتنديمهم؛ لأن الله قد أقام الحجة عليهم، وأعذر منهم، بتعميرهم في الدنيا ما فيه كفاية للتذكر، وإرسال الرسل إليهم، يندرونهم ويحذرونهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مِمَّا تَدَّكَّرْتُمْ فِيهِ مِن تَدَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾.

وفي هذا رد على الجبرية الذين يحتجون بالقدر على المعاصي، ويقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

١٠- ينبغي اغتنام الفرص المناسبة؛ لأنها إذا فاتت قد لا تعود.

١١- أن من بلغت الرسالة وعمر ما يمكنه فيه التذكر؛ فقد قامت عليه الحجة.

١٢- إهانة الظالمين وتبكيتهم في النار، وتعذيبهم عذابًا معنويًا ينصبُّ على قلوبهم، وتأسيسهم من الخلاص من النار، ومن النصير والشفيع؛ لقوله تعالى: ﴿فَدُوقُوا قَمَارًا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

- ١٣- أن الكفر ظلم، وأن نار جهنم مثوى الكافرين والظالمين.
- ١٤- إثبات سعة علم الله عز وجل، وإحاطته بغيب السموات والأرض، وما تخفيه الصدور، فيهدي كل مخلوق، فييسره لما خلق له، ويجازي كلاً بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ وَعَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٣٨﴾.
- وفي هذا وعد لمن أطاع الله واتقاه، ووعد لمن خالف أمره وعصاه.
- ١٥- الإشارة إلى أن مدار صلاح الجسد، وصلاح الأعمال على القلوب، مما يوجب تعاهدها، والعمل على صلاحها وسلامتها، ففي ذلك صلاح الظاهر والباطن.
- ١٦- تفرد عز وجل بتدبير الخلق؛ لتتام قدرته، وعظم سلطانه، وامتنانه على العباد بجعلهم خلائف في الأرض، يخلف بعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ١٧- أن من كفر فعليه إثم كفره وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾.
- ١٨- أن كفر الكافرين لا يزيدهم عند ربهم إلا مقتاً وبغضاً، يترتب عليه انتقامه منهم، وكلما ازداد كفرهم ازداد مقت الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾.
- ١٩- إثبات صفة المقت لله تعالى وهي البغض الشديد، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية لله عز وجل التي تتعلق بمشيئة الله تعالى، وتقترب بسببها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [غافر: ١٠].
- ٢٠- أن كفر الكافرين لا يزيدهم إلا خساراً في الدنيا والآخرة، خساراً لأنفسهم وأهلبيهم، ودينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾، أي: أنهم خاسرون كل الخسران بسبب كفرهم، وكلما ازداد كفرهم ازداد خسرانهم.
- ٢١- الإنكار على المشركين وتحديهم، وبيان بطلان عبادتهم من دون الله معبودات لا يستحقون - عقلاً - أن يعبدوا؛ لأنهم لم يخلقوا من الأرض شيئاً، وليس لهم شرك في خلق السموات، ولم يدل دليل سمعي على صحة عبادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾.

٢٢- أن وعود الظالمين بعضهم لبعض ما هي إلا غرور وخداع وباطل بتزيين بعضهم لبعض الكفر والشرك، وأن شركاءهم يشفعون لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا﴾.

٢٣- عظمة الله تعالى، وكمال قوته وسلطانه، وتمام قدرته؛ لقيام السماء والأرض بأمره، وإمساكه إياهما من الزوال إلا بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾.

٢٤- أن السموات والأرض لو زالتا لم يستطع أي أحد أن يمسكها غير الله إلا بإذنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ زَلَّتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾.

ويتفرع على هذا أن ما يقع في هذه المخلوقات العظيمة من كسوف وصواعق وزلازل وبراكين، وغير ذلك هو من الآيات التي يخوف الله بها عباده، فيجب اللجوء إلى الله تعالى وحده، والتضرع إليه بالصلاة والدعاء لرفع ذلك.

٢٥- إثبات سعة حلم الله عز وجل، فلا يعاجل من عصاه بالعقوبة، وسعة مغفرته، فيغفر للتائبين، ولمن لقيه لا يشرك به شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ وَكَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

٢٦- إقسام المشركين من قريش الأيمان المؤكدة المغلظة: لئن أتاهم رسول ليكون أعظم هداية من اليهود والنصارى، أو الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾.

٢٧- كذبهم وحنثهم في أيمانهم، وازديادهم نفوراً عن الهدى، وبعداً عن الحق؛ لما جاءهم الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾.

٢٨- لا ينبغي للإنسان أن يلزم نفسه ما قد لا يستطيع القيام به، من نذر أو غير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ [النور: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوننَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦].

٢٩- لا ينبغي للإنسان أن يعتد بنفسه ويفتخر إذا رأى من ابتلى بالتقصير، فيقول: لو كنت مكانه لعملت كذا وكذا، فإنه قد يتلى بذلك التقصير أو بأشد منه، وفي الأثر:

«لا تظهر الشهامة بأخيك، فيعافيه، أو فيرحمه الله ويبتليك»^(١).

قال الشاعر:

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى إن البلاء موكل بالمنطق^(٢)

٣٠- استكبارهم في الأرض عن اتباع الحق، وعلى الخلق، ومكرهم السيئ، بكيدهم للنبي ﷺ ولدعوته، وصددهم الناس عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾.

٣١- أن الاستكبار من أعظم أسباب رد الحق وغمط الخلق.

٣٢- أن المكر السيئ لا يحيق ولا ينزل إلا بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل، فمن مكر مكر به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

٣٣- أن المكر قد يكون حسنًا؛ لمفهوم قوله: ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾، وذلك كمكر الله بالماكرين.

٣٤- تهديد المكذبين للنبي ﷺ، وأنهم ما ينتظرون في استمرارهم على الكفر وتكذيب الرسول ﷺ إلا أن تحل بهم سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾.

٣٥- أن سنة الله تعالى في إهلاك المكذبين، وإنجاء الرسل وأتباعهم ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٣).

٣٦- تقرير المشركين وتوبيخهم لما لم يعتبروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم لما كذبوا رسل الله، وكانوا أشد منهم قوة، فلم ينفعهم ذلك، ولم يدفع عنهم عذاب الله، لما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٦، والطبراني في «المعجم الكبير» ١٢٧، والبيهقي في «شعب

الإيمان» ٦٣٥٥، من حديث وائلة بن الأسقع. وقال الترمذي: «حسن غريب».

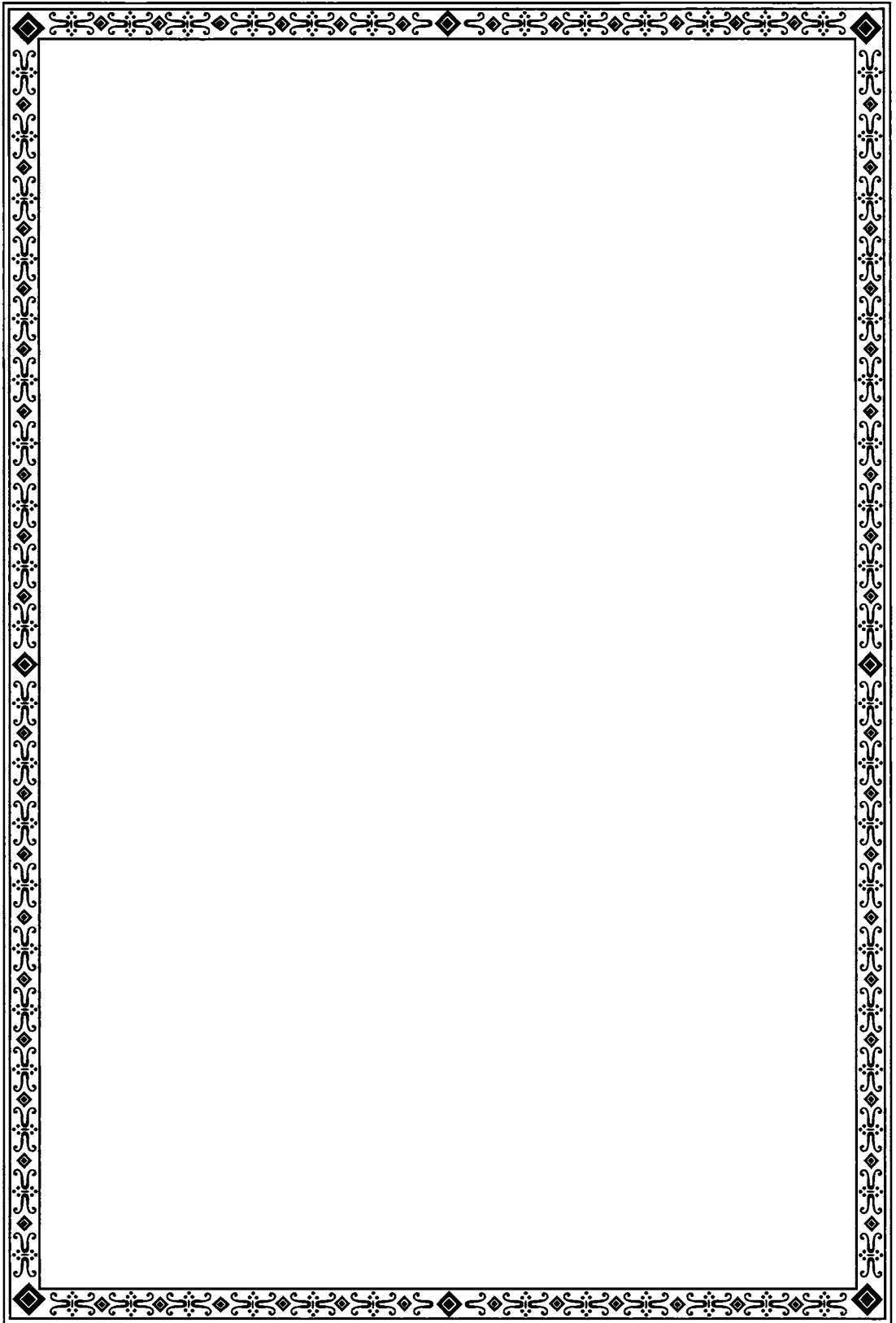
(٢) البيت ينسب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر: «العقد الفريد» ١٦/٣.

مِنْهُمْ قُوَّةٌ ﴿١٧٦﴾

- ٣٧- أن في التاريخ عبرًا، وأن في الأرض خبرًا، لمن يعتبر ويعقل.
- ٣٨- إثبات علم الله عز وجل وتمام قدرته وأنه سبحانه لا يعجزه أي شيء في السموات ولا في الأرض؛ لسعة علمه، وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.
- ٣٩- سعة حلم الله عز وجل، مع تمام قدرته على العقوبة، فلو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الظلم والآثام لعجل لهم العذاب، ولأهلك كل من على ظهر الأرض من الدواب، ولكنه حلیم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.
- ٤٠- شؤم الذنوب والمعاصي، وأنها سبب لهلاك العباد والبلاد، والحرق والنسل.
- ٤١- إثبات الكسب للناس، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبر على فعله، لا اختيار ولا كسب له.
- ٤٢- أنه عز وجل يمهل ولا يهمل، ويؤخر عقوبة المكذبين إلى أجل مسمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.
- ٤٣- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.
- ٤٤- إحاطة الله تعالى التامة بالعباد وأعمالهم، ومجازاة كل منهم بما عمل يوم القيامة، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾.
- ٤٥- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِهِ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ يَسِّ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة يس»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿يَس﴾؛ لأنها انفردت في مطلعها من بين السور بهذين الحرفين، من الحروف المقطعة أوائل السور. ويقال لها: «قلب القرآن».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ «يس» في ليلة أصبح مغفوراً له، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له»^(١).
وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ «يس» في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له»^(٢).

د- موضوعاتها:

- ١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن، وبيان إعجازه، وتأکید صدق الرسول ﷺ، وبيان الحكمة من إرساله وهي الإنذار وتخويف المكذبين الغافلين، وتأکید أنه قد حق القول كونا على أكثرهم بعدم الإيمان، والحيلولة بينهم وبينه، فلا يبصرون الحق، ولا يؤمنون به، ولا ينفعهم الإنذار، وبيان أنه لا ينتفع بالإنذار إلا من خشى الرحمن بالغيب، وبشارتهم بمغفرة وأجر كريم.
- ٢- إثبات وتأکید تمام قدرته عز وجل على الإحياء والإماتة، وكتابتته ما قدّم العباد وآثارهم وإحصائه في اللوح المحفوظ.
- ٣- ضرب المثل لمشركي مكة بقصة أصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم عددًا من الرسل، فطعنوا في رسالتهم لكونهم بشرًا، وتطيروا بهم؛ وهددوهم برجمهم

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٤٧/٦ - وقال ابن كثير: «إسناد جيد».

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه - فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٤٧/٦.

وتعذيبهم. وتأکید رسلهم أنهم رسل الله إليهم، وما عليهم إلا البلاغ المبين.

٤- ذكر قصة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ناصحاً لهم باتباع المرسلين

﴿قَالَ يَنْقُورِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ أَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَنْحَسِرُونَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ مِنَ رُسُولِ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٢٠-٣٠].

٥- توبيخ المكذبين وتقريرهم بما أهلك من القرون قبلهم، لا يرجعون إليهم، وإثبات وتأکید بعثهم وإحضارهم للحساب كلهم جميعاً.

٦- الاستدلال على إحياء الموتى وتمام قدرته عز وجل على ذلك، وسابغ نعمته من آياته العظيمة في إحياء الأرض بعد موتها، وإخراج النبات منها والجنات، وخلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون، وسلخ النهار من الليل، وجريان الشمس والقمر، وحمل ذريتهم في الفلك المشحون، وجعله لهم من مثله ما يركبون. قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَلْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴿٤١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٢﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: ٣٣-٤٤].

٧- تقرير المكذبين وتوبيخهم لعدم تقواهم، وإعراضهم عن الآيات، وعدم إطعامهم مما رزقهم الله، وكفرهم، وتكذيبهم وتضليلهم من يدعوهم إلى الحق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: ٤٥-٤٧].

٨- استبعادهم البعث والحساب تكديباً به، وتهديدهم بقربه ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾
 قَالُوا يَا بُولَلَاءَ لِمُن بَعَثْنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا
 صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَبْخَرُونَ إِلَّا مَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿يس: ٤٨-٥٤﴾

٩- بشارة المؤمنين بما أعد لهم من النعيم الحسي والمعنوي ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ﴿يس: ٥٥-٥٨﴾.

١٠- تقريع المجرمين وتوبيخهم؛ لعبادتهم الشيطان، وعدو لهم عن عبادة الرحمن. وتوعدهم وتهديدهم بجهنم واصطلائها بسبب كفرهم، والختم على أفواههم، وتكليم أيديهم وشهادة أرجلهم بما كانوا يكسبون. ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَائِبِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿يس: ٥٩-٦٧﴾.

١١- حقارة الدنيا، وأن الإنسان لو عمر فيها رجع إلى أرذل العمر ﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: ٦٨].

١٢- الرد على المكذبين في زعمهم أن الرسول ﷺ شاعر، وأن ما جاء به من قبيل الشعر: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿يس: ٦٩، ٧٠﴾.

١٣- الامتنان على العباد بما خلق الله لهم من الأنعام وذلها لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمَن يَرْكَبُوهَا فَمِنْهَا يَا كُفُون ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿يس: ٧١-٧٣﴾.

١٤- ذم المشركين في اتخاذهم من دون الله آلهة ليتصرفوا بهم، لا يستطيعون نصرهم ولا نصر أنفسهم.

١٥- تسليته ﷺ وتقوية قلبه فلا يأسى لقولهم؛ لأن الله محيط بهم يعلم سرهم

وعلايتهم وسيعصمه منهم.

١٦- تذكير الإنسان بأصل خلقه وأن الذي خلقه من العدم والضعف، وأوجد من الشجر الأخضر ناراً، وخلق السموات والأرض قادر على إحيائه بعد موته ﴿أَوْلَىٰ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿يس: ٧٧-٨٣﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْ ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾
لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرُوا أَبَاوَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ
أَغْشَاءً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا
يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

قوله: ﴿يَسْ ١﴾ من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم، ليس لها معنى في ذاتها؛ لأنها كغيرها من حروف الهجاء، لكن لها مغزى وحكمة، وهي إثبات إعجاز القرآن، والتحدي به. وقد سبق الكلام عليها مستوفى في مطلع سورة البقرة.

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢﴾ الواو: للقسم، أي: وأقسم بالقرآن الكريم. والقرآن مشتق من «قرأ» بمعنى: تلا؛ لأنه متلو، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، أي: يتبعونه.

أو: من «قرى» بمعنى: «جمع»؛ لأنه مجموع وجامع لسور وآيات كثيرة، ومنه سميت «القرية»؛ لأنها تجمع أناسًا كثيرين، وسمي مجمع الماء: «قروًا»؛ لاجتماع الماء فيه. وهو كلام الله عز وجل، المنزل على رسوله ﷺ، المتعبد بتلاوته، والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

﴿الْحَكِيمِ﴾: صفة للقرآن، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١، لقمان: ٢].

أي: ذي الأحكام والحكمة والحكم:

ذو الأحكام، أي: المحكم؛ لأن الله أحكمه، أي: أتقنه وحفظه، وصانه عن التبديل والتغيير، والاختلاف والباطل، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وذو الحكمة، أي: الذي وُصفه بالحكمة، وهي: وضع كل شيء موضعه من الأوامر والنواهي، وذكر الأحكام الشرعية والكونية والجزائية مقرونة بالحكمة، وغير ذلك. وذو الحكم، أي: الحاكم على غيره، الذي يجب الرجوع إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣) جواب القسم، و«إن» حرف توكيد، واللام: للقسم، أي: إنك يا محمد لمن جملة المرسلين، فلست بدعاً من الرسل، وفي هذا رد لقول الذين كفروا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

قال ابن القيم: «وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله، وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به، والمقسم عليه» (١).

فما أعظم هذا القسم وأجله! لأنه قسم من العظيم، بكتابه العظيم، على صحة نبوة أفضل الرسل وسيد الخلق أجمعين.

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤) خبر ثانٍ لـ«إن»، أي: على طريق معتدل، ودين قويم، موصل إلى الله تعالى، وإلى مرضاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي [الشورى: ٥٢؛ ٥٣].

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٥) قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بنصب اللام: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف؛

وقرأ الباقون برفع اللام: «تَنْزِيلٌ» خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا تنزيلٌ. أي: هذا القرآن الحكيم والصراط المستقيم الذي أنت عليه، ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٥)، وفي هذا تشریف للقرآن الكريم، ولما يهدي إليه من الصراط المستقيم.

و«تنزيل»: مصدر «نَزَلَ يُنْزَلُ»؛ لأنه نزل مفروقاً، شيئاً فشيئاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ (١٦) [الإسراء: ١٠٦].

أي: أن الذي نزله عليك ﴿الْعَزِيزِ﴾، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة، وعزة القهر

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧٣.

والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿الرَّحِيمِ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة الذاتية الثابتة صفة له عز وجل، وذو الرحمة الفعلية التي يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١].

فبعزته عز وجل نزل القرآن الحكيم، وبعث به محمداً يهدي إلى الصراط المستقيم، وأحكمه وصانه عن التبديل والتغيير والباطل.

وبرحمته عز وجل جعل إرسال محمد ﷺ بهذا الكتاب رحمة للعالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرُوا أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [٦].

لما أقسم على صدق رسالته ﷺ، وأقام الأدلة عليها، بين شدة الحاجة إليها، واقتضاء الضرورة لها.

قوله: ﴿لِنُنذِرَ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن تنذر، أي: تخوف وتحذر.

والإنذار: الإخبار المقرون، أو المتضمن للتخويف والتحذير، ﴿قَوْمًا﴾ هم العرب الأميون.

﴿مَّا أُنذِرُوا أَبَاؤُهُمْ﴾ «ما» نافية، أي: لم ينذر آباؤهم في زمن الفترة، وأما قبل ذلك فقد أنذروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم عليها الصلاة والسلام؛ فإنه مرسل للعرب إلى قومه، وبعد ذلك ما جاءهم نذير من قبلك؛ كما قال تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

فبعثته ﷺ منة من الله تعالى عليهم خصوصاً؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنبَأَهُمْ وَيُنزِّلُ إِلَيْهِمُ الْوَحْيَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُنزِّلُ إِلَيْهِمُ الْوَحْيَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٢]، ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٢]، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٤] [الجمعة: ٢-٤].

كما أنها منة على الناس عموماً؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٧].

[الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿فَهُمْ غَفِلُونَ﴾، أي: فهم غافلون عما خلقوا له، ساهون لاهون فيما هم فيه من الجهل والفجور، وشرب الخمر، واللهو والميسر، والكفر والشرك والضلال، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَعَيَّ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤، الجمعة: ٢].

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد حق القول على أكثرهم.

أي: لقد وجب وتحم القول كوناً وقدرًا على أكثرهم، أي: على أكثر الذين بعث فيهم الرسول ﷺ، بالكفر والعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦]،

وقال تعالى: ﴿أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُقَدِّمُنَا فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩].

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء تعليلية، أي: فهم لا يؤمنون؛ لأن الله كتب عليهم الكفر وأوجب عليهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦].

قال السعدي^(١): «﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»، أي: نفذ فيهم القضاء والمشية: أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم.

وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ مُّبِينٍ (١٢) .

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ «أعناق»: جمع «عنق» وهو: الرقبة، و«أغلالاً»: جمع «عُلٌّ»، وهي القيود والأوثاق، أي: إنا صيرنا في أعناقهم أغلالاً جمعت بين أيديهم

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦ / ٣٣٤ - ٣٣٥.

وأعناقهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ الضمير يعود إلى الأغلال، أي: فأغلالهم واصلة إلى الأذقان قد أحاطت بها؛ لِعِرْضِهَا وَسَمَكِهَا، و«الأذقان»: جمع ذقن، وهو مجمع اللحين.

وقيل: الضمير يعود إلى الأيدي وإن لم تذكر؛ لدلالة السياق عليها، فالغل يكون في العنق فتجمع إليه اليد، فالمعنى: فأيديهم مغلولة إلى أذقانهم.

﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ جمع «مقمح»، و«المقمح»: من جعل في عنقه غل، فجمعت يده مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه، فصار مقمحا لا يستطيع خفض رأسه.

فروؤوسهم مقمحة مرتفعة بسبب غل أيديهم مع أعناقهم تحت أذقانهم، فلا يستطيعون خفضها ولا تحريكها، ولا التصرف فيها.

وأيديهم مغلولة موثوقة بأعناقهم لا يستطيعون بسطها إلى أيّ خير.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف ﴿سَدًّا﴾ بفتح السين، وقرأ الباقون بضمها: «سُدًّا».

أي: وجعلنا أمامهم حاجزا ومانعا، ومن خلفهم حاجزا ومانعا، يمنعانهم عن الإيوان، وعن معرفة الحق.

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾، أي: فأغشينا أبصارهم وغطيناها، وأعمينا بصائرهم عن الحق.

﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾، أي: فهم عمي الأبصار والبصائر، لا يرون الآيات بأبصارهم، ولا يتفكرون فيها ببصائرهم، ولا يعرفون طريق الحق، ولا يهتدون إليه.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«سواء»: خبر مقدم، بمعنى: «مستو».

﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، و«أم»: حرف عطف معادلة للهمزة، والتقدير: إنذارك وعدمه سواء عليهم.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم قد غشيت أبصارهم، وختم على قلوبهم بالضلالة؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً ﴿البقرة: ٦-٧﴾، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَلَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةُ رَبِّكَ لِأَنَّ لَهُمْ آيَاتٍ بَلَدًا لَمَّا كَانُوا فِيهَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾ [يونس: ٩٦؛ ٩٧].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما تنذر إلا من اتبع الذكر، و«من» موصولة، و«الذكر»: القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ صَوِّءَ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

لأن الله ذكر فيه المواعظ والأحكام والأخبار والجزاء على الأعمال، وشرف فيه النبي ﷺ والعرب.

أي: إنما ينتفع بإنذارك وتخويفك، ويستفيد منه الذين اتبعوا القرآن الكريم وهم المؤمنون، الذين صدقوا أخباره، وعملوا بأحكامه.

﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾، أي: خافه عن علم به، وتعظيم له، وفي اختيار اسم «الرحمن» هنا إشارة إلى رحمته لمن خشيه.

﴿ بِالْغَيْبِ ﴾، أي: وهو عز وجل غيب لم يره، لكن استدل عليه بآياته البينة الظاهرة؛ كأنه يراه؛ كما قال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (١). وخشي الرحمن أيضاً وخافه بالغيب، أي: وهو في غيبة عن أعين الناس، لا يراه إلا الله، الذي لا تخفى عليه خافية.

﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾ الضمير الهاء عائد إلى «من» باعتبار لفظها، أي: فبشر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴿ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ من الله تعالى لذنوبه، بسترها عن الخلق، والتجاوز عن عقوبتها. ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾، أي: وثواب واسع كبير، مضاعف حسن جميل؛ كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [فاطر: ٣٠].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ﴾.

لما ذكر انقسام المنذرين إلى فريق حق عليه القول فهم لا يؤمنون، وفريق آمن واتبع الذكر، ذكر أنه يحيي الموتى ويكتب أعمالهم وآثارهم، وسيجازيهم بها، وفي هذا بشارة

(١) سبق تحريجه.

ووعد لمن آمن، وتحذير ووعيد لمن كفر.

قوله: ﴿إِنَّا﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع تعظيماً لنفسه؛ لكمال عظمته، ﴿تَحَنُّنٌ﴾ ضمير فصل يفيد التخصيص، أي: نحن خاصة، لا غيرنا. ﴿نُحْيِي الْمَوْتِ﴾، أي: نبعثهم من قبورهم يوم القيامة؛ لنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم.

قال ابن كثير^(١): «وفيه إشارة إلى أن الله يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق؛ كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]». ﴿وَنُكْتَبُ مَا قَدَّمُوا﴾ «ما»: موصولة، أي: ونكتب الذي قدموه من الأعمال في صحائف الأعمال، ونحفظه؛ لنحاسبهم ونجازيهم عليه خيراً كان أو شراً. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كَرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

﴿وَأَثَرُهُمْ﴾، أي: ونكتب آثارهم. والآثار: جمع «أثر»، والأثر: ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي؛ فإنه يعقبه.

والمراد بآثارهم: ما يجري ويستمر لهم أجره أو وزره بعد وفاتهم مما عملوه في حياتهم، أو سنوه وكانوا قدوة فيه، خيراً كانت أو شراً.

كما قال ﷺ فيما رواه جرير بن عبدالله رضي الله عنه: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٢).

(١) في «تفسيره» ٦ / ٥٥١.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، الحث على الصدقة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤، والترمذي في العلم

وفي رواية زيادة: «وتلا هذه الآية: ﴿وَنَكْتِبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾»^(١).
وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢).
فما علّمه الإنسان من علم، ودعاء إليه من خير، من صلاة وزكاة وصدقة وبر وإحسان، وغير ذلك، أو عمله فاقتدى به غيره، فله أجر ذلك بلا انقطاع.
وما ألفه من كتب ينتفع بها، وما بناه من مساجد ومرافق ينتفع بها، وما أوقفه من أعمال بر وخير، وما خلفه من ذرية صالحة يدعون له، كل ذلك أجره مستمر له.
كما أن من كان قدوة في الشر بعلمه وعمله ودعوته ونفقاته وأوقافه، وكتابات، وفساد ذريته، فوزر ذلك مستمر عليه.

وقيل: المراد بآثارهم: آثار مشي أقدامهم إلى الطاعات؛ كالمشي إلى الصلوات؛ كما قال ﷺ لبني سلمة: «دياركم تكتب آثاركم»^(٣).
والصحيح: أن كل ما عملوه في حياتهم هو مما قدموه، فهو داخل في قوله: ﴿وَنَكْتِبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ ﴿وَكُلُّ﴾: مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده، أي: أحصينا كل شيء، أي: عددناه وضبطناه، وكتبناه وأثبتناه، وسمي العد والضبط إحصاءً؛ لأن العرب كانوا يعدون الشيء ويضبطونه بالحصي، قال الشاعر:
ولست بالأكثر منهم حصي وإنما العززة للكاثر^(٤)

﴿فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في كتاب مرجع جامع، بين واضح، مبين عن كل شيء، مظهر للحقائق، وهو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب، والذكر؛ كما قال تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

٢٦٧٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٣.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣١٩٠ - ٣١٩١.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٦٥، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) البيت للأعشى. انظر: «ديوانه» ص ١٤٣.

[البروج: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ [الزخرف: ٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرَاتِ الْأَرْضَ يَرُدُّهَا عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويجوز أن يكون المراد بـ«إمام»: كتاب وصحائف الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ ﴿٧١﴾ [الإسراء: ٧١]، أي: بكتاب أعمالهم. وقال تعالى: ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ وَجَاءَءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهَدَاءِ ﴿٦٩﴾ [الزمر: ٦٩].

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿ يَسْ ﴿١﴾ .
- ٢- تعظيم الله عز وجل للقرآن، وإقسامه به؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ .
- ٣- ثناء الله عز وجل على القرآن، بتسميته ووصفه: «الحكيم»، وأنه ذو الأحكام، والحكمة، والحكم؛ لقوله تعالى: ﴿ الْحَكِيمِ ﴿٣﴾ .
- ٤- إثبات وتأكيده رسالته ﷺ، وأنه من جملة المرسلين، وليس بدعاً من الرسل؛ لإقسامه عز وجل على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤﴾ .
- ٥- إثبات استقامة طريقه ﷺ فيما يدعو إليه، واعتدال منهجه؛ لقوله تعالى: ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ .
- ٦- إثبات علوه عز وجل على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ .
- ٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.
- ٨- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزیز» و«الرحيم»، وصفتي: العزة التامة، بأقسامها، والرحمة الواسعة بأنواعها؛ لقوله تعالى: ﴿ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ ، فبعزته عز وجل ورحمته أنزل القرآن وصانه من التغيير والتبديل، وبعث به محمداً ﷺ رحمة للعالمين.

٩- في اقتران اسميه عز وجل: «العزیز» و«الرحیم»، وصفتي: العزة والرحمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

١٠- أن الحكمة من إرساله ﷺ إنذار قومه وأمته؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (٦)، ومعلوم أن من لازم ذلك التبليغ، والتحذير من الطريق الموجب للعذاب، والترغيب في طريق السلامة، بل والبشارة لمن سلك ذلك.

١١- أنه لم يأت العرب نذير ولا رسول من قبله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (٦).

١٢- غفلة العرب قبل بعثته ﷺ، وسهوهم عما خلقوا له، وانشغالهم بما هم عليه من الشرك والكفر والضلال والفجور، وشرب الخمر، واللهو والميسر، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾.

١٣- نفوذ قضاء الله وقدره بكفر أكثرهم، وعدم إيمانهم، وفي تعذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧).

ومفهوم هذا: أن منهم من يؤمن وينجو من العذاب.

١٤- أن من وجب عليهم القول الكوني القدري بالكفر والعذاب لا يؤمنون أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٥- الحيلولة بينهم وبين الإيمان، بسبب إعراضهم بما جعل الله من الأسباب والموانع القدريّة، فهم كمن غلت أيديهم وأعناقهم، فجمعت أيديهم إلى أعناقهم تحت أذقانهم فهم مقمّحون، رافعو رؤوسهم، لا يستطيعون تحريك رؤوسهم، ولا بسط أيديهم، وجعل بينهم وبين الإيمان حاجزًا أمامهم، وآخر خلفهم، وأغشيت أبصارهم وعميت بصائرهم، فانسدت سبل الهداية والإيمان في وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٩).

١٦- أن من أراد الله إضلاله، وحال بينه وبين الهدى والإيمان قدرًا، فلا سبيل له إلى إِبصار الحق، والاهتداء؛ ولهذا يجب على العبد صدق اللجوء إلى ربه، وسؤاله الهداية.

١٧- أنه يستوي بالنسبة لهؤلاء- الذين حال الله بينهم وبين الإيمان، وأعمى عنه

بصائرهم وأبصارهم - الإنذار وعدمه؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

١٨ - تسليته ﷺ، فلا يضيق صدره ويأسى على عدم إيمانهم؛ لأن الله كتب عليهم الضلال.

١٩ - أنه إنما ينتفع بإنذاره ﷺ من اتباع القرآن، وخشي الرحمن وخافه وهو غيب لم يره وكأنه يراه، وخشيه وهو في غيبة عن أعين الناس لا يراه إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾.

٢٠ - أن من أسماء القرآن: «الذكر»؛ لما تضمنه من المواعظ والعبر والحكم، والأحكام والأخبار، والجزاء على الأعمال، والشرف للنبي ﷺ ولقومه.

٢١ - إثبات اسم الله: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنَ﴾.

٢٢ - البشارة لمن اتبع القرآن وخشي ربه بالغيب، بما أعد الله له من مغفرة لذنوبه، وأجر واسع عظيم، مقابل عمله الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

٢٣ - أن من اتبع القرآن قاده إلى الحذر مما أنذر منه، وإلى خشية الله بالغيب؛ كما أن من خشي الله تأثر بالقرآن، وانتفع به.

٢٤ - الترغيب في اتباع القرآن وخشية الله تعالى والثناء على من اتصف بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

٢٥ - إثبات بعث الناس بعد الموت للحساب والجزاء، وقدرة الله تعالى التامة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

٢٦ - الإشارة إلى قدرته عز وجل على إحياء القلوب الميتة بالكفر، بردها إلى الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

٢٧ - كتابة كل ما قدم العباد من أعمال في الخير أو الشر، قليلة أو كثيرة، وحسابهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾.

٢٨ - كتابة آثارهم بعد الموت مما عملوه من أعمال يستمر لهم أجرها؛ كالصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به، والولد الصالح يدعو لهم، وما أحيوه من سنن حسنة

يتبعهم الناس عليها، وكذا ما عملوه من أعمال سيئة يستمر عليهم وزرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾، أي: ونكتب آثارهم.

٢٩- أن الأعمال لا تنقطع بالموت.

٣٠- إحصاؤه عز وجل كل شيء من أعمال العباد وغيرها، وضبطه وكتابه

وإثباته في إمام مبین، وهو اللوح المحفوظ وصحائف الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِالشَّالِكِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِيَّاكُمُ لِمَرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْمُبِينِ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِالشَّالِكِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِيَّاكُمُ لِمَرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْمُبِينِ ﴿١٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَضْرِبْ﴾، أي: واضرب يا محمد، أي: اتخذ واجعل للمكذبين من قومك ﴿مَثَلًا﴾؛ «المثل»: الشبه، أي: واضرب لهم في تكذيبهم ما أرسلناك به إليهم مثلاً يكون عظة وعبرة لهم.

﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ «أصحاب» بدل من «مثلاً»، أو مفعول ثانٍ لـ «اضرب»، أي: أهل القرية.

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، والضمير الهاء يعود إلى ﴿الْقَرْيَةِ﴾، أي: حين جاءها المرسلون الثلاثة من عند الله عز وجل يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده وطاعته، ويجذرونهم من الشرك بالله ومعصيته.

وما جرى منهم من تكذيب رسلهم، وما حل بهم من عقاب الله ونكاله؛ ليحذر المكذبون من قومك أن يحل بهم من العقوبة مثل ما حل بأصحاب هذه القرية، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ «إذ»: بدل من التي قبلها، أي: حين أرسلنا إليهم رسولين اثنين في بداية الأمر.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، أي: فبادروا إلى تكذيبها، ونفي صحة إرسالها، ورد خبرهما. ﴿فَعَزَّزْنَا بِالشَّالِكِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الزاي الأولى: «فَعَزَّزْنَا»، وقرأ الباقون بتشديد ها: «فَعَزَّزْنَا»، أي: فقويناها وأيدناها وشددنا أزرها برسول ثالث.

كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِ (٣١) هَرُونَ أَخِي (٣٠) أَشَدَّ بِهِ أَزْرِي (٣١)﴾ [طه: ٢٩-٣١].

﴿فَقَالُوا﴾، أي: فقال الرسل الثلاثة لأصحاب القرية:
﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾، أي: من عند الله عز وجل، ندعوكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال أصحاب القرية لرسولهم مكذبين لهم ومعاندين ومكابرين:
﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلَنَا﴾، أي: فكيف أوحى إليكم وأنتم مثلنا؟ ولم يوح إلينا مثلكم؟ وما الذي فضلكم علينا، ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة؟

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ سُلَيْمٌ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال تعالى:
﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقال بعض المكذبين لرسولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال بعضهم: ﴿وَلَيْنَ أَطْعَمَهُمُ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِذْ أَخْسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].
كما قال كفار قريش: ﴿لَوْلَا أَنْزَلِ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما أنزل الرحمن أي شيء. وهذا منهم إنكار لعموم الرسالات والكتب.

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أنتم إلا تكذبون فيما تدعونه من الرسالة، فكذبوا رسولهم المرسلين لهم خاصة، بعدما أنكروا عموم الرسالات والكتب.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال لهم رسولهم:
﴿رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِيَّاكَ لِمَسَلْنَا لِمَسَلْنَا﴾ الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات؛ الأول: كونها جارية مجرى القسم؛ فكأنهم قالوا: ربنا يعلم والله إنا إليكم لمرسلون، والثاني: «إنا»، والثالث: لام التوكيد في قولهم: ﴿لِمَسَلْنَا﴾.

أي: لمرسلون حقاً من عنده، وسينصرنا ويظهرنا عليكم، ولو كنا كاذبين لانتقم منا وبادرنا بالعقوبة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٥٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: وما علينا بالنسبة لكم إلا البلاغ المبين، أي: إلا إبلاغكم الرسالة البلاغ البين الواضح، المبين للحق بالأدلة الظاهرة، وقد قمنا بذلك، فبلغناكم رسالة الله بلاغاً بيناً واضحاً، وأوصلناها إليكم. قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ قَالُوا طَيَّرْنَاكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا﴾، أي: قال أصحاب القرية لرسولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي: تشاء منا بكم، أي: لم نر في قدومكم علينا خيراً، ولا على وجوهكم إلا شراً. وتطيرهم بالرسول لا لشيء، وإنما لمجرد تشويه صورتهم وما جاءوا به من الحق، ولما يصيبهم من العقوبات من أجل مخالفتهم، ولحد الشرائع لهم من بلوغ مآربهم في اتباع أهوائهم وشهواتهم.

ثم أقسموا متوعدين لهم بقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنتهوا عن دعوتنا إلى اتباعكم، وترك ما نحن عليه، ﴿لَنَرْجِمَنَّكُمْ﴾ جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: لنرمينكم بالحجارة، ونقتلنكم رجماً بها أشنع القتلات. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: وليصيبنكم منا عذاب مؤلم موجه، وعقاب شديد. وهذا من أعظم المصائب، وغاية الخذلان؛ أن تنقلب المفاهيم، وصدق الله العظيم: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

﴿قَالُوا﴾، أي: قالت لهم رسولهم:

﴿طَيَّرْنَاكُمْ مَعَكُمْ﴾، أي: شؤمكم معكم، ملازم لكم، ومحيط بكم، بسبب كفركم المقتضي لزوال الخير عنكم، ونزول الشر والعقوبة بكم؛ كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَيَّرْتُم بِكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال قوم صالح: ﴿أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمَنُ مَعَكَ قَالَ طَيَّرْنَاكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال تعالى:

﴿وَأِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَإِلَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾
[النساء: ٧٨].

﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة الثانية: «أَنَّ»، وقرأ الباقر بكسرها: ﴿أَيْنَ﴾.
وقرأ أبو جعفر بتخفيف الكاف: «ذُكِّرْتُمْ»، وقرأ الباقر بتشديدها: ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾.
والهمزة الأولى في قوله: ﴿أَيْنَ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي التعجبي، و«إن»: شرطية، وفعل الشرط: «ذُكِّرْتُمْ»، وجوابه محذوف، تقديره: تطيرتم وتوعدتم.
أي: أبسبب أنا ذُكِّرناكم، ووعظناكم، ودعوناكم إلى توحيد الله تعالى، تشاءتمم بنا، وتوعدتمونا؟!!

والاستفهام منصب على جواب الشرط المحذوف، وهو تطيرهم بالرسول، وتوعدهم لهم.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل أنتم قوم متجاوزون للحد في كفركم وإجرامكم، وعتوكم وعنادكم، كذبتهم الرسول بلا حجة ولا دليل، وتطيرتم بهم وهددتموهم.

الفوائد والأحكام:

١- ضرب الأمثال في القرآن للعظة والاعتبار، والترغيب في الخير، والتحذير من الشر، وهذا من رحمة الله ومنتته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّنْ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ الآيات.

٢- إقامة الله عز وجل الحجة على أصحاب هذه القرية، فقد أرسل إليهم رسولين، ثم عززهما بثالث لما كذبوهما، ولم ينجع ذلك فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِكِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٣- أن الله عز وجل قد يرسل للقرية الواحدة أكثر من رسول؛ تقوية وتعزيزاً للرسالة.

٤- طعن أصحاب هذه القرية في رسلهم بكونهم بشرًا مثلهم، وليسوا بملائكة؛ كما هي عادة المكذبين قبلهم؛ لقولهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

٥- شدة مكابرتهم بإنكارهم الرسائل، وإنزال الكتب عمومًا، وتكذيبهم

لرسلهم؛ لقولهم: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وما يدل عليه من صفة الرحمة الواسعة: ذاتية وفعلية، عامة وخاصة.

٧- إقرار هؤلاء المكذبين من أصحاب القرية باسم «الرحمن».

٨- تأكيد هؤلاء الرسل لقومهم أنهم مرسلون إليهم بما يشبه القسم، وب«إنا»، ولام التوكيد؛ لقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة برسله؛ لقول الرسل: ﴿رَبُّنَا﴾.

١٠- إثبات علم الله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقول الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ الآية.

١١- أن مهمة الرسل بالنسبة لأقوامهم هي إبلاغهم رسالات ربهم البلاغ المبين، وليس عليهم هداية الخلق؛ لقولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

١٢- تشاؤم أصحاب هذه القرية وتطيرهم برسلهم، وتوعدهم لهم، وتهديدهم إياهم إن لم يكفوا عن دعوتهم، برجمهم وقتلهم أو تعذيبهم؛ لقولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٣- جراءة أعداء الرسل على القول عليهم ما لم يكن منهم؛ تشويها لهم، وتنفيراً من دعوتهم، وجرأتهم على أذيتهم وقتلهم.

١٤- ثقة هؤلاء الرسل بنصر الله لهم، وأن تطير هؤلاء المكذبين ملازم لهم أنفسهم، ومحيط بهم؛ لما هم عليه من الكفر والتكذيب والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ﴾.

١٥- إنكار هؤلاء الرسل على قومهم تطيرهم بهم، وتهديدهم لهم، لا لشيء إلى أنهم ذكروهم ووعظوهم، ودلوهم على الخير؛ لقولهم: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾.

١٦- الإنكار على من ذُكِّرَ ووُعِظَ ودُعِيَ إلى الخير، فقابل ذلك بالإعراض والإساءة لمن دعاه.

١٧- إسراف هؤلاء المكذبين ومجاوزتهم الحد في الكفر والعناد؛ إذ كيف يكذبون من يذكرهم ويعظهم، بل ويتشائمون به ويهددونه بالرجم والقتل؟! لقولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدَنْ الرِّحْمَانُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴿٢٤﴾ إِنْ إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ إِنْ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلِيَّتْ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ يَا عَافِيَا رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٨﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٣٠﴾ يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِلَكُمْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُخْرَجُونَ ﴿٣٣﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدَنْ الرِّحْمَانُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴿٢٤﴾ إِنْ إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ إِنْ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ۞

قوله: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ۞ ﴾، أي: من أبعدا طرفا. والمراد بالمدينة: القرية المذكورة في قوله: ﴿ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ۞ ﴾.

﴿ رَجُلٌ يَسْعَى ۞ ﴾، أي: يشند ويركض ويسرع في مشيته؛ لثلاث تفوته الفرصة؛ حرصا منه على نصح قومه، حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما رده قومه عليهم.

﴿ قَالَ ۞ ناصحًا لقومه، ومشفقًا عليهم، وحاضًا لهم، ومتوددًا إليهم. ۞

﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ ﴾ «ال»: للعهد، أي: المرسلين إليكم، أي: صدقوهم بما جاؤوكم به، وما دعوكم إليه من الإيمان وعبادة الله وحده، وانقادوا لهم.

﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ كرر الأمر بالاتباع من باب التوكيد؛ معللاً لذلك، ومرغباً فيه، بذكر انتفاء المانع من ذلك، والموجب له؛ فقال: ﴿ مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ ﴾، أي: الذي لا يسألكم أجراً، من دنيا أو رياسة على إبلاغكم رسالة الله، وهم الرسل عليهم السلام.

﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، أي: وهم مهتدون على صراط مستقيم فيما يدعون إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وفي هذا بيان الموجب لاتباعهم.

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ۞ ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أي شيء يمنعني أن أعبد الله وحده الذي خلقني؟ أي: المستحق للعبادة وحده، دون سواه، أي: وأنتم كذلك لم لا

تعبدونه؟ أو لم تعبدون غيره؟

وإنما لم يقل: ما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟ بل أضاف الأمر إلى نفسه تلطفاً معهم.

قال ابن القيم: «أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه؛ تأليفاً لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، قبيح الإضلال بها، فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، ونعمه كلها تابعة لإيجاده وخلقته، وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم، ومحبة المحسن»^(١).

﴿وَالَّذِينَ تَرَجُّعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون يوم القيامة، وجميع الخلائق، فيحاسبكم ويمجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها، وهذا مما يؤيد أنه يريد قومه بقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

﴿ءَاتَاكُمْ مِنْ دُونِهِ آِلِهَةً﴾ الاستفهام: للنفي والإنكار، أي: لا أجعل من دون الله، أي: غير الله، آلهة أعبدهم، لا يملكون من الأمر شيئاً؛ ولهذا قال:

﴿إِنْ يَرِدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ تعليل لما قبلها، أي: ﴿إِنْ يَرِدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ دنيوي من مرض أو فقر أو غير ذلك، أو ضر أخروي بعذاب.

﴿لَا تَعْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ﴾، أي: لا تنفعني ولا تدفع عني شفاعتهم التي زعموها، ﴿شَيْئاً﴾ نكرة في سياق النفي فتعم أي شيء مهما قل.

﴿وَلَا يُنْقِذُونِ﴾، أي: ولا ينقذوني، وحذفت الياء لمراعاة الفاصلة، أي: ولا يخلصوني مما أَرَادَهُ اللهُ بي من ضر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿إِنِّي إِذْ أَتَى صَلَاتِي مُبِينٍ﴾^(٢) «إذن»: حرف جواب، واللام للتوكيد.

﴿إِنِّي إِذْ أَتَى﴾، أي: إني إذن إن اتخذت من دون الله آلهة أعبدهم هذه صفتهم، ﴿أَتَى صَلَاتِي﴾، أي: لفي بعد وتيه عن الحق.
﴿مُبِينٍ﴾، أي: بين واضح.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣ / ٤٧٧.

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، أي: بوجوده وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وانقذت له ظاهراً وباطناً، والخطاب لقومه، ولم يقل: «بربي»، بل قال: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ مع أن رب الجميع واحد، هو الله عز وجل؛ ليذكرهم بنعمة ربوبية الله تعالى عليهم؛ ليشكروه ويؤمنوا به.

﴿فَاسْمَعُونَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاسمعوا قولي: إني آمنت بربكم.

وفي هذا الإعلان منه بإيانه مراغمة لقومه، وإقامة للحجة عليهم، وعدم اكتراثه بما سيصدر منهم تجاهه؛ ولهذا قتلوه.

ويحتمل: أن يكون خطابه بقوله: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ للرسول، ﴿فَاسْمَعُونَ﴾، أي: فاسمعوا قولي؛ لتشهدوا لي عند ربي بما أقول لكم: إني آمنت بربكم واتبعتكم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ يَمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزْلِمِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿قِيلَ﴾، أي: قيل تكريماً له بعد أن قتله قومه واستشهد: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾.

وهذا من نعيم القبر، كما جاء في الحديث: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، تأكل من ثمار الجنة»^(١).

وأغمض عن كونهم قتلوه؛ كي لا يسر المشركين أن قومه قتلوه، فيطمعوا في قتله

ﷺ.

ولم يلهه دخول الجنة عن حال قومه، وما تمنى هلاكهم، ولا الشهامة بهم، بل قال:

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ يَمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قال السعدي^(٢): «قيل له في الحال: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾»، ﴿قَالَ﴾ مخبراً بها وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه، وناصحاً لقومه بعد وفاته؛ كما نصح لهم في حياته.

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ «يا»: حرف تنبيه، و«ليت» للتمني، ﴿يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعرفون.

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦ / ٣٤٢.

أو «يا»: حرف نداء، والمنادى محذوف، والتقدير: يا رب، ليت قومي يعلمون.
﴿يَمَّا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ «ما»: مصدرية، أي: بغفران ربي لي، أو موصولة، أي: بالذي
غفر لي ربي، أي: بستر ذنوبي، والتجاوز عني.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بإدخالي الجنة دار كرامته، ومنحي من فضله المطلوب.
عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نصح قومه في حياته بقوله: ﴿آتَيْتُمُ
الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته بقوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿يَمَّا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾» (١).

ومقصوده: لعلمهم إذا علموا ما منَّ الله به عليه من المغفرة والكرامة أن يؤمنوا
ويتبعوا المرسلين.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ «ما»: نافية، وفي الإتيان بـ«من» ثلاث
مرات محسن جناس.

أي: وما أنزلنا على قومه من بعد هلاكه وموته على أيديهم ﴿مِنْ جُنْدٍ﴾ «من»: زائدة
من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ «من»: لابتداء
الغاية.

أي: وما أنزلنا على قومه بعد قتلهم له وموته، لما أردنا إهلاكهم، أي جند من
السماء، أي: ملائكة.

﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي جند لإهلاكهم؛ لعدم حاجتنا إلى ذلك؛ لأنهم أضعف وأقل،
والأمر علينا أيسر وأسهل من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ ﴿١٠﴾ [النحل: ٤٠].

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قرأ أبو جعفر: «صَيْحَةً»؛ بالرفع في الموضعين، وقرأ
الباقون بالنصب فيها.

و«إن»: نافية؛ بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما كانت إلا صيحة واحدة
شديدة أهلكتهم، فقطعت قلوبهم في أجوافهم؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ الفاء:

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٥٥٧، ونسبه لابن أبي حاتم.

عاطفة، و«إذا»: هي الفجائية، أي: فإذا هم فجأة خامدون، أي: ميتون هامدون، قد سكنت جميع حركاتهم.

قوله تعالى: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠) **الَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ** (٣١) **وَإِنْ كُلُّ لَمَمٍ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ** (٣٢).

قوله: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ هذا وما بعده من كلام الله تعالى، أي: ما أشد حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذ عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله؟ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ «من»: مزيدة مؤكدة للنفي، أي: ما يأتيتهم أي رسول. ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كانوا به يسخرون تكذيباً به، وجحوداً لما جاء به من الحق.

و«به» متعلق بـ«يستَهزئون»، وقدم عليه لإفادة الحصر، ومراعاة فواصل الآيات. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ الاستفهام: للتقرير والإنكار، و«كم»: خبرية للتكثير، أي: أولم يعلم هؤلاء المكذبون للنبي ﷺ كثرة ما أهلكنا قبلهم ﴿مِنْ الْقُرُونِ﴾؟ أي: من الأمم المكذبة للرسول.

﴿أَنَّهُمْ﴾، أي: المهلكين، ﴿إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ الضمير في «إليهم» يعود إلى المكذبين، و«إليهم» متعلق بـ«يَرْجِعُونَ»، وقدم مراعاة للفاصلة، والمصدر المؤول ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأنهم بعد إهلاكهم لا يرجعون إليهم في هذه الدنيا. أي: هم يعلمون كثرة من أهلكنا من القرون المكذبة من قبلهم، وأنهم إليهم لا يرجعون، فلم لا يعتبرون ويتعظون بذلك؟

﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَمٍ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ «إن» نافية بمعنى: «ما»، و«لما» بمعنى: «إلا»، أي: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، أي: وما كل القرون والأمم السابقة واللاحقة إلا جميعهم عندنا ﴿مُحْضَرُونَ﴾، أي: مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء، وتوفيتهم أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَمٍ لِيُوفِّيْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

الفوائد والأحكام:

١- أن الدين النصيحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا

الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ الآية.

٢- إطلاق المدينة على القرية والعكس؛ لأن الله قال في أول القصة: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [يس: ١٣]، وقال هنا: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾.

٣- حرص هذا الرجل الناصح على هداية قومه لو كانوا يعلمون؛ لتجشمه المجيء إليهم من أقصى المدينة، وإسراعه السعي للمبادرة إلى ذلك.

٤- ينبغي المبادرة بالنصيحة في وقتها، وقبل فوات أوانها، واغتنام الفرص.

٥- حسن نصيح هذا الرجل لقومه في عرضه عليهم، واحتججه لذلك؛ فخاطبهم بقوله: ﴿يَنْقُورِ﴾ تَأَلَّفًا لَهُمْ، وأمرهم باتباع المرسلين مؤكدًا لذلك، ومبينًا لهم انتفاء المانع من ذلك، ووجود الموجب له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَتَيْعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَتَيْعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُرُ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾، وهكذا ينبغي لمن يتصدى للدعوة أن يختار من الأساليب أحسنها، ومن الطرق والحجج أوضحها وأبينها.

٦- أن الرسل عليهم السلام لا يسألون أجرًا على تبليغ رسالات ربهم، فيقول قائل: إن هذا عزم ثقيل علينا، وهكذا ينبغي لمن يدعو إلى الله أن يترفع عن أخذ مال من الناس، حتى وإن أعطوه فلا يقبله.

٧- أن الرسل على هدى من ربهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَهَادِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

٨- تالطف هذا الرجل الناصح مع قومه، بجعله الإنكار على نفسه لو لم يعبد الله الذي خلقه، وعبد من دونه آلهة لا يملكون من الأمر شيئًا، وأنه إذن لو فعل ذلك لفي ضلال مبين، وجواز مثل هذا بقصد استمالة المدعوين؛ لقوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ أَأَنْتُمْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةٌ إِنْ يُرَدُّنَ الرَّحْمَنُ بِصُرِّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾.

٩- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ

الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ ففي هذه إثبات أنه الخالق المستحق للعبادة وحده.

١٠- أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى؛ إليه إياهم، وعليه حسابهم؛ لقوله

تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ تُرْجَعُونَ﴾.

١١- إنكار اتخاذ الشركاء مع الله، وتسفيهه المشركين؛ لقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ۚ ءَالِهَةً﴾.

١٢- إثبات صفة الإرادة والمشيئة لله تعالى، وإثبات اسمه: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله: ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ﴾.

١٣- أن إرادة الله تعالى الضرر بالإنسان لا تنافي الرحمة؛ لأن إرادته عز وجل الضرر بالإنسان قد تكون من رحمته عز وجل به؛ ليتنبه من غفلة، أو لزيادة حسناته، أو تكفير سيئاته، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ﴾.

١٤- أن ما يقع من خير أو شر هو بإرادة الله تعالى ومشيئته.

١٥- قرن الحكم بعلته، وبيان بطلان شفاعة الشركاء التي يزعم المشركون، وأنهم لا يدفعون ضرراً أَرَادَهُ اللهُ، ولا هم ينقذون منه؛ لأنهم لا يملكون شيئاً؛ لقوله: ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ لَا تَغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ (١٣).

١٦- أن من أعظم الضلال وأشدّه ترك عبادة الله، وعبادة آهة غيره، لا تملك من الأمر شيئاً؛ لقوله: ﴿إِنِّي إِذْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ومفهوم هذا: أن الهدى كل الهدى في عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

١٧- تمام معرفة هذا الرجل الناصح؛ فإنه جمع في نصحه لقومه لب العلم والمعرفة، فأمرهم باتباع المرسلين، وبين لهم أنهم لا يسألون أجراً وأنهم مهتدون، وأنكر على نفسه وعليهم أن يعبدوا غير خالقهم، ومن إليه مرجعهم، وبيّن بطلان شفاعة الشركاء، وأنهم لن يغنوا من الله شيئاً، وأن من ترك عبادة الله تعالى وعبد غيره فهو في ضلال مبين.

١٨- إثباته القدوة لهم ولغيرهم؛ بإعلان إيمانه أمامهم، وتحديه لهم بذلك؛ إقامة للحجة عليهم، مع علمه بأنهم سيقتلونه؛ لقوله: ﴿إِنِّي ءَأْمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (١٥)، أي: فاسمعوا قولي، لا أبا لكم، ولعلكم تقتدون بي.

ويحتمل: أن يكون الخطاب منه للرسول، فيكون المعنى: فاسمعوا قولي، واشهدوا لي بذلك عند ربكم.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾، ويحتمل: أن

يكون المراد الربوبية: الخاصة إذا كان الخطاب للرسول عليهم السلام.

٢٠- إكرام الله عز وجل لهذا الرجل المؤمن الناصح، بإدخاله الجنة، بعد أن قتله قومه شهيداً في سبيل الله، وفي هذا إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وهذا في البرزخ قبل القيامة.

٢١- إثبات وجود الجنة، وأنها موجودة الآن مهياً لأهلها؛ كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٢٢- شفقة هذا الرجل على قومه ونصحه لهم حتى بعد مماته، وتمنيه لو يعلم قومه بمغفرة الله تعالى له، وجعله من المكرمين؛ لعلهم أن يؤمنوا ويتبعوا المرسلين؛ لقوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ بِمَا غَفَرْتُ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

٢٤- فضيلة الإيمان والترغيب فيه؛ لعظم ما أعدده للمؤمنين، حيث جمع لهم بين التخلية بإزالة المرهوب بمغفرة ذنوبهم، والتولية بحصول المطلوب بجعلهم من المكرمين بجنته.

٢٥- أن الله عز وجل لما أراد إهلاك قومه من بعده، لم ينزل عليهم جنداً من الملائكة؛ لأنهم أضعف وأقل، ولعظمتهم عز وجل، فالأمر عليه أيسر وأسهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

٢٦- أن جند الله هم الملائكة، وأنهم في السماء، وينزلون بأمر الله تعالى.

٢٧- أن إهلاكهم ما كان إلا بصيحة واحدة، قطعت قلوبهم في أجوافهم، فإذا هم موتى هامدون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٨- ما أعظم قدرة الله تعالى، وما أهون الخلق عليه إذا هم عصوه، وخالفوا أمره.

٢٩- شدة حسرة وندامة المكذبين لرسول الله المستهزئين بهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

٣٠- أن الاستهزاء بالرسول كفر موجب للنار، وللحسرة والندامة؛ كما قال تعالى:

﴿أَيُّ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

٣١- استهزاء أكثر الأمم برسولهم، وتكذيبهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ

إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٢﴾ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥١﴾
 أَنْوَاصُوا بِهِ بَلِّغْهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

٣٢- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على ضلال؛ كما قال تعالى:
 ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

٣٣- تقرير المكذبين بما يقرون به ويعلمونه من إهلاك كثير من القرون المكذبين
 قبلهم، ولا يرجعون إليهم، والإنكار عليهم في عدم الاتعاظ والاعتبار بذلك؛ لقوله
 تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ وَخَسِرُوا فِي أَلْبَابِهِمْ وَنُحِسُوا عَذَابَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣١﴾﴾.

٣٤- أنه لا رجوع لمن مات قبل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

٣٥- إبطال زعم الدهرية القائلين بالدور، الذي يعتقدون جهلاً منهم أنهم
 يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا
 الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجنات: ٢٤].

٣٦- إثبات البعث وأن كل الأمم وجميع الخلائق محضرون عند الله يوم القيامة
 للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ لُحْمًا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّ لَّهُمْ أَيْلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَيُّ لَّهُمْ آنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَافِلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَنْ نَسْأَلَهُمْ فَلَاحِصٍ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾.

قوله: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي أَحْيَيْنَاهَا﴾ الآية: العلامة والدلالة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: علامة ملكه.

وقال الشاعر:

فواعجبًا كيف يعصى الإله — هـ أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية — تدل على أنه واحد؟! (١)

أي: وآية لهم، أي: للناس جميعًا، دالة على وجود الخالق، ووحديته في ربوبيته وإلهيته، وكمال عظمته، وقدرته على إحياء الموتى، وسعة علمه وحكمته، ورحمته ونعمته.

﴿الْأَرْضُ الَّتِي أَحْيَيْنَاهَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «الْمَيْتَةُ»؛ بتشديد الياء، وقرأ الباقون بتخفيفها: «الْمَيْتَةُ»، والمعنى واحد.

أي: الأرض الهامدة اليابسة الجرداء أحييناها بإنزال المطر عليها؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالنباتات والأشجار بإنزال المطر عليها بعد أن كانت يابسة جرداء، فالذي أحيها قادر على إحياء الموتى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص ١٠٤.

فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾، أي: جميع أصناف الحبوب؛ كالحنطة والذرة والشعير وغير ذلك؛ رزقًا لهم ولأنعامهم؛ ولهذا قال:

﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم المعمول؛ لإفادة الحصر، ومراعاة للفاصلة، أي: فمنه يأكلون هم وأنعامهم.

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْيْتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غَلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴿عبس: ٢٤-٣٢﴾.

وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩-١١].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، أي: وجعلنا في تلك الأرض الميته بساتين من نخيل وأعناب.

وجمع «نخيل» و«أعناب» باعتبار أنواع شجرهما المثمر أصنافًا من الثمر، ولكثرتهم.

وخصهما بالذكر؛ لأنها طعام وقوت حلو لا يحتاج إلى طبخ ومؤونة، ويتنفع به رطبًا ويابسًا، ولأنها أشرف وأنفع الأشجار.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾، أي: وفجرنا في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ الكثيرة المختلفة التي تسيل منها الأنهار السارحة، والتي تنفجر من رؤوس الجبال، وما يستخرج بواسطة الأنابيب وغير ذلك.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ثَمْرِهِ»؛ بضم الثاء والميم، وقرأ الباقون بفتحها: «ثَمْرِهِ».

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يأكلوا من ثمره قوتًا وأدمًا، وفاكهة ولذة.

﴿وَمَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «عَمَلَتْ» بدون هاء، وقرأ الباقون بإثبات الهاء: ﴿عَمَلَتْهُ﴾ عائد إلى المذكور: الحب والنخيل والأعناب.

والواو: حالية، أي: والحال أن ذلك الثمر ما عملته أيديهم، وليس لهم فيه صنع ولا عمل، وأكثره يؤكل مباشرة، لا يحتاج إلى طبخ ونحو ذلك.

ويحتمل: إن «ما» في قوله: ﴿وَمَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ موصولة معطوفة على «ثمره» في محل جر، أي: ويأكلوا من الذي عملته أيديهم.

فامتن الله عليهم بما أخرجهم لهم من الثمار الطازجة، وبما أقدرهم عليه وعلمهم مما يعملونه بأيديهم من المأكولات.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلا يشكرون الله تعالى على ما أنعم به عليهم من هذه النعم العظيمة، بنسبتها إليه، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؟! مرضاته!

﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، أي: تنزيهاً لله عن النقائص والعيوب، وتعظيماً له، الذي خلق وأوجد الأصناف والأنواع كلها، مما لا يمكن حصره وتعداده.

وتفرد بالوحدانية، فهو سبحانه الفرد، وما عداه من المخلوقات لا بد فيه من زوجين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَمِمَّا تُنْتِجُ الْأَرْضُ﴾، أي: مما تخرجه الأرض من أصناف وأنواع النباتات، من الزروع والحبوب، والأشجار مختلفة الثمار؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۗ كُلُّوا وَأَرْعَوْا نِعْمَكُمُ﴾ [طه: ٥٣-٥٤].

﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ من الذكور والإناث مع التفاوت بين خلقهم وخلقهم، وصفاتهم الظاهرة والباطنة.

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: ومن الذي لا يعلمونه من مخلوقات شتى لا يعرفونها. قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَّسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي

لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠).

قوله: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾، أي: وآية لهم، دالة على عظمة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وكمال قدرته، وإحيائه الخلق بعد موتهم.

﴿أَيْلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ﴾، أي: ننزع ونفصل منه النهار؛ كما قال تعالى: ﴿يُعْشَىٰ أَيْلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم داخلون في الظلام؛ لأن الأصل هو الظلام والليل، والنهار بنوره أمر وجودي يوجد بوجود الشمس، فهو وارد على الظلام والليل، فإذا ذهب النهار ونوره بقي الظلام والليل. وفي الحديث: «إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم»^(١).

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ الواو: عاطفة، أي: وآية لهم الشمس تجري وتسير على الدوام، ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، أي: لمكان استقرارها، أو لوقت استقرارها، فهي آية في جريانها ومسيرها، وآية بما فيها من المنافع العظيمة، والمصالح الكثيرة. ومكان استقرارها تحت العرش مما يلي الأرض، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾»^(٢).

وفي رواية: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قال: «مستقرها: تحت العرش»^(٣).

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها: منتهى وقت سيرها؛ وهو يوم القيامة، حينما تكوّر ويذهب بنورها؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٥٤، ومسلم في الصيام، بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار ١١٠٠، وأبو داود في الصوم ٢٣٥١؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣١٩٩، ومسلم في الإيمان ١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة يس ٤٨٠٣، ومسلم في الإيمان ١٥٩.

وقيل المراد بمستقرها: منتهى تنقلها في البروج شمالاً وجنوباً، فلها حد تنتهي إليه من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه، وعلى هذا فيكون المستقر زمانياً ومكانياً، فغاية سيرها في الشمال يكون به ابتداء فصل الصيف، وغاية سيرها في الجنوب ابتداء فصل الشتاء.

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى جريان الشمس، ﴿تَقْدِيرٌ﴾، أي: تدبير وتقنين.

﴿الْعَزِيزِ﴾ ذو العزة التامة: عزة القوة، والغلبة والقهر، والامتناع.

﴿الْعَلِيمِ﴾ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، فبعزته عز وجل التي لا تخالف ولا تمانع، وبعلمه الواسع الذي أحاط بكل شيء، أوجد هذه الشمس العظيمة، تجري في فلکها منذ خلقها الله بنظام بالغ تام، متقن دقيق، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ترتفع ولا تنخفض، وأوجد ما فيها من المصالح والمنافع للعباد مما لا يعد ولا يحصى، الدالة على عظمته عز وجل، وكمال قدرته وتمام نعمته؛ كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب: «وَالْقَمَرُ» بالرفع، عطفًا على الشمس، وقرأ الباقون: ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بالنصب على الاشتغال، أي: وقدرنا القمر منازل، أي: قدرنا سيره منازل، من أول الشهر إلى آخره، ينزل كل ليلة منزلة؛ لمعرفة الشهور والأعوام والحساب.

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَلْنَاهُ نَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة على حسب النجوم المعروفة عند العرب، ففي كل ليلة ينزل منزلة، ويبقى ليلة واحدة إن كان الشهر تسعًا وعشرين ليلة، أو ليلتان إن كان ثلاثين، وتسمى: ليالي السرار، أي: الاختفاء؛ لاختفاء القمر فيها، إما في آخر الشهر، أو في أول الذي يليه.

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، أي: رجع بعد أن استتم وصار بدرًا إلى الضعف شيئًا

فشيئاً، إلى أن صار ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، أي: مثل عذق النخل إذا يبس يتقوس ويصفر، ويبدو دقيقاً.

قال ابن كثير^(١): «وأما القمر فقدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً، وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم».

وبما أن نور القمر مستمد من الشمس؛ فإنه كلما ارتفع وبعد عن الشمس زادت المقابلة بينهما؛ لأن سيرهما كروي، فيزداد نوره حتى يكون بدرًا كاملاً، وذلك حين يكون في المشرق، وتكون الشمس في المغرب، ويتم التقابل بينهما. وكلما دنا وقرب من الشمس قلت المقابلة بينهما، وضعف نوره شيئاً فشيئاً، والجزء المنير منه هو الذي يلي الشمس؛ لهذا في أيام الشتاء عندما تكون الشمس خلفه تكون فتحة قوسه نحو المشرق، وفي أيام الصيف عندما تكون الشمس عنه شمالاً تكون فتحة قوسه نحو الجنوب.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠)

لما ذكر الله عز وجل أن الشمس تجري لمستقر لها بتقدير العزيز العليم، وأنه قدر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتى يعود كالعرجون القديم، بين أن هذا النظام في غاية الإحكام، لا يمكن أن يتصادم، أو يختل، أو يتفاوت، أو يضطرب.

قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ «لا»: نافية، و«أن» والفعل «تدرك» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لـ «ينبغي»، أي: لا الشمس ينبغي لها إدراك القمر، أي: لا يمكن لها إدراك القمر واللحاق به، والاجتماع معه في الليل؛ لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله عز وجل لها.

﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾، أي: ولا الليل يسبق النهار، بل لا يأتي الليل إلا بعد النهار، فالشمس لا يمكن أن تطلع في الليل فتدرك القمر، ولا الليل يأتي في زمن النهار،

فيسبقه في بعض أجزائه، أو يجل محله فيتوالى ليلتين.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، أي: وكل من الليل والنهار والشمس والقمر في ﴿فَلَكَ﴾ الفلك: الشيء المستدير، ﴿يَسْبَحُونَ﴾: يدورون، أي: كل منهما يسبح ويدور في فلكه على الدوام؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُم مَّنْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ [٤١] ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [٤٢] ﴿وَأَيُّهُم مَّنْ أَصْرَحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِدُونَ﴾ [٤٣] ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [٤٤]: قوله: ﴿وَأَيُّهُم مَّنْ﴾، أي: ودلالة لهم، أي: للناس أيضًا على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وسعة رحمته، ونعمته وفضله.

﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «ذُرِّيَّاتِهِمْ» بالجمع، وقرأ الباقون بالإنفراد: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

أي: حملنا ما بقي من ذرية نوح عليه السلام على وجه الأرض ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾، أي: في سفينة نوح التي أمره الله بصنعها؛ كما قال تعالى: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]. ﴿الْمَشْحُونِ﴾، أي: المملوء ممن أمره الله بحملهم فيها من كل زوجين اثنين؛ من الحيوانات والأمتعة، وأهله إلا امرأته، ومن آمن معه وهم قليل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا أحمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرُوبًا وَرَاحًا﴾ [الصافات: ٧٧]، أي: ذرية نوح عليه السلام.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ معطوف على «حملنا»، أي: وآية لهم أننا خلقنا لهم، أي: أوجدنا لهم بتعليمنا إياهم.

﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾، أي: من جنس فلك نوح وسفينته، أي: أوجدنا لهم من مثل الفلك المشحون الذي صنعه نوح سفناً يركبونها في البحر، صغاراً وكباراً على غرار سفينة نوح عليه السلام، حيث كانت أول سفينة صنعت.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَاطِقَاتُ الْمَاءِ حَمَلَتُكُمُ فِي الْغَابِرَةِ﴾ [١١] ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَاءً لِّذُنُوبِكُمْ﴾ [١٣] [الحاقة:

١٢؛ ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أندرون ما: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢)؟ قلنا: لا، قال: هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها» (١).

وقيل: المراد بقوله: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾: الإبل وغيرها من المراكب البرية والجوية.
 ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ هذا يقوي أن المراد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢): السفن، أي: وإن نشأ نغرقهم في البحر، وهم على ظهور هذه السفن.
 كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْخَوَارِجُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) **إِنْ شَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ** **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٣) أَوْ يُوقِعَهُنَّ يُمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٤) [الشورى: ٣٢-٣٤].
 ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«صريح»: «فعيل» بمعنى فاعل، أي: فلا صارخ لهم، ولا مستغيث، ولا مستنجد.**

﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾، أي: ولا هم يُخلصون من الغرق.
 ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ «إلا»: للاستثناء، بمعنى: «لكن»، أي: لكن رحمة منا لهم، ولطفًا بهم، لم نغرقهم في البحر.
 ﴿وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ «متاعًا»: معطوف على رحمة، أي: إلا رحمة منا بهم، وتمتعًا لهم **إِلَى حِينٍ﴾**، أي: إلى وقت انتهاء آجالهم.

الفوائد والأحكام:

١- التنبيه على عظمة الله تعالى ووحدانته في ربوبيته وإلهيته، وتمام قدرته على إحياء الموتى، وسعة علمه وحكمته ورحمته في إحياء الأرض بعد موتها، وإخراجه الحب منها، وجعله فيها بساتين من نخيل وأعناب، وتفجيره فيها العيون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٢) **وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٣٤).**

٢- أن من أفضل ما أخرج الله من الأرض وجعل فيها: الحبوب، والبساتين النخيل والأعناب؛ لأن الله خصها بالذكر.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩ / ٤٤٤.

٣- امتنان الله عز وجل على العباد بما أخرج لهم من الأرض من الحبوب، وما جعل فيها من بساتين النخيل والأعناب، وغير ذلك، وما فجر فيها من العيون؛ ليأكلوا من ثمار ذلك مما لم تعمله أيديهم، أو مما عملته بتعليم الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾.

٤- أهمية الحبوب وثمر النخيل والأعناب في حياة الإنسان، غذاء وفاكهة، وفضلها على سائر الثمار؛ لتخصيصها بالذكر.

٥- قدرة الله تعالى وتمام نعمته بتفجير عيون الماء من الأرض، الذي به حياة الإنسان والحيوان والنبات.

٦- عدم قدرة الخلق على صنع وإيجاد شيء مما به حياتهم، إلا ما علمهم الله وأقدرهم على صنعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾.

٧- وجوب شكر نعم الله تعالى، والإنكار على من كفرها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

٨- تنزيه الله عز وجل وتقديسه وتعظيمه، وإثبات وحدانيته، وتفردته في خلق الأزواج والأصناف والأنواع من نبات الأرض، ومن الناس، ومما لا يعلمه الخلق كلهم من مخلوقات شتى؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩- أنه ما من شيء من المخلوقات إلا منه زوجان؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٠- قصور علم البشر، وعدم علمهم بكثير من الأشياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِنْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

١١- التنبيه على آيات الله تعالى في الليل والنهار، وتعاقبها ضياءً وظلمةً، والشمس والقمر وجريانهما، وما في ذلك من الدلالة على عظمته عز وجل ووحدانيته، وتمام قدرته، وسعة علمه، وحكمته ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ إِلِيلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٩).

١٢- أن الأصل هو الظلام والليل، وأن النهار طارئ بنوره؛ لقوله تعالى: ﴿نَسَلَخْ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾.

١٣- إثبات جريان الشمس وعدم ثبوتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾.

١٤- أن للشمس مستقرًا مكانيًا، وهو تحت العرش؛ كما قال ﷺ؛ كما أن لها مستقرًا زمنيًا ينتهي إليه سيرها، وذلك يوم القيامة، تنتهي هذه الدنيا وجميع ما فيها من الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾.

وذلك حين تجمع مع القمر، وتكور ويذهب بنورها؛ كما أن لها غاية تنتهي إليها ارتفاعًا في الصيف، وانخفاضًا في الشتاء، فيكون لها على هذا مستقرها زمنيًا مكانيًا.

١٥- التنويه بعظمته عز وجل، وعظمة تقديره لجريان الشمس في نظام بالغ دقيق، وتماثل خلقه، وحسن تدبيره؛ لقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

١٦- إثبات اسمي الله: «العزیز»، و«العلیم»، وصفتي العزة التامة، والعلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

١٧- في اقتران اسميه عز وجل: «العزیز»، و«العلیم» كمال إلى كمال.

١٨- حكمة الله تعالى، وتماثل قدرته، وسعة علمه ورحمته، ومتمته في تقديره القمر منازل، كل ليلة ينزل فيها منزلة؛ يبدأ هلالًا ضئيلاً، ثم يزداد نوره وكماله حتى يكون بدرًا تامًا، ثم يأخذ في النقصان حتى يصير كالعرجون القديم، وما في ذلك من المصالح للعباد من معرفة الشهور والأعوام والحساب، وغير ذلك.

١٩- إثبات القياس، وهو: إلحاق شيء بشيء لعله؛ لقوله تعالى: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.

٢٠- أنه ليس بعد التمام إلا النقصان، وفي هذا عبرة لمن يعتبر؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وقد أحسن القائل:

إذا كنت تهوى العيش فاقنع توسطًا فعند التناهي يقصر المتناول

تُوقُّ البَدُورُ النَقْصَ وهي أهلةٌ ويدركها النقصان وهي كواملٌ (١)

قال الشافعي في الرجز (٢):

ما طار طير فارتفع إلا كما طار وقع

ويقولون في المثل: «ما زم هضم».

٢١- أن سنن الله تعالى الكونية لا تتبدل ولا تتغير، في الشمس والقمر، والليل والنهار، وغيرها، فلا الشمس يمكن أن تدرك القمر، فتخرج ليلاً، ولا القمر يسبق النهار، فيأتي قبله، أو قبل انتهاء زمنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾.

٢٢- تعاقب الشمس والقمر والليل والنهار، ودوران كل منهما في فلكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

٢٣- أن من آيات الله ودلائل عظمته وتمام قدرته، ورحمته ونعمته، حمل ما بقي من ذرية نوح عليه السلام، التي تناسل منها الناس بعد ذلك في سفينة نوح عليه السلام، وإنجاءهم من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١).

٢٤- أن من آيات الله تعالى ونعمه على العباد، إيجاد هذه السفن التي يركبها الناس على ظهر البحر، وتحملهم من مكان إلى مكان؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢).
وقيل: المراد السفن وغيرها من المراكب البرية والجوية.

٢٥- تهديدهم بأن الله عز وجل لو شاء لأغرقهم وهم على ظهور هذه المراكب في البحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنْ نَشَأُنُقِرِّقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ﴾ (٤٣).
ومفهوم هذا الامتنان عليهم بإنجائهم من الغرق.

٢٦- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي: الإرادة الكونية.

٢٧- أن ما شاءه الله وأراده كوناً نافذ لا محالة، فلا مستنجد لأحد منه، ولا منقذ؛

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «نهج البلاغة» ص ١٦٣.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٩٤. ونسب في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٦٢٩ لابن المبارك، ونصه:

ما طار شيء فارتفع إلا كما طار وقع

لقوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾.

٢٨- إثبات رحمة الله تعالى، ولطفه بالعباد في حملهم على هذه المراكب، وإنجائهم من الغرق، وتمتعهم في الحياة إلى حلول آجالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٢٩- أنه لن يموت أحد حتى يستوفي رزقه وأجله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٣٠- أنه لا خلود في هذه الدنيا، وكل من عليها فان؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولَاقَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالِیَوْمَ لَا نُظَلِّمُ نَفْسًا شَيْئًا وَلَا نُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: وإذا قيل للمشركين المكذبين المتهادين في غيهم وضلالهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ «ما»: موصولة في الموضعين، أي: اتقوا الذي بين أيديكم من عذاب الدنيا مما هو حاضر أو منتظر قريباً، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، أي: واتقوا الذي خلفكم، أي: الذي أمامكم من عذاب الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ وَرَأَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، أي: أمامه.

أو: اتقوا ما بين أيديكم من المعاصي؛ السابق منها أو اللاحق، وما خلفكم، أي: ما أمامكم من عذاب الآخرة.

أو: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم من المعاصي اللاحق منها والسابق.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لأجل أن يرحمكم الله، فيقيكم عذابه، وينيلكم ثوابه. فجمعت الآية بين الترهيب والترغيب.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما تأتي هؤلاء المكذبين للرسول، أي آية.

﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الشرعية والكونية، البينة الواضحة الدالة على عظمته تعالى، ووحدانيته، وصدق رسله.

﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما يقابلونها إلا بالإعراض والصدود، بقلوبهم وأبدانهم، فالإعراض عن الآيات الشرعية بالتكذيب بها فيها من الأخبار،

والاستكبار عن العمل بما فيها من الأحكام.

والإعراض عن الآيات الكونية: عدم التفكير فيها، والاتعاض بها، وتفسير ما يحدث منها، من كسوف، وزلازل، وبراكين، وأعاصير مدمرة، وغير ذلك، بأنها أمور طبيعية، مع نسيان الحكمة من ذلك، وأنها نذر يحذر عز وجل بها عباده، وعقوبات يتلهم بها؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقال ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله؛ لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك، فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم»^(١).
وكونهم يعرضون عن جميع الآيات دليل على أنهم لم يتقوا ما بين أيديهم وما خلفهم؛ كما أمروا بذلك.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا﴾، أي: أعطوا وابدلوا، ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، أي: من رزق الله، أو من الذي رزقكم الله، أي: من الذي أعطاكم الله من المال والخير على الفقراء والمحتاجين.
﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للتصريح بكفرهم، وأنه سبب قولهم هذه المقالة، أي: قالوا معارضين للحق، محتجين بالمشيئة والقدر، مما لا حجة لهم به:

﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ﴾ الاستفهام للإنكار، و«من»: موصولة، أي: أنطعم الذي لو يشاء الله أطعمه وأغناه من رزقه، أي: لو شاء الله أطعمهم فأطعمناهم، ولكن الله لم يشأ أن يطعمهم فلا نطعمهم.

أي: أن الله شاء ألا يطعم هؤلاء، وأن يكونوا فقراء، فنحن لا نطعمهم؛ لثلاث نخالف مشيئة الله.

ويحتمل أنهم أرادوا بقولهم: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ﴾: الاستهزاء بمن يأمرهم بذلك، أي: أنطعم قوماً لو شاء الله أطعمهم، فإطعمهم إلى الله، لا إلينا.
﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما أنتم - أيها المؤمنون - في

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٦١، ومسلم في الكسوف ٩١٥؛ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أمركم لنا بذلك ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: في ضلال وبعده عن الحق بين واضح.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول الكفار المكذبون بوعد الله والبعث والحساب، على وجه الاستعجال، والاستبعاد والإنكار: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الاستفهام: للاستهزاء والتهمك والاستبعاد والإنكار.

﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: في قولكم: إن هناك بعثاً وحساباً وجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَنْتَبِهَاتُ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا أَبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٥٠)، فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُنصِّرُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجملة: ٢٥؛ ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٩)، فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَفْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٠) [سبأ: ٣٠؛ ٢٩].

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الأولى في الصور، نفخة الفزع والموت عند قيام الساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

أي: ففرج كل من في السموات والأرض، وصعقوا وماتوا من شدة النفخة والصيحة إلا من شاء الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهي الراجفة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (٦) [النازعات: ٦].

﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ بشدة وسرعة، وتفاجئهم ولا تمهلهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ (١٠) [الحاقة: ١٠].

﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ قرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد: «يَخِصِّمُونَ»، وقرأ الباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد: «يَخِصِّمُونَ».

والواو حالية، أي: وهم يتخاصمون ويتشاجرون في أسواقهم وبيعهم وأكلهم وشربهم، لاهون غافلون في أمور دنياهم، يتخاصم بعضهم مع بعض.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ «توصية»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: فلا يستطيعون أي توصية مهما قلت، بأولادهم وأموالهم؛ لأنهم لا يستطيعون الكلام من شدة الفزع. وهذه الآية كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ [الأنبياء: ٣٨-٤٠].

﴿وَلَا إِلَىٰ آهْلِهِمْ رَّجِعُونَ﴾، أي: ولا يستطيعون الرجوع إلى أهلهم؛ ليشاهدوهم ويودعوهم؛ لأنهم لا يتجاوزون مكانهم. قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْوِمُ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾: قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ «نفخ» بالبناء للمجهول؛ لأن الإيهام أبلغ في التهويل والتعظيم.

والصور: «القرن»؛ كما قال ﷺ: «كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ؟!». قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا» (١). وصاحب القرن: هو إسرافيل عليه السلام، الذي وكل بالنفخ في الصور. والمراد: النفخة الثانية، الرادفة، نفخة البعث والنشور؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦-٧].

﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم من القبور. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ«ينسلون»، وقدم عليه لإفادة الحصر،

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٤٣؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن».

أي: إلى ربهم وحده، مع مراعاة الفواصل.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ «السلان»: المشي السريع، أي: فإذا هم من القبور يخرجون إلى ربهم مسرعين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].
وقال تعالى: ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَمِيزُ الْيَتِيمَ اللَّدَائِي لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُفْعَخُ فِي الضُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ ذَّاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

﴿قَالُوا يَنْوَلِنَا﴾، أي: يا هلاكنا، ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدَانَا﴾ الاستفهام: للتعجب، أي: من الذي بعثنا من قبورنا، وأخرجنا منها؟! لأنهم كانوا يعتقدون في الدنيا أنهم لا يبعثون من قبورهم.

وهذا لا ينافي عذاب القبر؛ لأن عذاب القبر بالنسبة لما بعده كالرقاد؛ لأن ما بعده أشد وأعظم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧].

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: فيجيبهم المؤمنون أو الملائكة توبيخاً لهم بقولهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾.

و«هذا»: إشارة إلى بعثهم من قبورهم، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: هذا الذي وعد به الرحمن، أو هذا وعد الرحمن، بأن هناك بعثاً وحساباً وجزاءً على الأعمال. ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: أخبروا بالصدق فيما أخبروا به عن البعث والحساب والجزاء على الأعمال وغير ذلك، وفيما جاؤوا به من الشرع؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ويحتمل أن قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ من قول الكفار أنفسهم، اعترافاً منهم ذلك اليوم بصدق وعد الله وصدق الرسل حين لا ينفعهم ذلك. والأول أظهر، وهو كقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿قَالُوا يَنْوَلِنَا هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ [الصافات: ٢٠]، وقال الذين هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ ﴿[الآيتان: ٢٠؛ ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

أَوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ [الروم: ٥٦].

وفي ذكر «الرحمن» إشارة إلى أنه يحصل من رحمته عز وجل في ذلك اليوم ما لا تحيط به الظنون، ولا يصفه الواصفون؛ كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَ يَمِيزُ الْبَعِيثَ وَاللَّحِقُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨].

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾؛ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما كانت النفخة في الصور، أو البعثة من القبور، إلا صيحة واحدة، ينفخ إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم جميع، أي: الأولون والآخرين، الإنس والجن ﴿لَدَيْنَا﴾، أي: عندنا ﴿مُحْضَرُونَ﴾، أي: مائلون للحساب.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣؛ ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الفاء: عاطفة، و«نفس» و«شيئاً» كل منهما نكرة في سياق النفي فعم، أي: في يوم القيامة لا تظلم أي نفس أي شيء من الظلم، لا قليلاً ولا كثيراً، فلا ينقص من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، أي: فلا يخاف ظلماً بزيادة السيئات، أو هضماً بنقص الحسنات.

وقال تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال ابن القيم: «فنفى أن يظلم بأن يزداد عليه في سيئاته، أو ينقص من حسناته، أو يعاقب بعمل غيره، ولم ينف أن ينتفع بعمل غيره»^(١).

﴿وَلَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية أو

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤٧٩.

موصولة، أي: ولا تجزون إلا عملكم، أو إلا الذي كنتم تعملونه، قولاً أو فعلاً أو تركاً، من عمل القلب واللسان والجوارح.

والمجازاة: المكافأة، وفي قوله: ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، أي: ولا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون، من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

الفوائد والأحكام:

١- تمادي الكفار والمكذبين في غيهم وضلالهم، وعدم تقواهم ما بين أيديهم من عذاب الدنيا، وما أمامهم من عذاب الآخرة، وزهدهم في رحمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٥)، أي: لم يستجيبوا، بدليل قوله بعده: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤٦).

٢- أن الإقبال على الله، وتقواه والحذر من عذابه، سبب لرحمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لعل الله يرحمكم، ففي هذا إثبات رحمته.

٣- إثبات العلل والأسباب، وأن لها تأثيراً في المعلولات والمسببات بإذن الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٤- إعراضهم عن جميع الآيات بقلوبهم، وتوليهم بأبدانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤٦).

٥- إثبات الربوبية العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٦- معارضتهم - بسب كفرهم - أمر الله لهم بالإنفاق مما رزقهم الله، بالاحتجاج بالمشيئة والقدر، مما لا حجة لهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

٧- بخل الكفار الشديد، وشحهم في الإنفاق من رزق الله.

٨- أن الرزق كله من الله، فلا ينبغي أن يُمنَّ بالإنفاق منه.

٩- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأن المشركين يقرون بها ولا ينكرونها.

١٠- أنه قد يقول قائل كلمة الحق، ويريد بها الباطل، فقولهم: ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَهُ﴾ هذا حق، وهم ما أرادوا إثبات هذا الحق، وإنما أرادوا الاحتجاج بالمشيئة لترك إطعامهم والإنفاق عليهم.

١١- تجهيل المشركين للمؤمنين الذين يأمرونهم بالإنفاق من رزق الله؛ لقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، أي: ما أنتم إلا في ضلال بين واضح.

١٢- جرأة أهل الباطل على وصف أهل الحق بأبشع الأوصاف؛ للتنفير منهم ومن الحق.

١٣- أن الإنسان عدو لما يجهله، وهذا ما جعل هؤلاء يرمون من يأمرهم بالخير بالضلال المبين.

١٤- استعجالهم ما تُوعدوا به؛ تكديبًا به واستبعادًا له، وتكديبًا للرسول واستهزاء بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨).

١٥- أن الرسل عليهم السلام قد بلغوا البلاغ المبين، وبيّنوا ثبوت وعد الله بالبعث والجزاء على الأعمال بشهادة هؤلاء المكذبين، والحق ما شهدت به الأعداء.

١٦- تهديدهم بقرب ما تُوعدوا به من العذاب، وأنهم ما ينتظرون إلا صيحة الفرع تأخذهم وهم في غفلة يختصمون في أمور دنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩).

١٧- قدرة الله تعالى التامة؛ حيث يأخذهم كلهم بصيحة واحدة، لا ثانية معها.

١٨- أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأهل النزاع والخلاف والاختصاص؛ لقوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

وكما في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يبعث الله رجلاً كريح المسك، مسها مس الحرير، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، عليهم تقوم الساعة» (١).

١٩- سرعة أخذ الصيحة لهم، وشدة صدمتها عليهم، فيعجم على ألسنتهم فلا

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٩٢٤.

يستطيعون الكلام، ولا يستطيعون التحرك من أماكنهم ليوصوا أو ليرجعوا إلى أهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٥٠﴾.

٢٠- إثبات النفخة الثانية في الصور، وبعث الناس وقيامهم من قبورهم مسرعين للوقوف بين يدي الله تعالى للحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾.

٢١- ما أيسر أمر البعث على الله تعالى؛ فإنه بالنفخ في الصور نفخة واحدة يخرج الناس من قبورهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿٥٠﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنْ أَلَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٨﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿١١﴾ [العنكبوت: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ ﴿٤٤﴾ [ق: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٧﴾ [التغابن: ٧].

٢٢- دعاء الكفار والمكذبين بالويل، وشدة تحسرهم، وتعجبهم من بعثهم من قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾.

٢٣- أن البقاء في القبور ما هو إلا كما ينام النائم ثم يستيقظ، وأن عذاب القبر بالنسبة لما بعده كالرقاد؛ لأن عذاب الآخرة أشد وأعظم.

٢٤- إقرارهم واعترافهم في ذلك اليوم بتحقيق وعد الله، وصدق الرسل فيما أخبروا به، وبلغوا عن الله تعالى؛ لقولهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ولكن لا ينفعهم ذلك؛ لفوات أوانه.

٢٥- توبيخ المؤمنين أو الملائكة لهؤلاء المكذبين؛ لقولهم لهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا على الاحتمال الثاني في معنى الآية.

٢٦- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، وفي ذكر اسم الرحمن في هذا السياق إشارة إلى سعة رحمة الله عز وجل في ذلك اليوم العظيم.

٢٧- إثبات صدق وعده، وصدق رسله؛ لقولهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

٢٨- أن النفخة الثانية في الصور، والبعثة من القبور، ما هي إلا صيحة واحدة،

فإذا جميع الخلائق أولهم وآخرهم، وإنسهم وجنهم، لدى ربهم مائلون للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ وذلك لكمال قدرته عز وجل.

٢٩- كمال عدل الله عز وجل في حساب الخلائق يوم القيامة، فلا تظلم نفس أيًّا كانت أي شيء من الظلم، لا بنقص من الحسنات، ولا بزيادة في السيئات، ولا يجزي أحد إلا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٤﴾.

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن جُوزي بالإحسان، ومن أساء جُوزي بمثل ما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ﴿٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَاءُ وَفَاءًا﴾ ﴿٦١﴾ [النبأ: ٢٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَدُوا اليَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِنَبِيِّءِمْ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنِ اعْبُدُوا فِي هَذَا صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا اليَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُصِيرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَائَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ يَعْصِرْ يُعَصِّرْهُ وَمَنْ يُغْلِقْ يُغْلِقْهُ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيُحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾:

لما ذكر أن كل أحد لا يجزى إلا بعمله، ذكر جزاء الفريقين، وبدأ بجزاء المؤمنين تكريماً لهم وتشريفاً.

قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: «شُغْلٍ»؛ بإسكان الغين، وقرأ الباقون بضمها: «شُغْلٍ».

وقرأ أبو جعفر: «فَكَّهُونَ»؛ بدون ألف، وقرأ الباقون بالألف: «فَكَّهُونَ».

أي: إن أصحاب الجنة، أي: أهلها وملازموها ﴿اليَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، ف«ال» للعهد الذكري؛ لأنه سبق ذكره قريباً في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَنْظُمُونَ نَفْسَ شَيْئًا﴾ [يس: ٥٤].

﴿فِي شُغْلٍ﴾، أي: في شغل بما هم فيه من النعيم والتلذذ بالنساء والخور العين، وأصناف المأكول والمشرب، وغير ذلك، عن كل شيء آخر، لأنهم في أوج النعيم وأعلاه، فلا يلتفتون إلى غيره؛ كما قال تعالى: ﴿خَلْدِينَ فِيهَا لَا يَتَعَوَّنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

﴿فَكَّهُونَ﴾ أي: متفكهون متلذذون ناعمون.

﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ظَلِّلٍ»؛ بضم الظاء من غير ألف، جمع: «ظَلَّة»، وقرأ الباقون بكسر الظاء وألف: «ظَلِّلٍ» جمع: «ظَلٌّ»، وجمع «ظلة»، فهم في ظلال دائم؛ لأنه ليس في الجنة شمس ولا زهمير؛ كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

﴿عَلَى الْأَرْيَافِ مُتَّكُونَ﴾ ﴿عَلَى الْأَرْيَافِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿مُتَّكُونَ﴾، وقدم عليه مراعاة للفاصلة.

و«أرائك» جمع: «أريكة»، وهي الأسرة المزينة تحت الحجال التي تنصب على الأسرة أشبه بالخيمة الصغيرة، تكون خاصة بالرجل وأهله، أو بالرجل، أو بالمرأة. والالتكاء يدل على كمال الراحة والطمأنينة والاستقرار، وراحة البال، وتمام اللذة.

﴿لَهُمْ﴾، أي: لأصحاب الجنة، ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿فَنَكِهَتْهُ﴾ اسم جنس، أي: لهم في الجنة جميع أنواع الفواكه، من عنب وتين ونخل ورمان؛ لأن جميع أكل أهل الجنة يأكلونه على سبيل التفكه والتلذذ، لا على سبيل الحاجة والضرورة؛ بخلاف أهل الدنيا فقد يأكلون تلذذاً، وقد يأكلون للحاجة، أو للضرورة.

﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾، أي: ولهم كل الذي يطلبونه، فمهما طلبوه وجدوه من أصناف النعيم، وكل ما اشتوهه حصل لهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة: نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، في مقام أبداً، في حبرة ونضرة، في دور سليمة عالية بهية». قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله. قال: «قولوا: إن شاء الله». ثم ذكر الجهاد، وحض عليه (١).

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ «سلام»: مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ أو هو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سلام؛ يعني: الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]. و«قولاً»: مفعول مطلق لفعل محذوف، وفيه تأكيد سلام الله تعالى لأهل الجنة

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية ١٨٤.

بقول وكلام، فلهم في الجنة كل ما يدعون؛ لأنها دار السلام، ومن أجل ذلك سلام الله تعالى عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة. قال: وذلك قول الله: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ قال: فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم» (١).

قوله تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥١) ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِيءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦) ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٦) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١٢).

لما ذكر ما أعد لأهل الجنة من النعيم الحسي والمعنوي، أتبعه بذكر ما أعد للمجرمين من العذاب في نار جهنم، جمعاً بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥١)، أي: يقال للمجرمين يوم القيامة؛ للإهانة والإذلال والطردهم على رؤوس الأشهاد قبل إدخالهم النار:

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥١)، أي: تميزوا وانفصلوا اليوم أيها المجرمون المذنبون عن المؤمنين، وانفردوا عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِدُ بِنَفَرٍ قُوتٍ﴾ (١٤) [الروم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿نَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (٢٣) [الصافات: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ (٨٥) ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا﴾ (٨٦) [مريم: ٨٥-٨٦].

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِيءَ آدَمَ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتفريع، أي: ألم أمركم وأخذ عليكم الميثاق المؤكد على السنة رسلي، وفيما أنزلت عليكم من كتبي؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية ١٨٤.

والمراد ببني آدم: الجنس والقبيلة، فيشمل الذكور والإناث.
﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ «أن» تفسيرية، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بياء مقدره، أي: بألا تعبدوا الشيطان، أي: بألا تطيعوا الشيطان؛ لأن طاعته نوع من العبادة؛ لما فيها من الخضوع والتذلل له، مما ينبغي ألا يكون إلا لله تعالى.
كما روي في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، في قوله: ﴿أَتَّكِدُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال عدي: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم. قال ﷺ: «أليس يجرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونونه؟» قال: نعم، قال: «فتلك عبادتهم»^(١).

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ الجملة تعليل للنهي عن عبادته، أي: لأن الشيطان لكم عدو بين العداوة ظاهرها، لا يأمركم إلا بشر، ولا ينهاكم إلا عن خير.
﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾، أي: وعهدت إليكم بأن اعبدوني وحدي، أو بعبادتي وحدي.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى ترك عبادة الشيطان، وعبادة الله تعالى وحده.
أي: هذا طريق مستقيم، عدل قويم، موصل إلى الله تعالى وإلى جنته، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ قرأ ابن كثير وحمة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بضم الجيم والباء: «جِبِلًّا»، وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم، وإسكان الباء: «جِبِلًّا»، وقرأ الباقر بكسر الجيم والباء، وتشديد اللام: ﴿جِبِلًّا﴾.

والواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ عاطفة، واللام: لام القسم، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد أضل الشيطان منكم ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، أي: خلقًا كثيرًا، أي: أكثر الخلق. و«الجبل»: الجمع العظيم، مشتق من الجبل، أي: ولقد أضل منكم خلقًا كثيرًا، أي: صرفهم عن الصراط المستقيم، وقادهم إلى الضلال، فلم يحفظوا عهد الله وميثاقه إليهم بألا يعبدوا الشيطان، وأن يعبدوه عز وجل وحده، وصدق فيهم ظنه حين قال: ﴿ثُمَّ

(١) سبق تحريجه.

لَا تَنْهَهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: ١٧]، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]. ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: أين عقولكم؟ كيف تعبدون عدوكم المبين الشيطان، وتعبدون عن عبادة ربكم الرحمن؟ أي: أفما كان لكم عقول تهتدون بها إلى معرفة الحق، والتمييز بينه وبين الباطل؟! وصدق الله العظيم: ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقد أحسن القائل:

وأفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا (١)
قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٣﴾ أَصْلُهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾:

قوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٣﴾، أي: يقال للذين عبدوا الشيطان وأضلهم، وتركوا عبادة الرحمن، تقريعاً لهم وتوبيخاً، وتعذيباً لقلوبهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٣﴾، أي: هذه نار جهنم التي كنتم في الدنيا توعدون بها، وتحذرون منها على السنة الرسل، وكذبتم بها؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ [الطور: ١٣-١٥].

﴿أَصْلُهَا الْيَوْمَ﴾، «ال» للعهد الذكري أو الحضورى.
﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: يقال لهم إهانة وإذلالاً لهم: ﴿أَصْلُهَا﴾، أي: ادخلوها وقاسوا حرها ﴿الْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، بسبب كفركم وجحودكم.
﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: نلجمها ونغلقها ونسدها، بأن نجعلهم خرساً لا

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ١١٣/٢.

ينطقون ولا يتكلمون، فلا يقدرّون على إنكار ما هم عليه من الكفر والباطل، والدفاع عن أنفسهم.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ﴾ [النور: ٢٤]؛ لأنهم في بعض المواقف يحال بينهم وبين الكلام، ويختم على أفواههم، وفي بعض المواقف يخلى بينهم وبين الكلام.

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: وتنطق أيديهم وتخبر بما بطشت، وبما عملت.

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾، أي: وتشهد عليهم أرجلهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: بالذي كانوا يكسبونه، أو: بكسبهم، وبما مشت إليه من المعاصي والآثام، والموبقات والإجرام.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون [النور: ٢٠-٢١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدرون مما أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب، ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجزى علي إلا شاهداً من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتين شهوداً. فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنتطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكنّ وسحقاً، فعنكنّ كنت أناضل» (١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «فيقول: يا رب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت، ويشني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهداً عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنتطق فخذ لحمه وعظامه

(١) سبق تحريجه.

بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه»^(١).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه: فخذ من الرجل الشمال»^(٢).

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾، أي: أعميناهم وطمسنا على أعينهم وأبصارهم وأزلناها، فانسد أمامهم طريق الدلالة، واللام واقعة في جواب «لو» في الموضعين.

﴿فَأَسْتَبْقُوا الصِّرَاطَ﴾، أي: فابتدروا وتسبقوا إلى الطريق؛ ليصلوا إلى مقصودهم.

﴿فَأَنزِلُ يُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: فكيف يبصرون الطريق، وقد طمسنا أعينهم وأزلنا أبصارهم؟ أي: أنهم لا يمكن أن يبصروا.

والمقصود: أن الله طمس على بصائرهم وقلوبهم، فلا تهتدي إلى الحق، ولو يشاء لطمس على أعينهم طمساً حسياً مشاهداً؛ فكما أن من طمست عيناه لا يبصر الطريق، فكذلك من طمست بصيرته لا يهتدي إلى الحق.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، أي: لأبقيناهم على مكانتهم، وأذهبنا حركتهم، فانسد أمامهم طريق السير.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا﴾، أي: فما استطاعوا أن يسيروا قدماً إلى الأمام.

﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الوراء؛ لعدم استطاعتهم ذلك، وذلك لسيرهم في الحياة عكس الاتجاه الصحيح وضده.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(١٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ^(١٩) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ^(٢٠).

قوله: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾، قرأ عاصم وحمة بضم النون الأولى وفتح الثانية، وكسر الكاف وتشديدها: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾، وقرأ الباقون بفتح النون الأولى وإسكان الثانية وضم الكاف مخففة: «نُنَكِّسْهُ».

أي: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾، أي: نجعل عمره طويلاً، ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ التنكيس

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق ٢٩٦٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤ / ١٥١، قال ابن كثير في «تفسيره» ٦ / ٥٧٣: «وقد جود إسناده الإمام أحمد رحمه الله».

والإنكاس: الرد من حالة كاملة إلى حالة ناقصة، أي: نرده ونعيده في الخلق إلى الحالة التي ابتداءً منها، وهي حالة الضعف، ضعف القوة البدنية، وضعف القوة العقلية والفكرية؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ

جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ [الروم: ٥٤]

وقال تعالى: ﴿رَوْمِكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠].

فكلما طال عمر الإنسان فإنه يرجع إلى الوراء، فيرد إلى الضعف بعد القوة، وإلى العجز بعد القدرة، ويزداد ضعفه وعجزه، حتى يُرد إلى الحلق الأول، وإلى أَرذَلِ الْعُمُرِ. ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بأدكار الموت والمهرم

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر وأبو جعفر بالخطاب: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ»، وقرأ الباقون بالغيبة: «أَفَلَا يَعْقِلُونَ».

والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أفلا يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم من ضعف، وانتهاهم إلى ضعف، وأنهم لا يزدادون مع طول العمر إلا ضعفاً وعجزاً، فيستدلون بذلك على حقارة الدنيا وزواها وفنائها، وعلى إثبات البعث والدار الآخرة، وعظم مكانتها وبقائها وقربها، فيستعدوا لها بمبادرة الأعمار بالإيمان والأعمال الصالحة؟

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾، أي: وما علمنا محمداً ﷺ الشعر.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، أي: ولا يصلح له، ولا يليق به، لا طبعاً ولا شرعاً، ولا يصح ولا يمكن أن يُعلم أو يتعلم الشعر، لا إنشاء ولا إنشاداً.

وفي هذا رد على الذين يزعمون أنه ﷺ شاعر، وأن ما جاء به شعر؛ كما قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]، وقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ «إن»: نافية بمعنى: ما، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما الذي

علمناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾، أي: تذكير بالله تعالى وموعظة وشرف لمن اتبعه؛ كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

و﴿مُبِينٌ﴾، أي: بين واضح جلي ظاهر لمن تأمله وتدبره أنه ليس بشعر، ولا بقول شاعر، ومبين مظهر للهدى من الضلال، وللحق من الباطل، وللحلال والحرام، وجميع الأحكام، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. فهو عز وجل علم رسوله ﷺ القرآن، ولم يعلمه الشعر، وما يليق به الشعر. ولا ينافي هذا أنه قد يتمثل أو يرتجز شطر بيت من الشعر، أو بعض الآيات، أو يستمع شيئاً منه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر^(١) تمثّل فيه بيت طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود»^(٢)

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق وهو يرتجز بـرجز عبد الله:

والله لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينتنا علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا

(١) أي: استبطأه.

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب، ما جاء في إنشاد الشعر ٢٨٤٨، وأحمد ٦ / ٣١، ١٤٦، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

ورواه أبو بكر البزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦ / ٥٧٦. وصدر الشطر المذكور:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

وهو من معلقة طرفة المشهورة، انظر: «ديوان طرفة بن العبد» ص ٦٦.

وإن أرادوا فتننةً أبينا

وكان يرفع صوته بقوله: «أبينا»^(١).

وكان يقول يوم حنين:

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب^(٢)

وعن جندب بن سفيان؛ أن رسول الله ﷺ كان في بعض المشاهد وقد دميت إصبغه، فقال:

هل أنت إلا إصبع دميت

وفي سبيل الله ما لقيت^(٣)

وعن الشريد بن سويد رضي الله عنه، قال: «ردفت رسول الله ﷺ يوماً، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم. قال: «هيه»، فأنشده بيتاً، فقال: «هيه»، ثم أنشده بيتاً، فقال: «هيه»، حتى أنشده مئة بيت^(٤).

وتمثله ﷺ بشيء مما ذكر، أو وقوع ذلك منه اتفاقاً من غير قصد لوزن الشعر، أو استماعه لشيء منه، لا ينافي كما تقدم كونه ما علّم الشعر، وما ينبغي له؛ ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «كان أبغض الحديث إليه - تعني: الشعر - وكان يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك»^(٥).

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، حفر الخندق ٣٠٣٤، ومسلم في الجهاد، غزوة الأحزاب ١٨٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: من قاد دابة غيره في الحرب ٢٨٦٤، ومسلم في الجهاد، غزوة حنين ١٧٧٦، والترمذي في الجهاد ١٦٨٨؛ من حديث البراء رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، من نكب في سبيل الله ٢٨٠٢، ومسلم في الجهاد، ما نال رسول الله ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٧٩٦، والترمذي في التفسير ٣٣٤٥.

(٤) أخرجه مسلم في الشعر ٢٢٥٥، وابن ماجه في الأدب، باب: الشعر ٣٧٥٨، وأحمد ٤ / ٣٨٨ / ٣٨٩، ٣٩٠.

(٥) أخرجه أحمد ٦ / ١٤٨.

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: «لِتُنذِرَ»؛ بناء الخطاب، فالضمير يعود إلى الرسول ﷺ، وقرأ الباقون: ﴿لِيُنذِرَ﴾ بياء الغيبة، فالضمير يعود إلى القرآن.

اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر هذا الذكر والقرآن، أو تنذر بهذا الذكر والقرآن من كان حي القلب والبصيرة، وهو الذي يتذكر ويتعظ بالقرآن ويتنفع به. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وهو إنذار لجميع الأحياء، أي: لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تُنذِرُكُمْ بِهِ، وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْرَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

لكن لا ينتفع بإنذاره إلا من أحيا الله قلبه وبصيرته، وهم المؤمنون على تفاوت بينهم في ذلك؛ لهذا خص بالإنذار من كان حيًّا، وتوعد بالعذاب الكافرين، فقال: ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: ويحق القول على الكافرين بكفرهم وعدم إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣].

ويحق القول عليهم بالعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكية، ولا قابلة للخير البتة، فيحق عليه القول بالعذاب، وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه». وفي قوله: ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ دون أن يقول: ويحق القول على من كان ميتًا؛ لبيان أن من كان ميت القلب فهو كافر، وأن الكافر لا ينتفع بالقرآن.

الفوائد والأحكام:

١- انقسام الناس يوم القيامة إلى فريقين: أصحاب الجنة وهم المؤمنون، وأصحاب النار وهم المجرمون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَأَمْتَدُوا أَيَّامًا الْمَجْرُمُونَ﴾ [٥٩] كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

٢- كمال نعيم أهل الجنة، وتام تفكهم وتلذذهم فيها وتنعمهم، وانشغالهم بذلك يوم القيامة عن كل ما سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ ﴿٥٥﴾.

٣- أن لأهل الجنة زوجات؛ لقوله تعالى: ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ ﴿٤٨﴾ كَأَنْتَنَ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ [الصفات: ٤٨ - ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ أَرْأَبٌ﴾ ﴿٥٢﴾ [ص: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ ﴿٥٦﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ ﴿٧٠﴾ [الرحمن: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧].

٤- أن الجنة ظلال لا شمس فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾.

٥- كمال راحة أهل الجنة، وطمانيتهم، وراحة بالهم، وتام لذتهم في مجالسهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَكُونُونَ﴾.

٦- أن لأهل الجنة فيها كل أنواع الفاكهة، والتفكه والتلذذ بكل ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾.

٧- أن لهم فيها كل ما يطلبونه، وكل ما يشتهونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾.

٨- أن من أعظم نعيم أهل الجنة: سلام الله عليهم، وإخباره إياهم بالسلامة؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾.

٩- إثبات القول والكلام لله عز وجل، وأنه سبحانه يقول ويتكلم بحرف وصوت مسموع كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه، ورحمته الخاصة بهم؛ وأن أهل الجنة إنما دخلوها ونالوا هذه المنزلة برحمته؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾.

وقد قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(١).

١١- إهانة المجرمين وإذلالهم يوم القيامة بطردهم وإفرادهم وإبعادهم عن

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المؤمنين؛ كما يبعد البعير الأجر ب سبب إجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ ﴿٥١﴾.

١٢- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، بذكر أهل الجنة، وما أعد لهم من النعيم، وذكر المجرمين، وما أعد لهم من العذاب الأليم.

١٣- الممايزة والتفريق بين المؤمنين والمجرمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [الروم: ١٤].

١٤- تقرير عهد الله عز وجل إلى بني آدم ألا يعبدوا الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ لَكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾.

١٥- تقرير المجرمين وتوبيخهم على نقضهم عهد الله وميثاقه، وعدم وفائهم بما عهد الله به إلى بني آدم؛ من عدم عبادة الشيطان، وعبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَعْهَدْ لَكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي ﴿١٦﴾.

١٦- أن الله تعالى قد أقام الحجة على الخلق، وأعذر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ لَكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ الآية.

١٧- أن من أطاع الشيطان فيما يأمر به من معصية الله تعالى فقد عبده؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾.

١٨- عداوة الشيطان لبني آدم؛ عداوة بينة ظاهرة؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

١٩- وجوب عبادة الله تعالى وحده؛ لأن الله قد أخذ الميثاق على بني آدم أن

يعبدوه وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾.

٢٠- أن الوفاء بعهد الله بعدم عبادة الشيطان، وعبادة الله تعالى وحده هو الصراط

المستقيم، والطريق القويم، الموصل إلى السعادة، وإلى مرضاة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

٢١- تقرير وتوبيخ بني آدم: كيف أضل الشيطان كثيراً منهم، كأنهم لا يعقلون؟!

لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾.

٢٢- التحذير من طاعة الشيطان، وأن من انخدع للشيطان فاتبعه وأضله؛ فهو

غير عاقل.

٢٣- تهديد ووعيد الذين عبدوا الشيطان، وتركوا عبادة الله، وكذبوا وعده، وتبكيتهم، وتقريعهم وإهانتهم وإذلالهم بأمرهم بدخول جهنم واصطلائها يوم القيامة بكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١٣) أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ .

٢٤- إثبات نار جهنم، وأنها معدة للمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ .
 ٢٥- إثبات الأسباب، وأن سبب دخول المذكورين جهنم، واصطلائهم بحرها: كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ جزاء وفاقاً.
 ٢٦- ختم الله تعالى على أفواههم ذلك اليوم، فلا تستطيع ألسنتهم أن تتكلم وتدافع عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ .

٢٧- تكلم أيديهم بما عملت وبطشت، وشهادة أرجلهم بما مشت وبما كانوا يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .
 وهذا لا ينافي شهادة ألسنتهم عليهم في بعض المواضع؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٤) [النور: ٢٤].

لأنهم في بعض المواضع يختم على ألسنتهم، ويحال بينهم وبين الكلام، وفي بعضها يخلى بينهم وبين الكلام.

٢٨- قدرة الله تعالى على الختم على الأفواه والألسنة، وإنطاق الجوارح، من الأيدي والأرجل والجلود وغيرها، وإشهادها على العباد بأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٠) وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

٢٩- يجب على العبد التحرز من الإخلال بالعبادات، ومن ارتكاب المعاصي؛ لأن جوارحه ستشهد له أو عليه بما عمل.

٣٠- تهديدهم بالطمس على أعينهم، وأنه عز وجل لو شاء لطمس على أعينهم، فابتدروا الطريق فلا يبصرونه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ

فَأَنزِلُ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ .

٣١- أن من طمس الله بصيرته لا يستطيع الاهتداء إلى الحق؛ كمن طمس على عينيه وأزيل بصره، لا يستطيع معرفة الطريق.

٣٢- تهديدهم بأنه عز وجل لو شاء لمسخهم على مكانتهم، وأفقدهم حركتهم، فلا يستطيعون المضي قدماً، ولا الرجوع إلى الوراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ .

٣٣- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وإثبات تمام قدرته.

٣٤- أن الإنسان لا يزداد مع طول العمر إلا ضعفاً وعجزاً، ورجوعاً إلى بدء الخلق، ورداً إلى أرذل العمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ .

٣٥- الإنكار والتفكير بمن لم يتفكر بذلك، ويستدل به على حقارة الدنيا وفنائها، وعلى إثبات الآخرة، وعظم مكانتها، وبقائها، وقربها، ووجوب الاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ .

٣٦- ينبغي مبادرة الأعمار بالأعمال الصالحة، واغتنام فرص العمر وشبابه وقوته قبل فواتها.

٣٧- أن الله عز وجل ما علم نبيه الشعر، وما كان لائقاً به ﷺ لا طبعاً، ولا شرعاً، لا إنشاءً له، ولا إنشاداً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ .

وفي هذا رد وتكذيب لزعم المشركين أنه ﷺ شاعر، وأن ما جاء به شعر.

٣٨- أن الذي علمه الله عز وجل لنبيه ﷺ وأوحاه إليه: ما هو إلا ذكر وقرآن بين واضح، مبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس بشعر، ولا بقول شاعر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ .

٣٩- أن الحكمة من بعثته ﷺ، وإنزال الذكر والقرآن عليه؛ لأجل إنذار وتحذير من كان قلبه حياً، يتذكر ويعتبر ويتعظ، ولتقوم به الحجة على الكافرين موتى القلوب، ويحق القول عليهم بالكفر والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ

الْكٰفِرِيْنَ ﴿٧٠﴾ ❁.

٤٠- أنه لا يتففع بالإنذار إلا أحياء القلوب؛ لهذا خصهم بذلك، وهم المؤمنون، دون الكافرين، وإلا فإن القرآن إنذار لجميع الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿ هٰذَا بَلٰغٌ لِّلنَّاسِ وَاَلَيْسَ بَلٰغٌ لِّلنَّاسِ اِلَّا الَّذِيْ نُرِيْهِمْ اٰيٰتِنَا فَتَوَسَّعُوْا فِيْ الْاَرْضِ ثُمَّ رَدِّدْهُمْ اِلَيْهِمْ اِلَّا رِجَالًا مَّوَدُوْنَ لِمَنْ كٰفَرُوْا فَاُولٰٓئِكَ سَوْفَ يُعٰذِبُ اللّٰهُ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْمَكْرُحِيْنَ ﴿٥٢﴾]إبراهيم: [٥٢].

٤١- إثبات القدر، وأن من كتب الله عليهم الضلال والعذاب، فلا سبيل إلى هدايتهم، ولا نجاه لهم من العذاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنشَرْتُمْنَهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلِيمٌ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَيُولِيهِ تُرْجُومًا ﴿٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

قوله: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ الاستفهام: للتقرير والتوبيخ، أي: أولم ينظروا ويتأملوا ويتفكروا أنا خلقنا وأوجدنا لأجلهم.

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾، أي: من الذي عملته أيدينا، أي: من الذي عملنا أنعامًا من الإبل والبقر والغنم، وغير ذلك من بهيمة الأنعام.

﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ملكًا خاصًا، خلقناها لهم، وملكانهم إياها، يتصرفون فيها كما شاؤوا في حدود الشرع.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾، أي: سخرناها لهم، وجعلناها ذليلة منقادة لهم، يقودونها ويصرفونها حيث شاؤوا، ولا تمتنع عليهم، ترى الطفل الصغير ينيخ البعير الكبير، ويقيمه، ويسوقه، ويسير بسيره أكثر من مئة بعير، وذلك بتسخير العليم الخبير.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾، أي: فمن هذه الأنعام ما يركبونه في أسفارهم، ويحملون عليه الأثقال في تنقلهم بين البلدان والأقطار، وهي: الإبل، و«ركوب»: فاعول بمعنى «مفعول»، أي: مركوب.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، أي: ومن هذه الأنعام يأكلون اللحم، من الإبل والبقر والغنم. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها، والسقي والحرث عليها، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ

إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ [النحل: ٨٠].

﴿وَمَشَارِبٌ﴾ جمع «مشرب»، أي: شرب، أي: ولهم فيها مشارب مختلفة متنوعة، فيشربون من ألبان الإبل، ومن ألبان البقر، ومن ألبان الغنم.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ.

أي: أفلا يشكرون الله تعالى على خلق هذه الأنعام وتذليلها وتسخيرها لهم، بأن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به غيره؟

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْصِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾:

قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾، أي: واتخذ المشركون غير الله آلهة يعبدونهم معه. ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: لعلهم ينصرون بهم، أي: لأجل أن ينصروهم، ويشفعوا لهم. وهذا إنكار من الله تعالى عليهم؛ ولهذا قال:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، أي: لا يستطيع هؤلاء الآلهة نصر عابديهم، ولا يقدر على ذلك، بل هم أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر؛ لأنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟! كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ الواو: عاطفة، والضمير «هم» يعود على العابدين، والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الآلهة، أي: وهؤلاء العابدون لآلهتهم ﴿جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾، أي: حاضرون ينتصرون لهم، ويدافعون عنهم.

فالمعنى: أن هذه الآلهة التي يعبدونها لأجل أن تنصرهم وتشفع لهم لا تستطيع نصرهم، وهم الذين أعدوا أنفسهم جنودًا حاضرين لنصرها والدعوة لعبادتها؛ كما قال قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وقيل: الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على الأصنام، والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ يعود على العابدين، فالمعنى: والأصنام لعابديهم جند ينصرونهم حسب زعمهم، ﴿مُنْحَضُونَ﴾

معهم في النار يوم القيامة.

والصحيح: القول الأول؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على أقرب مذكور، وهم العابدون؛ فالضمير لهم في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

ومعنى الآية على هذا أظهر وأقوى، وعليه يدل الواقع، فإن الأصنام لا تنصر عابديها، وإنما هم ينتصرون لها.

وفيه: إظهار سفاهة المشركين، وشدة ضلالهم، حيث عبدوا ما لا يستطيع نصرهم، وانتصروا لما لا ينفعهم.

﴿فَلَا يُخْزِنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي: «يُخْزِنُكَ»، وقرأ الباقون بفتح الياء، وضم الزاي: «يُخْزِنُكَ».

﴿قَوْلُهُمْ﴾ اسم جنس، أي: لا تخزنك أقوالهم، من وصفهم لك ولما جئت به بالكذب والسحر والشعر والكهانة، ونحو ذلك، أي: لا تخزن ولا تأس لذلك ولا تباله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَخْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبِيحٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَمَّا كَبُحَ بِفِجْجِ الْكُفْرِ أَتَىٰ عَلَىٰ الْإِنسَانِ نَسْكَاتًا لِأَيُّكُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبَيِّرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ الجملة تعليلية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: لأننا نعلم الذي يسرونه ويخفونه في أنفسهم وفيما بينهم، والذي يعلنونه ويظهرونه فيما بينهم أو للناس، أي: نعلم إسرارهم وإعلانهم، وسنجزيمهم وصفهم، ونجازيمهم على جميع أعمالهم، سرها وعلايتها. وفي هذا تهديد ووعد لهم. وقدّم الإسرار؛ لأنه أدل على إحاطة علم الله بأحوالهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُعِي الْعَظْمَ وَهِيَ رِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠):

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففته بيده، فقال: يا محمد، أيجي الله تعالى هذا بعد ما أرى؟ قال: «نعم، يبعث الله

هذا، ثم يميئك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم».

فنزلت الآيات من آخر يس: ﴿أَوْلَئِرَ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إلى آخر السورة^(١).

وروى مجاهد وقتادة: «أنها نزلت في أبي بن خلف، أتى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته»^(٢).

قال ابن كثير^(٣): «وعلى كل تقدير، سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف، أو العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث».

قوله: ﴿أَوْلَئِرَ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتعجيب، و«ال» للجنس، أي: أولم ير الإنسان، أي: كل منكر للبعث، أي: يعلم ويتفكر، أنا خلقناه من نطفة، وهي الماء المهين الضعيف «المني»؟ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾^(٤) [المسلمات: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُّطْفَةً مِّن مَّنِي يَمِينٍ﴾^(٥) [القيامة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

أي: أولم ير الإنسان أنا ابتدأنا خلقه من نطفة، أي: من سلالة من ماء مهين ضعيف، فيتواضع لله تعالى ويعرف أصل خلقه، ولا يتجبر، ولا يتكبر، ويستدل بذلك على قدرة الله تعالى على إعادته وبعثه بعد موته من باب أولى.

عن بسر بن جحاش القرشي رضي الله عنه، قال: بزق النبي ﷺ في كفه، ثم وضع أصبعه السبابة، وقال: يقول الله عز وجل: أنى تعجزني يا ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أو ان الصدقة؟^(٤).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٢٠٢، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦ / ٥٨٠، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٩ / ٤٨٧، عن سعيد بن جبير.

(٢) أخرجه عنها الطبري في «جامع البيان» ١٩ / ٤٨٦، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٢٠٢ عن مجاهد والسدي وعكرمة.

(٣) في «تفسيره» ٦ / ٥٨٠.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الوصايا، النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧، وأحمد ٤ / ٢٦٠.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فيترقى في الخلق من هذا الضعف، فإذا ﴿هُوَ خَصِيمٌ﴾، أي: شديد الخصومة، متجبر شديد الشكيمة، كثير الخصام، ﴿مُّبِينٌ﴾: للخصومة والتجبر.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ «المثل»: الشبه، أي: وضرب هذا الإنسان لنا مثلاً، لا ينبغي لأحد أن يضربه، ولا يستقيم أبداً، مستبعداً ومنكراً البعث والمعاد، وإعادة الحياة إلى الأجساد. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، أي: ونسي ابتداء خلقه، وأن الله خلقه من العدم، وفي خلقه من العدم ما هو أعظم من إعادة خلقه، ولو ذكر خلقه الأول لما ضرب هذا المثل.

﴿قَالَ﴾ في ضربه هذا المثل: ﴿مَنْ يُعِى الْعَظْمَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيز والنفي، أي: لا أحد يحييها، أي: يستطيع ويقدر على إحياؤها.

﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، أي: وهي بالية متفتتة، ففاس قدرة الخالق العظيم القدير، بقدرة المخلوق الضعيف العاجز، وقد قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَضُرُّوهُ بِاللَّهِ الْأَمْثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: قل يا محمد؛ إجابةً عن سؤال هذا المنكر للبعث، وإحياء العظام وهي رميم.

﴿يُحْيِيهَا﴾، أي: يحيي العظام بعد كونها رميماً.

﴿الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لم يقل: يحييها الله؛ ليكون الجواب متضمناً للدليل، أي: يحييها الذي خلقها وأوجدها من العدم أول مرة، وهو الله عز وجل، فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، فمن قدر على الإبداء والنشأة الأولى، فهو على الإعادة والنشأة الأخرى أقدر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

وقال تعالى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ (١٩) ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَاقْبَرَهُ﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾

[عبس: ١٩-٢٢].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع بكل خلق، و«خلق»: مصدر، أي: عليم كيف يخلق، وكيف ينشئ الخلق.

فأثبت له عز وجل القدرة، ونفى عنه العجز بقوله: ﴿يُحْيِيهَا الَّتِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وأثبت له تمام علمه بالخلق، ونفى عنه الجهل بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. وبشوت تمام قدرته وتمام علمه بالخلق إثبات تمام قدرته على إحياء الموتى؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِئَعْلَمَوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢) [الطلاق: ١٢].

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلاً حضره الموت، لما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً، ثم أورو ناراً، حتى إذا أكلت لحمي، وخلصت إلى عظمي، فخذوها فاطحنوها، فذروني في اليم في يوم حار، أورا ح. فجمعه الله، فقال: لم فعلت؟ قال: خشيتك. فغفر له» (١).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾، أي: الذي صير لكم من الشجر الأخضر ناراً، وهو الله عز وجل. فهذا الشجر الأخضر أعاده الله إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، ولا يخفى ما بين الشجر الأخضر الذي فيه الرطوبة والبرودة، وبين النار التي فيها اليبوسة والحرارة؛ من التنافر والتضاد، فخلق عز وجل الشيء من ضده. وإذا كان عز وجل قادراً على خلق الشيء من ضده، فهو على خلق الشيء من لا ضد وإحياء الموتى أقدر، من باب أولى.

﴿فَإِذَا أَنْتُمْ تُوْقَدُونَ﴾ الفاء عاطفة، و«إذا» فجائية، أي: فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار وتقدحونها، بضرب عود يعود آخر من بعض الشجر، فتقدح النار، وتشعلونها في الحطب اليابس من هذا الشجر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١) [الواقعة: ٧١؛ ٧٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسَبِّحْ لِلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴿

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٩.

دلل عز وجل على قدرته التامة على المعاد وإحياء الموتى بالخلق الأول، وبعلمه عز وجل بجميع الخلق، وبإخراج النار من الشجر الأخضر، ثم دلت على ذلك بخلقه السموات والأرض، الذي هو أكبر من خلق الناس، وأوضح للعقول من كل دليل.

قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجب، أي: أوليس الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة: السموات السبع، وما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع، وما فيها من الجبال والرمال، والقفار والبحار، وغير ذلك.

﴿بِقَدْرِ عَلِيٍّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ قرأ رويس عن يعقوب: «يَقْدِرُ» بصيغة المضارع، وقرأ الباقون: «يَقْدِرُ» بالباء الموحدة، وبألف بعد القاف.

والباء في قوله: «يَقْدِرُ» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، و«أن» والفعل «يخلق» في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، أي: أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على خلق مثلهم، أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم؟

﴿بَلَى﴾ أجاب عز وجل نفسه بنفسه؛ لظهور الأمر ووضوحه، أي: بلى هو قادر على أن يخلق مثلهم من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوْلَمَ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقِهِنَّ يِقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾، أي: ذو الخلق المتقن من جميع الوجوه؛ كما قال تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿الْعَلِيمُ﴾: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بالنصب: «فَيَكُونُ»؛ عطفًا على «يَقُولُ»، وقرأ الباقون بالرفع: «فَيَكُونُ»، أي: فهو يكون.

الفاء: للتعقيب، و«إنما»: أداة حصر، و«أن» والفعل «يقول» في تأويل مصدر في محل رفع خبر المبتدأ «أمره»، و«شيئًا»: نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء.

أي: ما أمره إذا أراد شيئاً من الأشياء إلا قوله له: كن، فيكون في الحال من غير تمنع، ولا تأخر، أي: إلا أن يأمر بالشيء أمراً واحداً، من غير حاجة إلى تكرار؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحِدَةً كَلِمَةً بِالصَّبْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَنمَأْهُ زَجْرَةً وَحِدَةً﴾ [١٣] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ [النازعات: ١٣-١٤].

إذا ما أراد الله أمراً فإنها يقول له: «كن» قوله فيكون^(١) عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد، أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، وإذا أردت شيئاً فإنها أقول: «كن» فيكون»^(٢).

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«سبحان»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: تنزيهاً لله تعالى عن النقائص، وعن مماثلة المخلوقين، ﴿الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: الذي بيده ملك كل شيء؛ فهو سبحانه الرب الخالق المالك المتصرف بكل شيء، ذو القدرة التامة على إحياء الموتى. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: ﴿بَتَرَكِ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

و«ملكوت» بمعنى: «ملك»، لكن زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة. عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قال: «الحمد لله ذي الملكوت والجبروت، والكبرياء والعظمة»، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرفت وقد كادت تنكسر رجلاي»^(٣). وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٨٢.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٧.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٨٨.

فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ. قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة»، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ آل عمران، ثم قرأ سورة سورة»^(١).

﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده مرجعكم في دينكم ودنياكم، ومردكم في آخركم، فيحييكم بعد الموت، ويبعثكم من قبوركم؛ ليحاسبكم على أعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٥٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تقرير نعمة الله تعالى على العباد بما خلق لهم من الأنعام، وملئهم إياها، وذلها لهم، منها ركوبهم، ويأكلون منها، وينتفعون بها، ويشربون من ألبانها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَّعِفٌ وَمَشَارِبٌ ﴿٧٣﴾﴾.

٢- أن ما خلق الله من الأنعام وغيرها هو لأجل بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فلا ينبغي أن ينشغلوا بذلك عما خلقوا من أجله.

٣- جواز نسبة العمل إلى الله تعالى ووصفه به؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾، أي: مما عملنا.

٤- إثبات اليمين لله تعالى؛ كما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْدِينَا﴾، وقوله: ﴿بِيَدِهِ مَلَائِكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٥- إثبات الملكية الفردية للإنسان، وأنه يملك شرعاً ما ملكه الله من الأنعام وغير ذلك، وله حق التصرف في ذلك في حدود ما أباحه الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ﴾.

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، ما يقول في ركوعه وسجوده ٨٧٣، والنسائي في التطبيق ١١٣٢.

٦- منة الله تعالى على العباد بتذليل هذه الأنعام لهم، تقاد لهم، ويتصرفون بها من غير أن تمتنع عليهم، حتى ولا في الانقياد لنحرها وذبحها، ولو استعصت عليهم ما استطاعوا تذليلها.

٧- جواز ركوب ما يركب من هذه الأنعام؛ كالإبل من غير أن يكون في ذلك مشقة عليها، وتعذيب لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾.

٨- حل الأكل مما أباحه الله من هذه الأنعام؛ كالإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

٩- إباحة الانتفاع بهذه الأنعام بشتى أنواع المنافع: بأصوافها وأوبارها وأشعارها، والسقي عليها، والحرق، وغير ذلك مما ليس فيه تعذيب لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، أي: منافع كثيرة.

١٠- حل شرب ألبان ما يؤكل لحمه منها؛ كالإبل والبقر والغنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَشَارِبٌ﴾.

١١- الإنكار على المشركين عدم شكرهم هذه النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

١٢- وجوب شكر نعم الله تعالى بخلق هذه الأنعام وغيرها؛ لأن الله أنكر على من كفروها، ووبخهم.

١٣- الإنكار على المشركين في اتخاذهم من دون الله آلهة يرجون نصرهم وشفاعتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾.

١٤- أن هؤلاء الآلهة الذين يعبدهم المشركون لا يستطيعون نصرهم؛ لأنهم أضعف وأقل وأحق من أن ينصروا أنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟! لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

١٥- أن هؤلاء المشركين قد أعدوا أنفسهم جنودًا حاضرين لنصرة آلهتهم، والدفاع عنها، فانقلب السحر على الساحر، عبدوها لأجل أن تنصرهم، فكانوا هم المنتصرين لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾. وفي هذا تسفيه لهم، وبيان شدة

جهلهم حيث عبدوا وانتصروا لمن لا يستطيع نصرهم.

١٦- تسلية النبي ﷺ، وتقوية قلبه تجاه أقوال المشركين في وصفه ووصف ما جاء به بالكذب والسحر والشعر والكهانة، ونحو ذلك، ونهيه أن يحزنه ذلك، أو يبتئس به، وأنه سيكفيه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الآية.

١٧- تهديد المشركين والمكذبين له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١٨- وجوب مراقبة الله تعالى؛ لعلمه بما يسره العباد وما يظهره، ومحاسبته لهم على ذلك.

١٩- تقرير أن الله عز وجل خلق الإنسان من ضعف؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾.

٢٠- ترقى الإنسان في الخلق من هذا الضعف حتى يكون خصيماً ميبناً لربه، مكابراً جباراً عنيداً؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧).

٢١- ذم الخصومة بالباطل، لرد الحق، وإظهار الباطل؛ لأن الآية سيقت مساق الدم.

٢٢- جرأة المجادل بالباطل على ضرب المثل لله، وإنكار قدرته على البعث، وعلى إحياء العظام وهي رميم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨).

٢٣- أن هذا المنكر للبعث ولقدرة الله تعالى على إحياء العظام وهي رميم، لو ذكر خلقه الأول وتفكر فيه، ما ضرب هذا المثل.

٢٤- شدة جهل منكر إحياء الله العظام وهي رميم، في ضربه المثل لله، وقياسه قدرة الخالق العظيم على قدرة المخلوق الضعيف؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨).

٢٥- قدرة الله تعالى التامة على إحياء العظام وهي رميم؛ لأنه هو الذي أوجدها من العدم أول مرة، فهو على إحيائها وإعادةها مرة أخرى أقدر من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٢٦- قوة القرآن في الإقناع وإقامة الحجة، والاستدلال بالأشد على إمكان الأخرى،

- والاستدلال على الخصم بما لا ينكره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.
- ٢٧- علم الله الواسع بكل خلق، فيخلق سبحانه كيف يشاء، وعلمه بكل المخلوقات من باب أولى؛ لأنه خالقها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١٤﴾ [الملك: ١٤].
- ٢٨- منة الله تعالى على العباد في جعله لهم من الشجر الأخضر نارًا يوقدون منه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾.
- ٢٩- أن من قدر على جعل النار من الشجر الأخضر، وخلق الضد من الضد، فهو قادر على إحياء الموتى مرة أخرى.
- ٣٠- تقرير وإثبات أن من خلق السموات والأرض - هذه المخلوقات العظيمة - قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾.
- ٣١- كمال قدرة الله تعالى وعظمته؛ حيث خلق هذه السموات والأرض العظيمة، وما فيهما من المخلوقات الكثيرة.
- ٣٢- أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.
- ٣٣- جواز إجابة السائل نفسه إذا كان ذلك من باب تقرير أمر ثابت معلوم للمخاطب؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾.
- ٣٤- إثبات اسم: «الخالق» لله عز وجل، وصفة الخلق، وأنه سبحانه المتفرد بالخلق، الخالق لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾.
- ٣٥- إثبات اسم الله: «العليم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَلِيمُ﴾.
- ٣٦- أنه عز وجل لا يعجزه ولا يمتنع عليه أي شيء، من إحياء الموتى أو غير ذلك؛ لتمام قدرته، وسعة علمه، فما أمره إذا أراد شيئاً إلا أن يقول له: كن، فيكون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾.
- ٣٧- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾.

٣٨- إثبات القول لله تعالى، وأنه يقول ويتكلم بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

٣٩- تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وتقديسه وتعظيمه من أن تقاس قدرته بقدرة المخلوق الضعيف؛ كما يعتقد منكرو البعث؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٤٠- سعة ملك الله تعالى، فبيده عز وجل ملك كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٤١- أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى في دينهم ودنياهم، وفي أخراهم بعد موتهم وإحيائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾.

٤٢- تأكيد وإثبات البعث، وإحياء العظام وهي رميم، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ فقد تضمنت هذه الآيات عشرة أدلة على ذلك:

الأول: الاستدلال بخلق الإنسان الأول، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى.

الثاني: عموم علم الله عز وجل التام بكل خلق.

الثالث: قدرته على إخراج النار من الشجر الأخضر.

الرابع: خلقه السموات والأرض.

الخامس: كونه الخلاق.

السادس: كونه العليم.

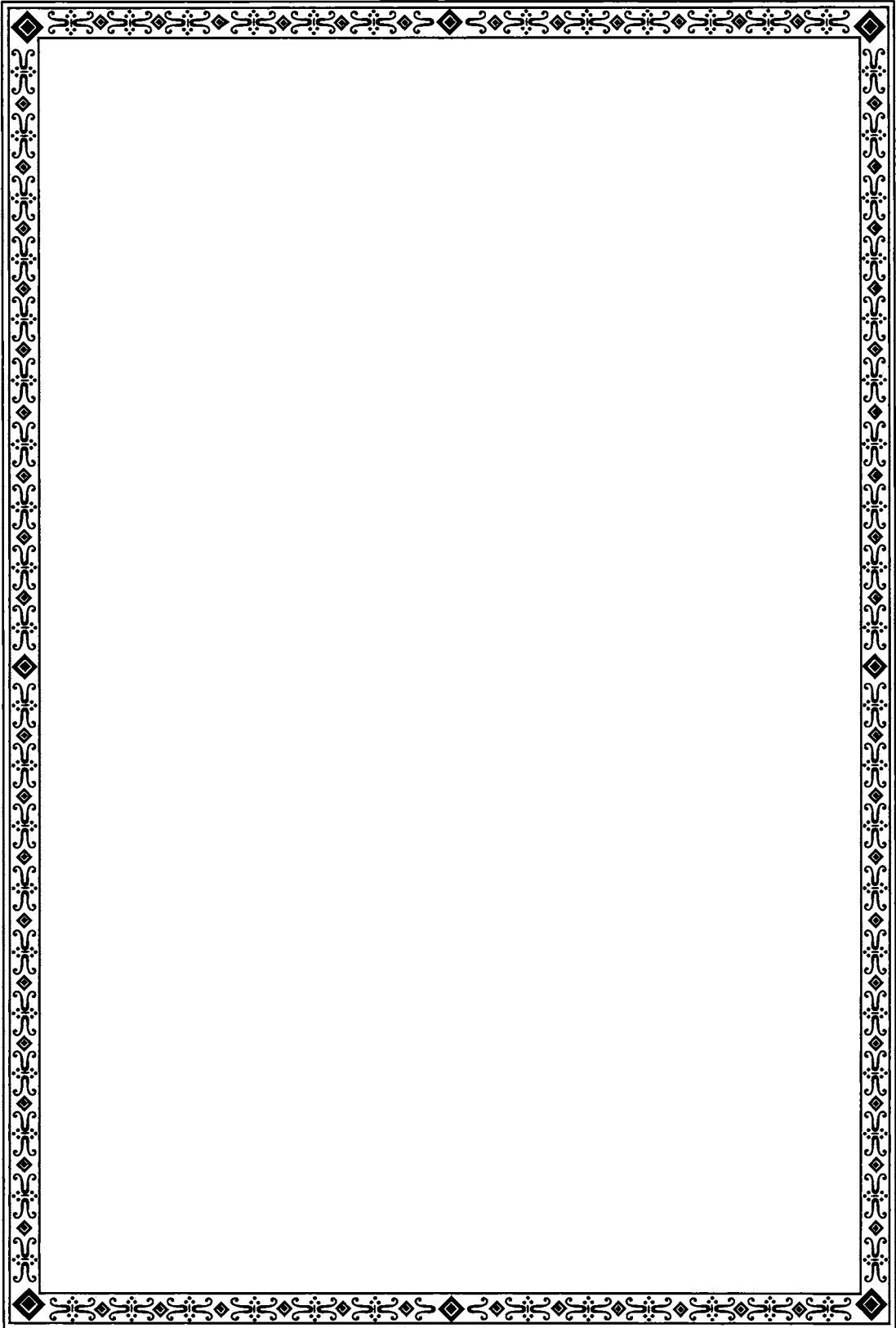
السابع: كونه لا يعجزه ولا يمتنع عليه شيء، إذا أراد أمرًا إنها يقول له: كن، فيكون.

الثامن: تنزيهه عن كل نقص، وهذا يقتضي كماله وتمام قدرته على إحياء الموتى وعلى كل شيء.

التاسع: أن بيده ملكوت كل شيء وتدبيره، يحيي من يشاء، ويميت من يشاء.

العاشر: أن مرجع الخلائق كلهم إليه يوم القيامة، وذلك لا يكون إلا بعد بعثهم وإحيائهم بعد موتهم.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الصافات»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الآية: ١].

وتسمى: «سورة الذبيح»؛ لأن قصة الذبيح لم تذكر في غيرها من السور.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمُّنا بالصافات»^(١).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بإقسامه عز وجل بالصافات والزاجرات والتاليات، وهي الملائكة على وحدانيته عز وجل في ألوهيته وإثبات عموم ربوبيته، ورب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق، زين السماء الدنيا وحفظها بالكواكب ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ٦ ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ ٧ ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمًا لَّا أَعْلَىٰ وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ٨ ﴿دُخْرًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ ٩ ﴿لَا مَنْ حَطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ١٠.

٢- الرد على المشركين المكذبين بالبعث، وإثبات أنه حق، وتهديدهم بما أعد لهم فيه من عذاب الجحيم، والتفريع والتوبيخ لهم: ﴿فَاسْتَفْنِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ حَلَقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ ١١ ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ ١٨ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ١٩ ﴿وَقَالُوا يَا بُولُتَانَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ٢٠ ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ ٢١ ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ٢٢ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ٢٣ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ٢٤ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾ ٢٥ ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ٢٦ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ٢٧ ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا﴾

(١) أخرجه النسائي في الإمامة- الرخصة للإمام في التطويل ٨٢٦.

ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تَجْرُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾.

٣- بيان ما أعده الله لعباده المخلصين، نزلاً لهم من ألوان الم لذات والفوز العظيم في جنات النعيم. قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَّدُوا لَهُمْ مَكْرُمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَآ فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥١﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

٤- شتان بين هذا المنزل العظيم وبين ما أعد نزلاً للظالمين الضالين من شجرة الزقوم والحميم وعذاب الجحيم. قال تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنٌ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

٥- ذم المشركين في تقليدهم آباءهم على الضلال، كما ضل قبلهم أكثر الأولين، ولم ينتفعوا بالنذر إلا من وفقه الله من عباده المخلصين ﴿إِنَّهُمْ أَقْوَاءُ آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

٦- ذكر طرفٍ من قصة نوح عليه السلام وهو دعاؤه على قومه لما يأس من هدايتهم وإيمانهم، واستجابة الله تعالى له، وإنجائه وأهله، وإغراق الآخرين ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَنصُرْ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا بَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

٧- ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه وإنكاره عليهم عبادة غير الله وتحطيمه أصنامهم، وإلقائهم إياه في النار، وإبطال الله تعالى كيدهم، وبشارته بغلام حلِيم، وابتلائه بأمره في المنام بذبحه ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظَرْنَا مَاذَا تَرَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُا أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٥﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا

وَلَهُ، لِلْجَيْنِ ﴿١١٣﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَابِرْهُمُ ﴿١١٤﴾ فَصَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْبَتُوا الْمَيْنُ ﴿١١٦﴾ وَفَدَيْتُهُ بِذَنْجٍ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَبَشَّرْتَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

٨- ذكر منته عز وجل على موسى وهارون وإنجائهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرهما وجعل الغلبة لهما وإيتائهما الكتاب المستبين وهدايتها الصراط المستقيم ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَجَّيْتُهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَصَرَّيْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٩- ذكر رسالة إلياس عليه السلام وأمره قومه بتقوى الله، وإنكاره عليهم دعاء غير الله، وترك عبادة أحسن الخالقين الله ربهم ورب آبائهم الأولين، وتكذيبهم له: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَالَأَنْتُمْ أَكْفَرُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُمْ مَحْضُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

١٠- ذكر رسالة لوط عليه السلام وأهله أجمعين وإهلاك المكذبين ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَيَا لَيْلٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴿١٣٨﴾﴾.

١١- ذكر رسالة يونس عليه السلام وما جرى له ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْتَأْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَتَأَمَّنُوا فَمَرَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

١٢- الإنكار على المشركين في نسبتهم الولد لله تعالى وتخصيصه بالبنات، ولهم البنون، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، بلا حجة، ولا كتاب، ولا سلطان مبین، وفي جعلهم بين الله عز وجل وبين الجنة نسبا تعالى الله عن ذلك وتوعدهم باصطلاء

الجحيم: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدَّ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَانْكُرُوا مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَشْرَ عَلَيْهِ بِفِتْنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾.﴾

١٣- فضيلة الملائكة ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

١٤- شدة عناد المشركين وتكذيبهم بالقرآن، وتوعددهم ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوَآءَنَّا عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

١٥- تسلية الرسول ﷺ وتقوية قلبه، وتهديد المكذابين له ببيان حكمه السابق بنصر رسله وأوليائه، وإهلاك المكذابين وتعذيبهم: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُضْضَرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنُؤَلِّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصُرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصُرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ١﴾ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ٥﴾ إِنَّا زَيْنَا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بِنِعْمَةِ الْكُوكَبِ ٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٩﴾ إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ١٣﴾ وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ١٥﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نَرَاهَا وَعَظْمًا أَوِنًا لَمَبُوتُونَ ١٦﴾ أَوَاهَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ١٧﴾ قُلْ نَعْمَ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ١﴾ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ٥﴾:

قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ١﴾ الواو: حرف قسم وجر، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أقسم. و«صفاً»: مفعول مطلق.

والمراد بـ«الصافات صفاً»: الملائكة تصف صفوفاً عند ربها في الصلاة والعبادة والعمل، وتصف أجنتها في الهواء؛ كما قالوا عن أنفسهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ١٦٥﴾ [الصافات: ١٦٥]، وقال ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟»، قالوا: كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يُتَمون الصفوف الأولى، ويتراصون في الصف»^(١).

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بَثَلَاثَ: جَعَلْتُمْ صَفُوفَنَا كَصَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجَعَلْتُمْ لَنَا الْأَرْضَ كُلَّهَا مَسْجِدًا، وَجَعَلْتُمْ تَرْبَتَهَا لَنَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»^(٢).

﴿فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ٣﴾ الجملتان معطوفتان على «الصافات صفاً». و«زجراً» و«ذكراً»؛ كل منهما مفعول مطلق، والعطف من عطف الصفات.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، الأمر بالسكون في الصلاة ٤٣٠، وأبو داود في الصلاة ٦٦١، والنسائي في الإمامة ٨١٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٩٢، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد وموضع الصلاة ٥٢٢.

﴿فَالْتَجِرَتْ زَجْرًا﴾ الملائكة تزجر السحاب، أي: تسوقه، وتزجر أرواح الكفار عند استخراجها، وغير ذلك.

﴿فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة تتلو الذكر، أي: القرآن وكلام الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَالْمَلَيْتِ ذِكْرًا﴾ ﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ [المرسلات: ٥-٦].

فأقسم عز وجل بالملائكة التي تصف صفوفًا عند ربها في الصلاة والعبادة، والتي تزجر السحاب وما أمرت بزجره، والتي تتلو كلام الله تعالى وذكره، أقسم بها على وحدانيته في إلهيته، فقال:

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، فأقسم عز وجل بالملائكة بصفاتها الثلاث: إن إلهكم - أيها الخلق - لواحد.

و«إن» واللام: للتوكيد، أي: إن إلهكم ومعبودكم الذي يجب أن تعبدوه دون سواه، ﴿لَوَاحِدٌ﴾، أي: واحد، أحد، فرد، لا شريك له في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾، أي: هو رب السموات والأرض وما بينهما، أي: وخالق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].
﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾، أي: خالق مشارق الشمس والقمر والكواكب، في الصيف والشتاء، ومالكها، والمتصرف فيها.

واكتفى بذكر المشارق؛ لدلالاتها على المغارب، وقد صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وأيضًا: فإن المشارق أدل على تمام قدرة الله من المغارب؛ لأن الشروق ابتداء، والغروب انتهاء.

قال ابن القيم: «وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته، وقرّر توحيد ربوبيته، فقال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾». وهذه قاعدة القرآن: يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبودًا بكونه خالقًا رازقًا وحده.

وقال أيضًا: «وخص المشارق ههنا بالذكر: إما لدلالاتها على المغرب؛ إذ الأمران المتضايغان كل منهما يستلزم الآخر، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب، ومظاهر الأنوار، وإما توطئة لما ذكر بعدها: من تزيين السماء بزينة الكواكب، وجعلها حفظًا من كل شيطان، فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق. والله تعالى أعلم» (١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ (٦) وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْوَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُخُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَن خِطَفَ الْمُنْطَفَةِ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾:

قوله: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا﴾، أي: زينا السماء القربى إلى الأرض، وجملناها للناظرين إليها من أهل الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١١) [الحجر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) [ق: ٦].

﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ قرأ عاصم وحمة بالتنوين: ﴿بِزِينَةٍ﴾؛ وجر ﴿الْكَوَاكِبِ﴾، على البدل أو عطف البيان، والمعنى: بزينة هي الكواكب.

وقرأ الباقون بغير تنوين بإضافة «زينة» إلى «الكواكب»: ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾، أي: بالكواكب المزينة للسماء.

وقرأ أبو بكر عن عاصم بنصب «الْكَوَاكِبِ»؛ على تقدير: أعني: الكواكب. وقيل غير ذلك.

﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ الواو: عاطفة، و«حفظًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وحفظناها حفظًا.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٨.

﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾، أي: من كل شيطان متمرد عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى.
 ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم بتشديد السين
 والميم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ وقرأ الباقون بتخفيفها: «لَا يَسْمَعُونَ».

و«لا»: نافية، و﴿الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾: الملائكة وأهل السماء، فهم الأعلى مكاناً؛ لأنهم في
 السماء، وهم الأعلى شرفاً ومنزلة؛ لأنهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم
 ويفعلون ما يؤمرون.

أي: لا يستطيع الشياطين الاستماع إلى الملائكة الأشراف في الملأ الأعلى في السماء،
 إذا تكلموا بها بوحية الله من شرعه وقدره، وذلك لحفظ الله تعالى السماء منهم.

﴿وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾، أي: يُرْمُونَ وَيُرْجِمُونَ بالشهب الثواقب، من كل جانب
 من آفاق السماء، ومن كل جهة يقصدون السماء منها، فلا يستطيعون الوصول إلى
 مقصودهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيرٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ،
 شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٧-١٨].

﴿دُخُورًا﴾ مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي: طردًا للشياطين، وإبعاداً لهم عن
 استماع ما يقول الملأ الأعلى، أو حال، أو مفعول لأجله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ دائم موجه مستمر في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ
 زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥].

﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ، شِهَابٌ نَاقِبٌ﴾ «إلا» للاستثناء، و«مَنْ» موصولة، أي: إلا
 الذي من الشياطين ﴿خَطَفَ الْخَطْفَةَ﴾، أي: اختلس الكلمة مسارقة بسرعة، وهي
 الكلمة التي يسمعها من السماء، فيلقبها إلى الذي تحته، ويلقبها الآخر إلى الذي تحته،
 فربما أدركه شهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها- بقدر الله- قبل أن يدركه الشهاب،
 فيذهب بها الآخر إلى الكاهن؛ كما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره، عند
 تفسير قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿فَاتَّبَعَهُ﴾، أي: فلحقه ﴿شِهَابٌ نَاقِبٌ﴾، أي: شهاب مضيء، مستنير، نافذ، ينفذ فيه
 فيخرقه، أو يحرقه، أو يخبله، وهو ما يرى كالكوكب، ينقض من السماء بسرعة.

قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنَّا خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أءَأَآءُ مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِهْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوءَأَآءُآءُ الْآءُءُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَءِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾: ﴿

قوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾، أي: فاسأل منكري البعث بعد الموت:

﴿أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ الاستفهام للتقرير، أي: أخلقهم وإيجادهم بعد موتهم أشد خلقًا

وأشق وأصعب.

﴿أَمْ مَنَّا خَلَقْنَا﴾ «أم»: حرف عطف، و«من»: موصولة، أي: أو الذي خلقنا من

هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض وما فيها، وما بينها من الملائكة والإنس والجن، وسائر المخلوقات.

وغلب في قوله: ﴿أَمْ مَنَّا خَلَقْنَا﴾ جانب العقلاء؛ لأنهم أفضل وأشرف.

أي: استفتهم في هذا، فلا بد أن يقرروا بأن خلق الله لهذه المخلوقات العظيمة-

السموات والأرض وما بينها- أكبر من خلقهم، أي: أكبر من خلق الناس.

كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِن خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]،

فيلزمهم على هذا الإقرار بتمام قدرته تعالى على البعث، بل لو تأملوا في أصل خلقهم

لأقروا بذلك؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ ﴾، أي: خلقنا أباهم آدم عليه السلام، ﴿ مِن طِينٍ ﴾

«الطين»: التراب المخلوط بالماء، ﴿ لَّازِبٍ ﴾: لزج يلتصق باليد، ويلتصق ويلزق بعبه

بعض، قوي شديد؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلصَلٍ مِن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾

[الحجر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤].

فابتداء خلقهم من طين لازب، أشد من إعادة خلقهم أحياء بعد موتهم.

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء: «عَجِبْتُ»؛

فالضمير يعود إلى الله تعالى، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ عَجِبْتَ ﴾ فالضمير يعود إلى النبي

ﷺ، ومن يصلح خطابه.

«بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل عجبت يا محمد، ويا أيها المخاطب، من إنكار

هؤلاء المكذبين للبعث، مع بيان الأدلة العظيمة على تمام قدرة الله تعالى على ذلك، وأعجب من ذلك أنهم يسخرون، أي: يستهزئون بالرسول ﷺ، وبما جاء به من الوحي الدال على ذلك؛ كما قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَصَنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُهُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٨؛ ٣٩].

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾، أي: وإذا ذكروا بما يعرفونه بفطرونه وعقولهم، ووعظوا به، وفطنوا له ونُبهوا، لا يذكرون ذلك، ولا ينتفعون، ولا يعتبرون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ «آية»: نكرة في سياق الشرط، فتعم كل آية، والسين والتاء للمبالغة، أي: وإذا شاهدوا وعلموا أي آية دالة على تمام قدرة الله تعالى على ذلك يستهزئون مستكبرين.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هذا الذي جئت به إلا سحر بين ظاهر واضح.

﴿أَيُّهَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا﴾ الاستفهام للإنكار.

﴿أَيُّهَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ قرأ نافع بهمزة واحدة، هي همزة «إن»: «إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ»؛ وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَيُّهَا لَمَبْعُوثُونَ﴾، أي: بالاستفهام؛ تأكيداً للإنكار، واللام للتوكيد.

﴿أَوَّابًا وَأَنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وقالون بإسكان الواو: «أَوْ أَبَاؤُنَا»؛ وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَوَّابًا وَأَنَا﴾ وهو معطوف على الضمير «نا» في قوله: ﴿أَيُّهَا مِنَّا﴾، أي: أئذا متنا وأبائنا الأولون، وكانت أجسادنا ترابًا وعظامًا بالية، أئنا لمبعوثون أحياء بعد ذلك؟! هذا أمر بعيد مستنكر.

وكل هذا مما يثير العجب من تكذيبهم البعث، وسخريتهم بمن جاءهم به، وعدم ذكرهم إذا ذكروا، وسخريتهم بالآيات، وزعمهم أن ما جاءهم به الرسول ﷺ سحر بين، واعتبارهم أن بعثهم بعد موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا ضرب من المستحيل.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيُّ ذَا كُنَّا تُرَابًا أَيُّهَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: ٥].

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ «نعم»: حرف جواب للتصديق، أي: قل لهم يا محمد: نعم،

سبتعون يوم القيامة بعدما تصيرون تراباً. وصدر الجواب بـ«قل»؛ للاهتمام بهذا الجواب.
﴿وَأَنْتُمْ ذَخِرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: وأنتم صاغرون ذليلون، لا تستعصون على قدرة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنُوفِهِ ذَخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ الفاء: تعليلية، ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: نفخة واحدة في الصور، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هم خارجون من قبورهم، قيام بين يدي الله تعالى.

﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما يفعل بهم، أو ينتظرون ما يفعل بهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أُنُوفِهِ ذَخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ﴿١٨﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَاذَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿١١﴾ [الحاقة: ١٣-١٤].

والمراد بهذا النفخة الثانية؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

الفوائد والأحكام:

١- إقسام الله عز وجل بالملائكة باعتبار صفاتهم الثلاث العظيمة: الصافات، والزاجرات، والتاليات؛ لقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ ﴿١﴾ ﴿فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا﴾ ﴿٢﴾ ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾.

٢- أن الله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن إقسامه بها تعظيم لنفسه هو؛ لأنه يقسم بما خلق.

٣- إثبات وجود الملائكة، وفضيلتهم، وعظيم منزلتهم عند الله تعالى، وجليل صفاتهم؛ حيث أقسم عز وجل بهم، وبصفاتهم.

٤- إثبات وتأكيد وحدانية الله تعالى في ألوهيته لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ④.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا: السموات والأرض، وما بينهما من المخلوقات، والمشارق والمغارب، وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ⑤.

٦- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية: الإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ⑤.

٧- إبطال الشرك، وأنه لا إله إلا الله تعالى وحده.

٨- تزيين السماء الدنيا وتجميلها بالكواكب والنجوم للناظرين إليها من أهل الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكَوَاكِبِ﴾ ⑥.

٩- أن الله جميل يحب الجمال؛ لهذا زين السماء للناظرين إليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ ⑦ [الحجر: ١٦].

١٠- حفظ السماء من مردة الشياطين، والحيلولة بينهم وبين استراق السمع، ورميهم بالشهب، وطردهم وإبعادهم، مع ما أُعد لهم من العذاب الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ ⑦ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى النَّبْلِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُخُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ⑨.

١١- تفضيل الملائكة؛ لأن الله ساهم: الملائكة الأعلَى، فهم الأعلَى مكانًا؛ لأنهم في السماء، وهم الأعلَى منزلة وشرافًا بعد الرسل والمؤمنين على الصحيح.

١٢- تعدد منافع الكواكب والنجوم؛ فهي زينة للسماء، ورجوم للشياطين؛ كما أنها علامات يهتدى بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ وَإِلْتَجِمَ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ⑩ [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ ⑪ [الأنعام: ٩٧].
قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين،

وعلامات يهتدى بها»^(١).

١٣- إتياع مسترقي السمع بالشهب الثاقبة، وإهلاكهم، وقَلَّ من يخطف الكلمة منهم فينجو؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾^(١٠).

١٤- أمر الله عز وجل له ﷺ بسؤال المكذبين بالبعث؛ تحدياً لهم: أهم أشد خلقاً أم من خلق الله من جميع المخلوقات؟ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفِنِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ الآية.

١٥- مشروعية مجادلة أهل الباطل؛ لإقامة الحجة عليهم، وبيان الحق، ودحض الباطل؛ لأن هذا منهج الرسول ﷺ، والرسول قبله، وأتباعهم.

١٦- تقرير وإثبات أن خلق السموات والأرض وما بينهما، أشد من خلق الناس، وإحيائهم بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفِنِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾، أي: بل من خلقنا.

١٧- تمام قدرة الله تعالى؛ حيث ابتداء خلق بني آدم من طين لازب، وهو أشد من إعادة خلقهم بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾.

فإعادة خلقهم بعد موتهم أيسر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

١٨- جمع هؤلاء المكذبين بين التكذيب بالحق وإنكار البعث، والسخرية من ذلك وممن قال به، مما يثير العجب؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾^(١٢).

١٩- إثبات العجب لله تعالى، وهذا على قراءة الضم: «بَلْ عَجِبْتُ».

٢٠- شدة عتوهم، وعدم ذكرهم لما يُذكرون به، ويُفطنون له، وعدم اتعاضهم وانتفاعهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾^(١٣).

٢١- سخريتهم بما يرون من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى على بعثهم بعد موتهم؛ وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ﴾^(١٤).

(١) أخرجه البخاري معلقاً في بدء الخلق، وانظر: «تيسير العزيز الحميد»، ص ٤٤٢.

- ٢٢- جرأة المكذبين على وصف الآيات وما جاءهم من الحق، بأقبح الأوصاف كالسحر ونحو ذلك، ذلك تنفيراً منه؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.
- ٢٣- استبعادهم، بل إنكارهم، للبعث بعد موتهم، وكونهم تراباً وعظاماً، هم وآباؤهم الأولون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ ذَا مِثْنًا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا أَمْ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.
- ٢٤- أن الأجداد يسمون آباءً؛ لقولهم: ﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾.
- ٢٥- إثبات بعثهم بعد موتهم صاغرين ذليلين، وكذا جميع الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.
- ٢٦- قدرة الله تعالى التامة، فبزجرة واحدة دون تكرار، يخرج الناس كلهم سراعاً من قبورهم، فإذا هم قيام ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.



قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾
 ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ
 إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾
 قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ
 قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَأَنذِرُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَبْتَكُمْ إِذَا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ
 مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَّبْنَاكَ بِفَعْلٍ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾
 ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ
 إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ ﴿٢٦﴾ :

قوله: ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ ، أي: قال المشركون المكذبون بالبعث والحساب
 والجزاء على الأعمال- بعد بعثهم من قبورهم، ومشاهدتهم أهوال القيامة- تحسراً وندماً:
 ﴿يَا وَيْلَنَا﴾: دعاء بالويل. و«الويل»: شدة التحسر والعذاب، أي: يا حسرتنا، ويا
 عذابنا وهلاكنا.

فهذا دعاء بالويل والشبور والهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ سُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا
 سُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٤].

وعبر بالماضي في قوله: ﴿ وَقَالُوا ﴾ مع أنه لم يأت بعد؛ لتحقيق وقوعه.

﴿ هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾، أي: هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال، وهذا إقرار منهم،
 واعتراف بهذا اليوم، ورجوع على أنفسهم بالملامة والندم، حين لا ينفعهم ذلك؛ ولهذا
 تقول لهم الملائكة:

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾، أي: هذا يوم الفصل بين الخلائق فيما بينهم من حقوق،
 وبمجازاة كل منهم بعمله، وانقسامهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾، أي: الذي كنتم في الدنيا به تكذبون، وتنكرونه، وهذا
 لزيادة حسرتهم، ولو مهم وتوبيخهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ من كلام المنكرين

للبعث بعضهم لبعض.

﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: ويقال للملائكة: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

أي: اجمعوا الذين ظلموا بالشرك والكفر والتكذيب بالبعث، وظلم العباد؛ إهانة لهم، ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، أي: قرنائهم ونظراءهم، وأشكالهم وأمثالهم وأشباهم، فيقرن الرجل السوء مع الرجل السوء؛ كما يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: ٧].

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم والذي كانوا يعبدونه.

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله، من الأصنام والأوثان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿١٨﴾﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾، أي: فدلوهم وسوقوهم سوقاً عنيفاً شديداً إلى طريق الجحيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدَّا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦].
وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبِكَمَا وَصَّأْنَا مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَقَفُّوهُمْ إِنِّي أَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾، أي: أوقفوهم إهانة لهم، واحبسوهم للحساب عند الصراط، قبل إدخالهم النار.

﴿إِنِّي أَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، أي: عن أعمالهم وأقوالهم، وما كانوا يفترونه في الدنيا، ومحاسبون؛ ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم، وأن الله لم يظلمهم، ويجازون وفاقاً لأعمالهم.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ قرأ البيزي عن ابن كثير وأبو جعفر بتشديد النون: «لَا تَنَاصَرُونَ»؛ وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

والاستفهام للتوبيخ والتهكم والتعجيز والإهانة، أي: ما الذي جرى لكم لا تناصرون، ولم لا ينصر بعضكم بعضاً؛ كما كنتم تقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]؟

ولم لا تنتصرون لمعبوداتكم؟

﴿بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْمُونَ ﴿٢٠﴾﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هم اليوم أذلاء منقادون لحكم الله وجزائه.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قَالَوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالَوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّآ لَدَٰئِمُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا عٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: وأقبل بعض الكفار والمكذبين على بعض يتساءلون، أي: يسأل بعضهم بعضاً على وجه التلاوم والتخاصم والتوبيخ والإنكار؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوٰتِكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿قَالَوا﴾، أي: قال الأتباع للمتبعين: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ﴾، أي: في الدنيا.

﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾، أي: من الجهة التي نأمنكم منها، بإقسامكم لنا أنكم على الحق، أو: بوعدكم لنا بالخير والعز والكرامة في اتباعكم، أو بالقوة والغلبة؛ لقوتكم وضعفنا، أو بذلك كله، أي: حتى أضللتمونا عن الحق.

﴿قَالَوا﴾، أي: قال المتبعون: ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بَلْ﴾ في الموضعين للإضراب الإبطالي، أي: قال المتبعون للأتباع: ليس الأمر كما تزعمون، فلم نكن نأتيكم عن اليمين، فأضللتناكم، بل لم تكونوا مؤمنين في الأصل، فكيف تزعمون أننا أضللتناكم؟

فتبرأ المتبعون من الأتباع، وجعلوا اللوم على الأتباع أنفسهم؛ كما قال الشيطان: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه ما كان لنا عليكم من

سلطان، و«من»: زائدة في سياق النفي، فتعم، أي: وما كان لنا عليكم أيُّ سلطان، أي: أي حجة وبرهان، وأي تسلط وقهر لكم على اختيار الكفر؛ كما قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيْنَ﴾، أي: متجاوزين الحد والحق في الكفر والضلال؛ ولهذا اخترتم الكفر واتبعتمونا، فلا تلوّمونا ولوّموا أنفسكم؛ كما قال الشيطان: ﴿فَلَا تَلُوْمُوْنِيْ وَوَلُوْمُوْا اَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾، أي: فوجب وتحقق علينا جميعاً - نحن وإياكم - قول ربنا الكوني، وحكمه القدري: ﴿اِنَّا لَنَدَٰبِقُوْنَ﴾ العذاب جميعاً؛ كما قال تعالى لإبليس: ﴿لَمَنْ يَتَّبِعْكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

﴿فَاغْوَيْنَكُمْ﴾، أي: فدعوناكم إلى الغواية والضلال، فأضللناكم.

﴿اِنَّا كُنَّا غَٰوِيْنَ﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: فأغويناكم؛ لأننا كنا غاوين، أي: ضالين.

وهذا يدل على أن اللوم يقع على المتبوعين؛ لدعائهم إلى الضلال، ويقع على الأتباع؛ لاختيارهم بأنفسهم الضلال من غير إكراه.

كما يدل أيضاً على تحقق قول الله تعالى عليهم جميعاً بالكفر، والعذاب؛ ولهذا قال: ﴿فَاِيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: فإنهم جميعاً يوم القيامة، الأتباع والمتبوعون.

﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ لاشتراكهم في الضلال والكفر، وإن تفاوتت مقادير عذابهم حسب ضلالهم وكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوْا﴾ [الأنعام: ١٣٢].

﴿اِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِيْنَ﴾، أي: إنا كما جعلنا هؤلاء يشتركون في العذاب - الأتباع والمتبوعون - لإجرامهم، ﴿كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِيْنَ﴾ غيرهم، بأن نجعلهم يشتركون جميعاً في العذاب.

وهذه الآيات كقوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَإِذْ يَتَحٰجَّبُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعَفَتُوْا لِلَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوْا اِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ اَنْتُمْ مُّغْنَوْنَ عَنَّا نَصِيْبًا مِّنَ النَّارِ ﴿١٧﴾ قَالَ الَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوْا اِنَّا كُلُّ فِیْهَا اِنَّكَ اللهُ قَدْ حَكَمْتَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿١٨﴾﴾ [الآيات: ٤٧، ٤٨].

وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْفُسُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الآيات: ٣١-٣٣].

الفوائد والأحكام:

- ١- ندامة المشركين والمكذبين بالبعث، وحسرتهم، ورجوعهم بالملامة على أنفسهم، ودعاؤهم عليها بالويل والشبور، واعترافهم بيوم الدين، حين لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿٢٠﴾﴾.
- ٢- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء، والفصل بين العباد، وتقريع وتوبيخ وتقرير الكفار المكذبين به في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.
- ٣- جمع الظالمين المكذبين ونظرائهم؛ تقريعاً وتوبيخاً لهم هم ومعبوداتهم، وسوقهم إلى النار، وإهانتهم وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَحَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَلْهَدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ جزاء وفاقاً؛ لاختيارهم في الدنيا طريق الكفر.
- ٤- حبسهم عند الصراط دون جهنم؛ لإهانتهم، وسؤالهم عن أعمالهم، ومناقشتهم الحساب، وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وأن الله لم يظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَفُّهُمْ بِهِمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.
- ٥- إثبات السؤال، ومناقشة الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٥﴾﴾.
- ٦- إظهار عجز الظالمين المكذبين عن التناصر فيما بينهم ذلك اليوم؛ إهانة وتوبيخاً لهم، وتهكماً بهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.
- ٧- استسلامهم في ذلك اليوم، وانقيادهم أذلاء لحكم الله وجزائه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٨- إقبال بعضهم على بعض في التساؤل والتلاوم بينهم، وإلقاء الأتباع المسؤولية فيما وصلوا إليه على المتبوعين، وتبرؤ المتبوعين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) .

٩- تنوع وتعدد أساليب دعاء الكفر والضلال؛ لترويج باطلهم؛ بين التغيرير والخذاع، والترغيب والترهيب، ونحو ذلك.

١٠- أن من لم يكن مؤمناً إيماناً راسخاً، فعليه خطر من التأثير بدعوات المضلين، فعلى المؤمن الاعتصام بالله، وسؤاله الثبات.

١١- أنه لا عذر لمن يختار طريق الضلال، بحجة أنه دُعي إليه، ما لم يُلزم بذلك أو يُكره عليه.

١٢- اشتراك الأتباع والمتبوعين في اللوم، فالأتباع لاختيارهم الضلال، والمتبوعون لدعوتهم إليه، وكونهم قدوة فيه.

١٣- نفوذ قول الله تعالى الكوني، وقضائه القدري فيهم جميعاً بالكفر والعذاب؛ لقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَلذَّٰبِقُونَ﴾ (٣١) .

١٤- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء، وأن كلاً ميسر لما خلقه وقدر له.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلائق؛ لقولهم: ﴿رَبِّنَا﴾ .

١٦- اعتراف المتبوعين بأنهم ضالون، وأنهم دعوا هؤلاء الأتباع إلى ما هم عليه من الضلال، فأضلّوهم؛ لقولهم: ﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غُٰوِينَ﴾ (٣٢) .

١٧- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غُٰوِينَ﴾ (٣٢) ، أي: بسبب أنا كنا غاوين.

١٨- اشتراكهم في العذاب يوم القيامة؛ لاشتراكهم بالضلال والكفر، ولكل منهم نصيبه من ذلك حسب ضلاله وكفره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَن تَهُمَّ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٣) .

١٩- إهانة المتبوعين، وإذلالهم، في إشرافهم مع الأتباع في العذاب.

٢٠- التسجيل على هؤلاء الضلال بالإجرام، وأن عقبي المجرمين الاشتراك بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفَعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ .

٢١- إثبات الفعل لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفَعُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٢٢- وجوب الحذر من قرناء السوء، ودعاة الضلال، ومن مصاحبة الأشرار، قبل

أن يقول قائل: ﴿يَتَوَلَّيْ لِيَتِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ (٣٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٣٩﴾ [الفرقان: ٢٨ - ٢٩].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَيْتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكَ لَنذَائِقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهَةٌ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَيْتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ :

قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: إن هؤلاء الغاوين المجرمين المكذبين.

﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: إذا قال لهم الرسول - أو أي قائل من المؤمنين - كلمة التوحيد: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ «لا»: نافية للجنس، و«إلا»: أداة استثناء، أي: لا معبود بحق إلا الله تعالى.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: يستكبرون عن قول: «لا إله إلا الله»، وعن الإتيان بها، واعتقاد معناها، فيرون أنهم أكبر من أن يقال لهم: لا إله إلا الله، وأكبر من أن يقولوها.
عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله. وأنزل الله في كتابه وذكر قومًا استكبروا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾» (١).

وعنه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل» (٢).

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لذلك، وتكذيبًا به، وإنكارًا له:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٢١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإتيان ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٠، والترمذي في الإتيان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧.

﴿أَيَّنَا لَتَارِكُوآءَ الْهَيْتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، واللام في قوله: ﴿لَتَارِكُوآءَ﴾: للتوكيد، واللام في قوله: ﴿لِشَاعِرٍ﴾: للأجل والعلة، أي: لا يمكن أن نترك عبادة آلهتنا لأجل قول شاعر مجنون؛ يعنون: النبي ﷺ.

والشاعر: من يقول الشعر. والمجنون: من لا يعقل. وهذا كذب وتناقض منهم؛ لأن المجنون لا يقول الشعر، بل لا يقول كلامًا نثرًا منتظمًا، فكيف يقول شعراً؟!

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [الفلم: ٢]؛ ولهذا رد الله عليهم وأبطل قولهم، فقال:

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [بل: ٣٧] «بل»: للإضراب الإبطالي، والباء: للمصاحبة والملازمة.

أي: بل جاء ﷺ بالحق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وبالشرع الحق العدل، والخبر الصدق؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: ظهر بمجيئه صدق الرسل فيما أخبروا وبشروا به من بعثته ﷺ؛ كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا رَسُولٍ يُاقِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. فكانت بعثته ﷺ مصداق ما أخبروا وبشروا به.

كما صدق المرسلين بأن دعا إلى ما دعوا إليه، وأخبر بما أخبروا به، وآمن برسالاتهم وشرعهم، وشهد بصدقهم؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَنَدَافِقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤١) ﴿فَوَكَهَهُمْ مَكْرَمُونَ﴾ (٤٢) ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٤٣) ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٤) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (٤٥) ﴿بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُذْفَرُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ (٤٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٤٩):

قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨)، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ للزجر، والخطاب للمشركين المستكبرين، واللام في قوله: ﴿لَذَائِقُوا﴾: للتوكيد، أي: لذائقو العذاب المؤلم الموجه؛ حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب في نار جهنم.

﴿وَمَا تُحْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٩) «إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية، أي: وما تحزون إلا عملكم. أو موصولة، أي: وما تحزون إلا الذي كنتم تعملونه. والمعنى: وما تحزون إلا جزاء وعقوبة ما كنتم تعملون، فلم نظلمكم.

وفي قوله: ﴿وَمَا تُحْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٩) دون أن يقول: «جزاء ما كنتم تعملون»: دلالة على أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، مع ما في ذلك من شدة التوبيخ لهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠) قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب، بكسر اللام: «المُخْلِصِينَ»، أي: الذين أخلصوا الله تعالى العبادة والعمل. وقرأ الباقون بفتح اللام: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠)، أي: الذين أخلصهم الله، واختصهم برحمته.

«إلا»: أداة استثناء، و«عباد»: منصوب على الاستثناء المنقطع، أي: لكن ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين أخلصوا في عبادة الله تعالى، فأخلصهم الله، واختصهم برحمته، أي: لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، بل يُتجاوز عن سيئاتهم، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٣٨) ﴿إِلَّا أَحْسَبَ الْيَمِينِ﴾ (٣٩) ﴿فِي جَنَّتِ يَسَاءُ لُونٌ﴾ (٤٠) [المدثر: ٣٨ - ٤٠]، أي: لكن أصحاب اليمين، في جنات يتساءلون.

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٤١) الإشارة تعود إلى عباد الله المخلصين، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ رفعة لشأنهم.

﴿لَهُمْ رِزْقٌ﴾، أي: لهم خاصة رزق. ونُكِّرَ للتعظيم.

والرزق: العطاء، أي: لهم عطاء عظيم واسع.

﴿مَّعْلُومٌ﴾ قد بشروا به ووعدوا، وهو الجنة وما فيها من ألوان وأصناف النعيم،

التي لا يحيط بحقائقها، وكنهها، وكميَّتها وكيفيَّتها، ذلك إلا الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

﴿فَوَاكِهُ﴾: بدل من «رزق»، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو فواكه، والجملة نعت لـ«رزق»، أي: فواكه متنوعة من كل ما تفكه فيه النفوس، وتلتذ به، وتشتهيه. وهكذا كل طعام أهل الجنة، يأكلونه على سبيل التفكه والتلذذ والتنعم، لا لحفظ النفس والصحة؛ لأن الله قد ضمن ذلك لهم.

﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ عند الله تعالى غاية الإكرام، في دار كرامته، يطوف عليهم الولدان والغلمان، ويُلقَوْنَ فيها التحية والسلام من ربهم عز وجل، ومن الملائكة الكرام، ومن بعضهم لبعض، وأعلى ذلك وأجله: مناجاة الله عز وجل، والنظر إلى وجهه الكريم.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [٤٣]: جمع جنة، و«جنان» مضاف، و«النعيم» مضاف إليه، من إضافة الشيء إلى نوعه، أي: نعيم القلب، ونعيم البدن.

﴿عَلَى سُرُرٍ﴾، أي: جالسين متنعمين على سرر، وهي المجالس المرتفعة المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة المجملية، قال تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: ١٥]، أي: مصفوفة.

﴿مُنْقَلِبِينَ﴾ بينهم بأبدانهم ووجوههم في غاية الأدب، قد صفت قلوبهم، وصدقت حبة بعضهم بعضاً، لا يستدبر أحدهم أخاه، ولا يوليه ظهره، ولا يدير له قفاه.

﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: يطوف عليهم غلمان لهم، وولدان مخلدون؛ كما قال تعالى:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ

عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّشْوَرًا﴾ [الإنسان: ١٩].

﴿بِكَأْسٍ﴾، أي: بكأس خمر ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾، أي: من أنهار جارية لا تنضب، ولا تنقطع؛

(١) سبق تخرجه.

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُؤُوسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّرْبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

﴿بَيْضَاءَ﴾، أي: بيضاء اللون، لونها مشرقٌ بهيٌّ، من أحسن الألوان.
﴿لَّذَّةٌ لِلشَّرْبِينَ﴾، أي: لذیذة الطعم، يلتذ بها شاربها حال شربها، بخلاف خمر الدنيا؛ فهي كريهة عند الشرب.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، أي: لا يحصل بسببها وجع البطن أو الصداع، أو لا تغتال عقولهم وتذهب بها؛ كما قال قائلهم:

فما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول^(١)

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الزاي: «ينزفون».

وقرأ الباقون بفتحها: «ينزفون».

أي: لا تذهب عقولهم وتسكرهم، أو لا يحصل لهم بسببها وجع البطن، أو الصداع. فميز الله خمر الجنة عن خمر الدنيا بكونها لا تنقطع أبداً، وكونها لذیذة الطعم والرائحة، ونفى عنها ما يحصل بسبب شرب خمر الدنيا؛ من ذهاب العقل، والنزيف، والصداع، وألم البطن، وغير ذلك من المكروه والأذى.

﴿وَعِنْدَهُمْ﴾، أي: وعند أهل جنات النعيم، عباد الله المخلصين.

﴿قَلَصِرَتْ أَلْطَّرْفُ﴾ الطرف: العين، أي: قاصرات الأعين، أي: الأزواج اللاتي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم؛ لعفتهن، ولجمال أزواجهن، وتعام قناعتهن بهم، فلا يطمحن إلى غيرهم؛ كما قصرن طرف أزواجهن عليهن، فلا ينظرون إلى غيرهن، ولا يعدلون بهن سواهن؛ لجمال جملهن.

فهن وهم في غاية الجمال؛ جمال الأبدان وعفتها وطهارتها، وجمال النفوس والقلوب ومحبتهم وصفاتها وسلامتها.

﴿عَيْنٌ﴾ جمع: «عيناء»، أي: واسعات الأعين، حسانها، جميلات ملامح الحدق.

(١) انظر: «المخصص» ١٧/١٦؛ «لسان العرب» مادة (غول)؛ «المعجم المفصل في شواهد العربية» ٥٦٥/٦.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾، أي: كأنهن - لرقتهن وبياضهن، ونعومة ملمسهن، وصونهن عن المس
 ﴿بِضُّ مَكُونٌ﴾، أي: كأنهن البياض الذي في البيض المكنون بقشره.
 أي: أنهن أبكار لم يطمثن أحد قبلهم؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ الْظَّرْفِ لَمْ
 يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (٥٦: الرحمن).

الفوائد والأحكام:

- ١- استكبار المشركين عن توحيد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله؛ لقوله تعالى:
 ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥).
- ٢- إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته، وأنه لا معبود بحق سواه.
- ٣- ينبغي الحذر من الكبر؛ لأنه سبب لرد الحق، وعدم قبوله؛ كما قال ﷺ: «الكبر
 بطل الحق، وغمط الناس»^(١)، أي: رد الحق، واحتقار الناس.
- ٤- تكذيب المشركين للنبي ﷺ، ورميهم له بالشعر والجنون، وتناقضهم،
 وتشبههم بأهتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آيَاتُنَا لِهَتْنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٣٦).
- ٥- إبطال قولهم ونفيه، وإثبات أن ما جاء به ﷺ هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ
 بِالْحَقِّ﴾.
- ٦- تصديقه ﷺ للمرسلين، بكونه مصداق ما أخبروا وبشروا به، وشهادته
 بصدق رسالاتهم وما جاؤوا به من الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾.
- ٧- تهديد المكذبين وتوعدهم بالعذاب المؤلم الشديد، حسياً ومعنوياً؛ لقوله تعالى:
 ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨).
- ٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، وكل يجازى بعمله، بلا
 ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٩).
- ٩- إثبات البعث والجزاء، والترغيب في إحسان العمل، والترهيب من إساءة
 العمل؛ لأن كلاً سيجازى بما عمل.

(١) سبق تخرجه.

١٠- في نسبة العمل إلى المذكورين الرد على الجبرية، الذين يقولون: إن عمل الإنسان لا ينسب إليه؛ لأنه مجبور عليه.

١١- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠) وفي هذا تكريم وتشريف لهم؛ لوصفهم بالعبودية له عز وجل، وقد أحسن القائل:

ومما زادني شرفاً وفخراً وكدت بأخصي أطأ الثرى
دخولي تحت قولك: «يا عبادي» وأن صيرت أحمد لي نبياً (١)

١٢- وعد الله تعالى لعباده المخلصين- الذين أخلصوا له العبادة، وأخلصهم واختصهم برحمته- بالنجاة من العذاب، وبما لهم من الرزق المعلوم، والفواكه والكرامة، ونعيم البدن والقلب، والراحة في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَهَهُمْ مَّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴿٤٤﴾ الآيات.

١٣- إعلاء شأن عباد الله المخلصين، ورفعتهم، والتنويه بهم، بالإشارة إليهم بإشارة البعيد، والتنويه بعظم ما أعد لهم من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٤١) الآيات.

١٤- سلامة صدور أهل الجنة، وصفاء نفوسهم، ومحبة بعضهم لبعض، وأدبهم فيما بينهم، وجلو سهم متقابلين بوجوههم وقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ (٤٤) وهذا من أعظم نعيمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ (٤٧) [الحجر: ٤٧].

١٥- أن من نعيم أهل الجنة: أنه يطاف عليهم بكأس الخمر التي لا ينضب معينها، في غاية البياض والصفاء، واللذة حال شربها، مع خلوها من جميع منغصات خمر الدنيا ومكدراتها: من ذهاب العقول، والنزيف، والصداع، وألم البطن وغير ذلك؛ لقوله

(١) هذان البيتان للقاضي عياض. انظر: «غذاء الألباب» ٢/ ٣٧٢؛ «المفاخرة بين الماء والهواء» ص ٤٦.

تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾﴾.

١٥- تمتعهم وتلذذهم بالأزواج من الحور العين والنساء، اللاتي قصرن طرفهن على أزواجهن؛ لعفتهن، وقصرن طرفهم عليهن؛ لجمالهن، واسعات الأعين حسانها؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

١٦- أن نساء أهل الجنة كلهن أبقار مصونات كالبيض المكنون؛ كرامة لهم لم يطمثهن قبلهم إنس ولا جان؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهِيَ تَك لَيْنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَدَا لَمَدِيثُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أُشْرَ مُطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَا نَحْنُ بِمَبْتِئِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُثَلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهِيَ تَك لَيْنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَدَا لَمَدِيثُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

لما ذكر ما أعده لعباده المخلصين من ألوان النعيم؛ من المأكل، والمشارب، والأزواج، والجلوس على السرر متقابلين، ذكر تبادلهم الأحاديث والأسئلة فيما بينهم، وهذا من تمام نعيمهم ولذتهم وسرورهم.

قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾، أي: فأقبل بعض أهل الجنة على بعض، يسأل بعضهم بعضًا عن أحوال كانت في الدنيا؛ تحدثًا بنعمة الله عليهم بهدايته إياهم صراطه المستقيم، وإدخالهم جنات النعيم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾، أي: كان لي في الدنيا قرين ملازم، ينكر البعث، ويدعوني إلى إنكاره.

وهذا القرين قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس؛ كما قال تعالى: ﴿شَيْطَانٍ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿١١٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ٤-٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الظُّلُمَاتِ لَنُجِزِيَنَّهُ أَلْفَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ بِمَا كَسَبَ مِنْهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

﴿يَقُولُ ﴿٥١﴾﴾، أي: يقول هذا القرين - منكرًا عليّ التصديق بالبعث، ولائًا لي على ذلك ومتعجبًا -:

﴿أَهِيَ تَك لَيْنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، والتوبيخ واللوم، واللام: للتوكيد، أي: كيف تصدق بالبعث والنشور والحساب؟ أي: لا تصدق بذلك. ولهذا قال:

﴿أَهْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلًا﴾ قرأ ابن عامر بهمزة واحدة: «إِذَا مِنَّا»، وقرأ الباقون بزيادة همزة الاستفهام: ﴿أَهْدَا مِنَّا﴾.

أي: إذا متنا وصارت أجسادنا ترابًا وعظامًا نخرة بالية.

﴿أَهْنَا لَمَدِيُونٌ﴾ قرأ نافع بهمزة واحدة: «إِنَّا لَمَدِيُونٌ»؛ وقرأ الباقون بزيادة همزة الاستفهام: ﴿أَهْنَا لَمَدِيُونٌ﴾ والاستفهام: للإنكار، واللام: للتوكيد، أي: لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا، أي: هذا أمر في غاية البعد والغرابة، والاستحالة والنكارة.

وهذا مما يوجب الحذر من قرين السوء؛ فإن صحبته شر ووبال، قبل أن يقول قائل: ﴿يَوَلِّيَنِي لِيَتَنِي لَرَأَيْتَ لِمَ أَخَذْنَا خَلِيلًا﴾ (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٨-٢٩].

قال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء؛ كحامل المسك ونافخ الكبر، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكبر إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة» (١).

وقد قيل:

إذا ما صحبت القوم فاصحب ولا تصحب الأردا فتردى مع الردي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي (٢)

وقال الآخر:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد (٣)

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أُنتَرُ مُظْلِمُونَ﴾ (٥٤) فَأَطَّلَعَ فَرَّاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لِتُزَيِّنَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْنَنَا الْأَوْلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ لِيَسْئَلِ هَذَا فَلَيعْمَلَ الْعَمَلُونَ ﴿٦١﴾:

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥٣٤، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٨؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) البيتان لعدي بن زيد. انظر: «بهجة المجالس» ص ١٥١.

(٣) البيت لأبي بكر الخوارزمي. انظر: «روضة الأخيار» ص ٣٨٨.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال هذا المؤمن الذي يتساءل مع إخوانه في الجنة، بعد أن ذكر لهم خبر قرينه الذي كان ينكر عليه التصديق بالبعث:

﴿هَلْ أَنْتُمْ مُظْلِمُونَ﴾، أي: هل أنتم مشرفون في النار؟ لننظر منزلة قريني هذا، وما صار إليه. والاستفهام للعرض، أي: للعرض عليهم؛ ليتبين قدر نعمة الله تعالى عليهم بهدائيتهم في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى جنات النعيم، بخلاف هذا القرين المكذب، الذي اختار في الدنيا طريق الضلال، فهدي في الآخرة إلى سواء الجحيم؛ فيزداد شكرهم لله تعالى على توفيقه لهم، وبضدها تمييز الأشياء.

﴿فَاطَّلَعَ قَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾، أي: فاطلع هذا المؤمن فرأى قرينه في وسط الجحيم، في غمرات النار والعذاب.

﴿قَالَ﴾، أي: قال المؤمن مخاطباً قرينه، مقررًا له وموبخًا، ومتحدثًا بنعمة الله عليه: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ﴾.

التاء: للقسم، أي: تالله إن قاربت لتردين، أي: لتهلكني بضلالك وإغوائك لو أطعتك.

﴿وَأَوْلَىٰ نِعْمَةً رَبِّي﴾ بالإيمان، ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لكنت من المحضرين معك في النار والعذاب؛ كما قال المؤمنون: ﴿وَمَا كَأَنَّ لِيَهْدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَعْدَيْنَ﴾ الاستفهام للتقرير، وفيه معنى الفرح والسرور والاعتباط بانتفاء الموت عنهم.

﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ﴾ «إلا»: أداة استثناء، بمعنى: «لكن»، أي: لكن موتنا الأولى، وقد متناها، وبعثنا بعدها؛ لننعم بدار الخلد.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ لأن الله نجانا من العذاب. وهذا يقوله المؤمن ابتهاجًا بما أعطاه الله لأهل الجنة من الخلود فيها، والسلامة من العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]، فانتفاء الموت يستلزم التأييد، وانتفاء العذاب يستلزم التنعيم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ﴾ الإشارة تعود إلى ما ذكر في الآيات السابقة مما أعد لعباد الله المخلصين من الجنة وما فيها من النعيم الحسي والمعنوي، مع الخلود الأبدي والنجاة من العذاب، واللام: للتوكيد، والفوز: الظفر المطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

﴿الْعَظِيمُ﴾ كمية وكيفية ونوعية، ومن كل وجه، الذي لا يقدر قدر عظمته إلا الذي منحه لعباده المخلصين، ووصفه بالعظيم، وهو الرب العظيم سبحانه وتعالى.

﴿لِيُمِثِلَ هَذَا﴾، أي: لمثل هذا الفوز العظيم.

﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَمَلُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: من أراد الفوز بالآخرة فليعمل له مثل ذلك في الدنيا؛ ليصيروا إليه في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿خِزْمَتُهُمْ فِي ذَلِكَ فَيَتَنَافَسُ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- كمال أدب أهل الجنة، وإقبال بعضهم على بعض عند التساؤل والمحادثة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

ويؤخذ من مفهوم هذا: أن من سوء الأدب أن يحدث المرء أخاه وهو صاعد عنه، أو متغافل، أو مدير له ظهره.

٢- تمام سرورهم، وإقبال بعضهم على بعض، والتحدث فيما بينهم، وسؤال بعضهم بعضاً عن أحوال كانت في الدنيا، تحدثاً بنعمة الله تعالى عليهم، أن وفقهم في الدنيا إلى سلوك صراطه الذي أدخلهم بسببه جنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ الآيات.

٣- أن في الكلام عن الذكريات وما جرى للإنسان فيما مضى، لذة ومرتعة وراحة للنفس، مثل: كلام الإنسان عن صباه، أو عن مواقف مرت عليه، ونحو ذلك.

٤- الاغتباط بنعمة الله تعالى وشكره في التخليص من الشر؛ لذكر هذا القائل نعمة الله تعالى عليه في تخليصه من شر قرين له منكر للبعث، ويدعوه إلى إنكاره، وينكر عليه التصديق به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ يقول لك لمن المصدقين.

٥- اجتهاد دعاة الكفر وأئمة الضلال في التشكيك بالحق، بإيراد الشبه، والتليس على الناس؛ لقول هذا القرين: ﴿أَهَذَا مِنَّا وَكَمَا تَرَأَىٰ وَعِظْمًا آهِنًا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾، أي: كيف تصدق بهذا؟ أو لا تصدق بهذا.

٦- إثبات البعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

٧- وجوب الحذر كل الحذر من قرين السوء؛ فإنه لا يفتأ يدعو قرينه إلى ما هو عليه من الضلال والشر.

٨- جواز غيبة الداعي إلى الضلال في الدنيا، إذا كان ذلك للتحذير من شره.

٩- أن الأشياء تتميز بضدها، ويُعرف قدر النعمة بالتأمل في حال من فقدها؛

لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أُنتَمُ مُظْلِمُونَ ﴿٥٤﴾﴾، أي: لنرى حال قريني في النار.

١٠- اطلاع هذا القائل ورؤيته قرينه في النار، ومخاطبته إياه؛ مقررًا وموبخًا له،

ومذكرا بفضل الله تعالى ونعمته عليه أن أعاده من شره، وأنعم عليه بالهداية، والنجاة

من النار والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدَّتْ لَتُرِيدِنِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

١١- التحدث والاعتراف بنعمة الهداية وغيرها من نعم الله تعالى، وشكر الله

تعالى عليها.

١٢- أن الردى والهلاك الحقيقي هو الهلاك في الدين، وهو الخسران المبين؛ لقوله

تعالى: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدَّتْ لَتُرِيدِنِ ﴿٥٦﴾﴾.

وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره وما لكسر قناة الدين جبران^(١)

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه؛ لقوله: ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾.

١٤- تقرير وإثبات أن أهل الجنة لا يموتون، بل مخلصون أبدًا، واغبتاهم بذلك

وسرورهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوَلَّتْنَا الْأُولَىٰ﴾.

١٥- أن من دخل الجنة فقد اقتحم العقبة، ونجا من العذاب؛ لقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ

(١) البيت لأبي البقاء الرندي. انظر: «مجانى الأدب في حداث العرب» ٩٧/٤.

بِمُعَدِّينَ ﴿٦٠﴾ .

١٦- كمال نعيم أهل الجنة بانتفاء الموت عنهم، وانتفاء العذاب.

١٧- أن الفوز العظيم حقاً هو الفوز بدخول جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولا يقدر قدر هذا الفوز إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو الرب العظيم سبحانه وتعالى.
١٨- أن هذا الفوز العظيم بجنات النعيم، هو الذي ينبغي أن يعمل له العاملون، ويجدّ في طلبه المشمرون؛ لأنه غاية المطالب وأعلاها وأبقاها؛ لقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ .

مع أخذ الإنسان نصيبه من الدنيا، وجعلها مطية لهذا الفوز العظيم.

١٩- سفه من جعل همه الدنيا- كما هو حال كثير من الناس- فأفنى عمره وحياته في طلبها، وجعل عمله وجهده في جمع حطامها، وغفل عن طلب هذا الفوز العظيم في الآخرة.

٢٠- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبوراً على أفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلِ

الْعَامِلُونَ﴾ ، وفي هذا رد على الجبرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٧﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبَاطُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ أَقْوَاءُ آبَاءِهِمْ ضَالِّينَ ﴿١٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَنعَمْ الْمُجِيبُونَ ﴿٢٥﴾ وَخَجَلْنَا وَأَهْلُهَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ وَحَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا بَاقِينَ ﴿٢٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٨﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٣٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٧﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبَاطُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ أَقْوَاءُ آبَاءِهِمْ ضَالِّينَ ﴿١٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٢٠﴾:

قوله: ﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿١٦﴾﴾ الاستفهام: للتهكم، والإشارة إلى ما أَعَدَّه اللهُ لعباده المخلصين في الجنة من النعيم، والفوز العظيم.

«نزلًا»: تمييز، أي: ضيافة، والنزل: ما يعد للنازل والضيف من الكرامة؛ من الأكل والشرب، والمسكن والفراش، ونحو ذلك.

﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿١٦﴾﴾ «أم»: حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام، أي: أو شجرة الزقوم، وهي: شجرة خبيثة المنظر، مرة الطعم، كريهة الرائحة.

يتزقمونها تزقماً، أي: يتلعونها ابتلاعاً مكروهاً؛ لقبح منظرها، وكراهة رائحتها، ومرارة طعمها؛ وهي طعام أهل النار، تغلي في بطونهم كالحميم، ملعونة في القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴿١٦﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿١٧﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطْنِ ﴿١٨﴾ كغلي الْحَمِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكْدُوبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونُونَ مِن شَجَرٍ مِّنْ زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الواقعة: ٥١-٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٦٠].

أي: أذلك النعيم الذي أَعَدَّه اللهُ لأهل الجنة خير نزلاً وضيافة، أم شجرة الزقوم التي أَعَدَّتْ طعاماً وضيافة لأهل النار؟

أي: لا شك أن ذلك النعيم الذي أعده الله نزلاً لأهل الجنة هو الخير كل الخير، لا ما أُعد من شجرة الزقوم لأهل النار؛ فهو شر محض، وشتان ما بين الضيافتين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان (١)
﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ (٦٣)، أي: ابتلاءً للظالمين بالشرك، واختباراً لهم؛ لأنهم لو آمنوا لصدقوا، ولم يعترضوا، وسبباً لضلالهم؛ لأنهم جعلوا من ذلك مطعناً فيما أخبر به الرسول ﷺ، فقالوا: كيف يزعم محمد أن الشجر ينبت في النار؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرِّئَآءَ الَّتِي أَرَبْتِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ كما أنها عذاب لهم ونكال، يأكلونها كالمهل تغلي في بطونهم.

﴿ إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ (٦٤)، أي: أصل منبتها في قعر الجحيم وقرارها، منبتها شر المنابت، خلقت من النار، وغذيت النار.

ويحتمل: أنها شجرة واحدة كبيرة تملأ النار كلها بأغصانها، ويحتمل أن المراد بـ«شجرة»: الجنس والنوع، فهي كثيرة متعددة في النار.

﴿ طَلْعُهَا ﴾، أي: ثمرها وجناها، ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ ﴾، أي: يشبه رؤوس الشياطين، وهذا تقبيح وتبشيع لطلعها؛ لأن رؤوس الشياطين ليست معروفة عند المخاطبين، وإنما استقر في النفوس قبح مناظرهم وأوصافهم.

﴿ فَأَنَّهُمْ ﴾، أي: الظالمون، ﴿ لَا يَكُونُ مِنْهَا ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لا يكون من شجرة الزقوم مع قبحها وقبح طلوعها؛ لشدة جوعهم، واضطرارهم وإجبارهم على الأكل منها من غير شهوة، ولا لذة؛ تعذيباً لهم؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ (٦٣). [الصافات: ٦٣].

﴿ فَمَا لَوْ أَنَّ أَبْطُونَ ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فمالئون منها بطونهم؛ لكونهم لا يشبعون، ولا يضطرونهم إلى ذلك، وإجبارهم عليه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» ص ١١.

معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!» (١).

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيَّهَا﴾، أي: ثم إن لهم بعد أكلهم من شجرة الزقوم، وملء بطونهم منها، ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب: وهج النار، ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء حار بالغ غاية الحرارة، إذا قربوه من وجوههم ليشربوه شوى وجوههم، فتساقط لحومهم من شدة حرارته، فإذا شربوه قطع أمعاءهم.

والشوب أيضًا: الخلط، أي: ثم إن لهم بعد أكلهم من هذه الشجرة الخبيثة وشدة عطشهم، ماء قد بلغ غاية الحرارة، يشربونه فيختلط بالماكول منها، فيصير شوبًا له.

فالوهج يكون قبل الشرب وعنده، والشوب يكون بعد الشرب، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْجِلُوا بِغَائِثٍ مِّمَّا كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

فيشربون من هذا الماء الذي قد بلغ غاية الحرارة شرب الإبل العطاش؛ لشدة عطشهم، وإجبارهم على ذلك، تعذيبًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ مِن غَيْرِ حَمِيمٍ﴾ (٥٤) ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ مِن غَيْرِ حَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ﴾، أي: مردهم ومصيرهم ومآلهم.

﴿لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لإلى النار المتوهجة المتأججة، المتوقدة المستعرة، لا يخرجون منها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَاةٌ أَبَاءٌ مُّضَاهٍ﴾ (٦١) تليل لجعل شجرة الزقوم ابتلاءً للظالمين، وعذابًا لهم، بأكلهم منها، حتى ملء بطونهم، وإتباع ذلك بشوب من حميم.

أي: جازيناهم بذلك؛ لأنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم ضالين، أي: تائهين عن الحق، وعلى غير هدى.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ (٧٠)، أي: فهم على مسالكهم وطرقهم في الضلال،

(١) أخرجه الترمذي في صفة جهنم، ما جاء في شراب أهل النار ٢٥٨٥، وابن ماجه في الزهد، صفة النار

٤٣٢٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

يسرعون في تقليدهم ومتابعتهم، من غير دليل ولا برهان؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ الواو: استثنائية، واللام: لام القسم لقسم مقدر. أي: والله لقد ضل قبل هؤلاء الضالين من قومك يا محمد، الذين اتبعوا آباءهم في الضلال.

﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: أكثر الأمم الماضية، ولم يهتد منهم إلا القليل، فليس قومك يا محمد بدعاً في الضلال. وفي هذا تسلية له ﷺ.

وقد عرضت عليه ﷺ الأمم، فرأى النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد^(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾، أي: ولقد أرسلنا في تلك الأمم الماضية ﴿مُنذِرِينَ﴾، أي: رسلاً يحذرونهم من الضلال، ويخوفونهم من عذاب الله تعالى وحرمان ثوابه؛ كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، فما نجح ذلك فيهم. ولم يذكر البشارة هنا؛ لأن المقام مقام تهديد؛ ولهذا قال:

﴿فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ولكل من يصح خطابه.

أي: فانظر وتأمل ببصرك وبصيرتك كيف كانت عاقبة المنذرين، الذين أُنذروا وحذروا عذاب الله، ولم ينجح ذلك فيهم، فلم يحذروا ولم يخافوا، أي: كيف كان عاقبتهم ونهايتهم المؤلمة، وما حل بهم من العذاب والهلاك، والحزني والفضيحة؟ ولم يقل: انظر ماذا كان عاقبة المنذرين؟ بل قال: ﴿فَأَنْظَرُوا كَيْفَ﴾، أي: انظر إلى

بعض

(١) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كيفية عاقبتهم، وشدة عقابهم، وبيذا كان، ومناسبتة لذنبهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ومن نظر إلى الكيفية نظر إلى الغاية، وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين له ﷺ مما حل بالمكذبين قبلهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٧٤) «إلا»: أداة استثناء، و«عباد»: منصوب على الاستثناء المنقطع، أي: لكن عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، وأخلصهم عز وجل لنفسه، واصطفاهم، واختصهم برحمته، أي: فلهم العاقبة الحسنى. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَّمْ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٨٢):

لما ذكر ضلال أكثر الأولين، وسوء عاقبة المكذبين، وإهلاكهم، إلا من أنجى الله من المؤمنين، شرع في تفصيل ما وقع لبعض الأمم، وبدأ بنوح عليه السلام؛ لبيان أن الضلال بدأ منذ أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا﴾، أي: نادانا ودعانا نوح عليه السلام، بعد أن لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، واشتد عليه تكذيبهم، وأيس منهم، وأعلمه الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، نادى ودعا ربه: ﴿أَنِّي مَعْلُوبٌ فَاَنْصُرْ﴾ [القمر: ١٠]، ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ الفاء: عاطفة، واللام: لام القسم للقسم المقدر في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا﴾.

أي: فلنعم المجيبون نحن له ولدعاء الداعين، إذا اقتضت الحكمة ذلك، بوجود الشروط، وانتفاء الموانع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿وَنَجَّيْنَاهُ فِي الْسَفِينَةِ﴾ «وأهله» خاصة، وكذا من آمن معه، وهم قليل.
 كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
 وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].
 ﴿مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ «الكرب»: الشدة والضيق، ضد السعة.

والمراد بـ﴿الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾: كرب الموت بالغرق بالطوفان، ولا شيء في الدنيا أعظم
 من كرب الموت، ومن أشد ذلك وأعظمه: الموت بالغرق؛ لأن الغريق يؤمل النجاة،
 ويحاول بكل قواه أن ينجو، ويدافع الموت وكأنه ينظر إليه، ولهذا صار كرب عظيمًا،
 ومثله الحريق، ونحوه.

واستثنى الله عز وجل من أهل نوح ابنه وامرأته، فكانوا في عداد المغرقين الهالكين؛
 كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ أَهْلِ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ قَالَ بَنُوهُ
 إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿هود: ٤٥-٤٦﴾.

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَمَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٣].
 وقال تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
 عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ
 الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحریم: ١٠].

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ﴾، أي: وصيرنا ذريته، أي: نسله.
 ﴿هُمُ الْبَاقِينَ﴾ «هم»: ضمير فصل، يفيد التوكيد والحصر، أي: هم الباقين وحدهم،
 حيث هلك كل من على وجه الأرض بالطوفان، فلم يبق بعد ذلك إلا ذرية نوح الذين
 حملهم معه في السفينة، ثم تناسل الناس منهم بعد ذلك. قيل: من أولاد نوح الثلاثة: سام،
 وحام، ويافث.

عن سمرة؛ أن النبي ﷺ، قال: «سام: أبو العرب، وحام: أبو الحبش، ويافث: أبو
 الروم»^(١).

(١) أخرجه أحمد ٥ / ٩، والترمذي في التفسير ٣٢٣١.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾، أي: على نوح، أي: أبقينا عليه، ونشرنا له ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً، ولسان صدق ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ وهم كل من يأتي بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة؛ ولهذا خلد الله ذكره، وأثنى عليه أعظم الثناء في القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَكَمْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٣﴾ [الإسراء: ٣].

وفي هذا أعظم الثناء وأبلغه، جمع الله له فيه بين وصف القيام بالعبودية، والشكر لله عز وجل.

﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧١﴾ «سلام»: مبتدأ، ونكر للتعظيم، أي: سلام عظيم؛ لأنه سلام من الله تعالى، وهو مبين لما أبقى الله عليه، ونشر له من الذكر الجميل، والثناء الحسن، ولسان الصدق، والسلامة من الشرور.

كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ [الصفات: ١٠٨-١٠٩].

وقال عن موسى وهارون: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١١١﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ [الصفات: ١١٩-١٢٠].

وقال عن إلياس: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ سَلَّمَ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ ﴿١٢٠﴾ [الصفات: ١٢٩-١٣٠].
وزيد في السلام على نوح قوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ والمراد بهم: كل من جاء بعده من القرون والأمم؛ لأنهم ينتمون إليه ومن ذريته، فالسلام عليه منهم على الدوام.
كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ تعليل لما قبله، أي: مثل ما جزينا نوحاً بأن أبقينا عليه، ونشرنا له ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً، ولسان صدق في الآخرين، وسلاماً في العالمين؛ لأنه كان محسناً في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، فكذلك نجزي غيره من المحسنين؛ بأن نجعل لهم لسان صدق، وذكراً جميلاً، وثناءً حسناً بحسب مراتبهم في الإحسان، ونأهيك عما جعل الله عز وجل من الذكر الحسن، والثناء الجميل في قلوب الناس، وعلى ألسنتهم؛ لأتباع الرسل عليهم السلام، وبخاصة أصحاب النبي ﷺ،

وعلماء الإسلام الذين كتب الله لهم القبول عند الناس، ولا يقدر في هذا عداوة من عاداهم من شذاذ الخلق؛ إذ لم يسلم من ذلك الأنبياء عليهم السلام؛ كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١) تعليل لكونه من المحسنين؛ كما أن كونه من المحسنين تعليل لما قبله، أي: لأنه من عبادنا المصدقين باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، الذين جمعوا بين أكمل الأوصاف وأشرفها؛ وهما: العبودية، والإيمان. أي: جزيناه بهذا الجزاء العظيم؛ لجمعه بين كمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان، وهذا كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ [الصافات: ١١٠-١١١].

وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ [الصافات: ١٢١-١٢٢].

وقال تعالى عن إلياس عليه السلام: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٣) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [الصافات: ١٣١-١٣٢].

﴿ثُمَّ أَمْزَقْنَا الْأَخْرِينَ﴾ (٨٢)، أي: من عاداه وعدا أهله، ومن آمن به، أي: بقية قومه جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَفَنَحْنَا أَيْتَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مِنْهُمْ﴾ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴿١٤﴾ [القمر: ١١-١٤].

وفي التعبير بقوله: ﴿الْأَخْرِينَ﴾: احتقار لهم، وتقليل لشأنهم.

الفوائد والأحكام:

- ١- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فلما ذكر ما أعد لأهل الجنة من النعيم، ذكر ما أعد لأهل النار من العذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (١٢) الآيات.
- ٢- شتان بين ما أعد الله لعباده المخلصين؛ من الجنات، وما فيها من ألوان النعيم، وبين ما أعد للظالمين المشركين المكذابين؛ من الزقوم والحميم، والمرجع إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (١٢) الآيات.

٣- إثبات الجزاء يوم القيامة، والتهكم بمن آثروا الدنيا على الآخرة، وفرطوا في طلب الجنة والنعيم، واختاروا طريق العذاب والجحيم.

٤- ابتلاء الظالمين المكذبين بذكر شجرة الزقوم، التي تخرج في أصل الجحيم؛ ليظهر عدم إيمانهم، وتكون زيادة في ضلالهم، وتعذيبهم بالأكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (١٣).

٥- قدرة الله تعالى التامة، وحكمته في إخراج شجرة الزقوم في أصل الجحيم، والجمع بين المتضادات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (١٤).

وكما قال تعالى للنار: ﴿يَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

قال المفسرون: لولا أن الله قال: ﴿وَسَلَامًا﴾ لأضرَّ به بردها.
قال الشاعر:

من ظاهر الحكم الكبرى وباطنها هذا السحاب به ماء به نار^(١)

٦- ضلال من يعتمد على العقل فقط، أو الحس في إثبات الأشياء أو نفيها.

٧- بلوغ القرآن الغاية في التنفير مما يريد التنفير منه، في تشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين، التي وإن لم تكن معلومة في الحس، فإنها أقبح شيء في التصور؛ لقوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهٗ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصافات: ٦٥].

٨- إثبات أن للشياطين أجسامًا محسوسة، ورؤوسًا، والرد على من يقول: إنهم قوى الشر، وليس لهم أجسام ولا أبدان تحس.

٩- اضطرار أهل النار للأكل من شجرة الزقوم؛ لشدة جوعهم، وملء بطونهم منها لكونهم لا يشبعون، والشرب عليها من شوبٍ من حميم؛ لشدة عطشهم، وإجبارهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّيَّمُوا لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ تَوْنٌ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (١٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (١٧).

١٠- أن مرجع الظالمين والمشركين المكذبين، ومآلهم إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

(١) هذا البيت لوليد الأعظمي، شاعر عراقي، من ديوانه «الزوابع».

إِنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ وفي هذا إشارة إلى تأييد النار، وخلود أهلها فيها.

١١- أن سبب جعل شجرة الزقوم ابتلاءً للظالمين، وعذاباً ونكالاً لهم، مع شوب الحميم: أنهم وجدوا آباءهم ضالين، فاتبعوهم على ما هم عليه من الضلال، من غير دليل ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَقْوَاءُ آبَاءِ مُرْضِلِينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ ﴿٧٠﴾.

١٢- إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَقْوَاءُ آبَاءِ مُرْضِلِينَ ﴿٦٩﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾.

١٣- ذم التقليد الأعمى، والتحذير من تقليد الآباء أو غيرهم على جهل وضلال.

١٤- إطلاق اسم الآباء على الأجداد؛ لقوله تعالى: ﴿أَقْوَاءُ آبَاءِ مُرْ﴾ وهذا يشمل الآباء الأدينين ومن فوقهم.

١٥- بيان ضلال أكثر الأولين من القرون والأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ ﴿٧١﴾﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ بأن قومه ليسوا بدعاً في الضلال.

١٦- ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم على الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

١٧- إقامة الحجة على أولئك الأقوام بالإنذار والتحذير، لكن ذلك لم ينجع فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

١٨- أن الحجة لا تقوم على الناس إلا بإرسال الرسل والنذر؛ كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

ولهذا اختلف أهل العلم في أهل الفترة، والذين لم تبلغهم الرسالة، وأصح الأقوال في ذلك- والله أعلم- أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، فمن أطاع دخل الجنة، ومن كفر دخل النار.

١٩- الحث على النظر والتأمل كيف كانت عاقبة المكذبين، وكيفية عقوبتهم، وشدتها، ومناسبتها لذنبهم، والحذر مما أصابهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ وفي هذا تهديد للمكذبين له ﷺ.

٢٠- حسن عاقبة عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، فأخلصهم

تعالى لنفسه، واختصهم برحمته، وأن عاقبتهم النجاة والفوز؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٧٦) وفي هذا ترغيب وحث على الإخلاص.

٢١- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة.

٢٢- أن من حسن عرض الأخبار والحقائق: التفصيل بعد الإجمال؛ فقد ذكر الله ضلال كثير من الأولين، وسوء عاقبة المكذبين وإهلاكهم، إلا من أنجى الله من المؤمنين، ثم شرع في تفصيل أحوال عدد من الرسل وأمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا﴾ والآيات بعدها.

٢٣- فضيلة نوح عليه السلام، وثناء الله تعالى عليه بلجونه إلى ربه، ودعائه إياه بنصره على قومه، بعد أن طال مكثه فيهم يدعوهم إلى الله، وأيس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

٢٤- امتداحه عز وجل لنفسه في استجابته دعاء نوح، ودعاء الداعين، وكمال إجابته، وتمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

٢٥- إثبات السمع لله تعالى، وأنه سميع مجيب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ولا إجابة إلا بعد السمع.

٢٦- الحث على دعاء الله تعالى، والترغيب فيه.

٢٧- امتنان الله تعالى على نوح عليه السلام بإنجائه وأهله من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦).

٢٨- لا أشد في الدنيا من كرب الموت، ومن أشد ذلك وأعظمه كرباً: الموت غرقاً، ونحو ذلك.

٢٩- أن من بقي من الناس بعد نوح عليه السلام كلهم من ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّالْبَاقِينَ﴾ (٧٧).

٣٠- تكريمة الله عز وجل لنوح عليه السلام، بجعل ذريته الذين حملهم معه في السفينة هم الباقين فقط، وتناسل الناس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّالْبَاقِينَ﴾ (٧٧).

٣١- إفضاله عز وجل على نوح عليه السلام بما أبقى عليه، ونشر له فيمن بعده

من الذكر الجميل، والثناء الحسن، ولسان الصدق، والسلام عليه في العالمين بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

٣٢- الثناء على نوح عليه السلام بكمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان، وأن الله عز وجل امتن عليه بما ذكر، وأعطاه من الفضل ما أعطاه؛ لأنه كان من المحسنين في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، وكان من عباد الله المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾.

٣٣- وعد الله تعالى للمحسنين بإبقاء الذكر الجميل والثناء الحسن لهم، ولسان الصدق، حسب مراتبهم في الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

٣٤- إثبات عبودية نوح، والرسول عليهم السلام، والمؤمنين لله تعالى، عبودية خاصة.

٣٥- الترغيب في الإحسان، والعبودية لله تعالى والإيمان، والتنويه بشأن المحسنين، وعباد الله المؤمنين.

٣٦- أن الله عز وجل يُرتب الثناء والثواب، والذم والعقاب على الأوصاف، لا على الأشخاص، فمن أحسن وآمن فهو ممدوح مثاب أيًا كان، ومن أساء وكفر فهو مذموم معاقب كائنًا من كان.

٣٧- انتصار الله عز وجل لنوح عليه السلام، وإغراق المكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَعْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

٣٨- كمال وعد الله تعالى بإنجائه نوحًا وأهله ومن معه من المؤمنين؛ وإغراق المكذبين وإهلاكهم، وفي هذا بشارة للنبي ﷺ وتسلية، ووعيد وتهديد للمكذبين من قومه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّهَا إِلَهَةُ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَتَنظَرْتُمْ تَرْفَةً فِي التُّجُورِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنُتِلَّوْا عَنْهُ مُنْذِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَأَى إِلَهَ الْهِنَمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَمِيمِ ﴿٩٧﴾ فَاَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴿١٠٢﴾ قَالَ يَا بَنِيَّ أَعْمَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ سَأَلْتَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَّمَهُ الْجِبْرِيْنِ ﴿١٠٤﴾ وَوَدَّعْتَهُ أَنْ يَبْتَازَ هِيمًا ﴿١٠٥﴾ فَذُودَتْ الرُّبِّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٧﴾ وَوَدَّعْتَهُ بِذِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٩﴾ سَلَّمَ عَلَيْنَا مِنْ أَزْهِمَةٍ ﴿١١٠﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ وَوَدَّعْتَهُ بِأَسْحَقَ بَيْنًا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّهَا إِلَهَةُ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾:

لما ذكر قصة نوح عليه السلام، أول الرسل، وأحد أولي العزم من الرسل، أتبع ذلك بذكر قصة إبراهيم، أفضل أولي العزم من الرسل بعد محمد ﷺ، وإمام الحنفاء.

قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ﴾، أي: وإن من شيعة نوح عليه السلام، أي: من أتباعه، وعلى منهاجه في الدعوة إلى الله تعالى.

﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لإبراهيم الخليل عليه السلام.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ «إذ» في الموضعين: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف، تقديره:

اذكر، أي: حين أتى ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الباء: للمصاحبة، أي: بقلب بريء من الشرك، ومن كل اعتقاد باطل، وخلق ذميم، سليم من الشكوك والشبهات والشهوات.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾، أي: حين قال لأبيه آزر وقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ «ما»: اسم

استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي تعبدونه؟

أو «ماذا» كلها اسم استفهام. والاستفهام: للتوبيخ والإنكار.

﴿أَفِكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (٨٦) الاستفهام: للتوبيخ وتأكيد الإنكار، و«إفكًا»: مفعول به منصوب مقدم لـ«تريدون»، و«آلهة»: بدل من «إفكًا»، ومعنى «إفكًا»، أي: كذبًا، ﴿دُونَ اللَّهِ﴾، أي: غير الله.

أي: أتريدون وتطلبون وتبتغون آلهة إفكًا وكذبًا غير الله تعبدونها؟! وفي هذا أيضًا تسفيه لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة: ١٣٠).

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) الفاء: عاطفة، و«ما»: للاستفهام، أي: فما ظنكم برب العالمين أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ والاستفهام على هذا للتهديد والوعيد.

أو فما ظنكم برب العالمين؟ هل يرضى أن تعبدوا معه غيره؟ والاستفهام على هذا للنفي والإنكار.

أو فما ظنكم برب العالمين حين عبدتم معه غيره، ولم تقدره عز وجل حق قدره، فلو ظننتم به ما هو أهله من الكمال والعظمة ما عبدتم غيره؟ وكل هذا من سوء الظن بالله، وعدم تقديره حق قدره.

قوله تعالى: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨٩) ﴿فَنُودِيَ عَنْهُ مَدِينِينَ﴾ (٩٠) ﴿فَرَأَى إِلَى الْهَيْمَنِمِ فَقَالَ أَلَا تَأْتَانَا كُؤُونَ﴾ (٩١) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ (٩٢) ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (٩٣) ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِفُونَ﴾ (٩٤) ﴿قَالَ اتَّعَبُودُونَ مَا لَنْجَحُونَ﴾ (٩٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَنِيمِ﴾ (٩٧) ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨):

قوله: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨)، أي: رفع بصره إلى النجوم متفكرًا فيما يعتذر به عن الخروج معهم إلى عيدهم؛ بغية أن ينفرد بأصنامهم.

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨٩)، أي: فقال لهم معرّضًا بما يمنعه من الخروج: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: مريض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله؛ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ

فَعَلَهُمْ كَبِيرُهُمْ ﴿[الأنبياء: ٦٣]، وقوله في سارة: «هي أختي» (١).

قال ابن كثير (٢): «هذا ليس هنا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني؛ كما جاء في الأثر: «إن في المعارض مندوحة عن الكذب» (٣).

﴿فَنَوَلُّوْا عَنهُ مَدْبِرِيْنَ ﴿١٠﴾﴾، أي: فذهبوا عنه وتركوه، وخرجوا إلى عيدهم.

﴿فَرَاغَ إِلَى الْهَيْبَمِ﴾، أي: فمال مسرعاً خفية إلى أصنامهم التي يعبدونها.

﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُوْنَ ﴿١١﴾﴾ الفاء: عاطفة، و«ألا»: أداة عرض، أي: كلوا. قيل: وكانوا

يضعون الطعام عندها للتبرك بها ثم يأكلونه، أو باعتقاد إطعامها وإكرامها.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿١٢﴾﴾ «ما»: اسم استفهام، أي: أي شيء يمنعكم من النطق؟

وهذا الاستفهام والعرض قبله للتهكم والتحقير والاستهزاء والسخرية، وإلزام عابديها بأنها لا تستحق العبادة؛ لأنها لا تأكل ولا تتكلم، ولا تعقل ولا تعلم، فهي أنقص من الحيوان الذي يأكل وينطق، فكيف تعبد من دون الله؟

وإنما خاطب هذه الآلهة مخاطبة من يعقل في قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُوْنَ﴾ وقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا

تَنْطِقُونَ ﴿١٢﴾﴾ تنزلاً مع اعتقادهم فيها أنها تعقل وتنفذ وتضر.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فمال وأقبل على هذه الآلهة ﴿صَرَبًا بِالْيَمِينِ﴾ «صرباً»: مفعول

مطلق لفعل محذوف، أو مصدر في موضع الحال، أي: يضربها ضرباً قوياً شديداً،

﴿بِالْيَمِينِ﴾، أي: بيده اليمنى؛ لأنها أشد وأقوى؛ كقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُدُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ

لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨]، قال الشَّخَّخ (٤):

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ٣٣٥٨، ومسلم في

الفضائل ٢٣٧١، وأبو داود في الطلاق ٢٢١٢، والترمذي في التفسير ٣١٦٦.

(٢) في «تفسيره» ٨ / ٢١.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبه في «المصنف» ٢٦٠٩ عن عمران بن حصين رضي الله عنه، موقوفاً عليه. وأخرجه

البخاري في «الأدب المفرد» ص ٣٠٥، والبيهقي في «السنن الكبرى» ٣٣٦ / ١٠ (٢٠٨٤٢).

(٤) انظر: «ديوانه» ص ٧١.

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابية باليمين
فكسرها وحطمها؛ كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ﴾ (٥٨) [الأنبياء: ٥٨].

﴿قَابَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ (٦١) ﴿قرأ حمزة بضم الياء: «يُزْفُونَ»؛ وقرأ الباقون بفتحها:
«يَزْفُونَ»﴾.

أي: فأقبلوا إلى إبراهيم يعدون مسرعين غاضبين، يريدون أن يوقعوا به، وينتصروا
لأهنتهم، بعدما بحثوا عمن فعل ذلك، وعرفوا أنه إبراهيم؛ كما جاء ذلك مبسوطاً في
سورة الأنبياء، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٨) ﴿قَالُوا سَمِعْنَا
فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦١)، إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦١) ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) [الأنبياء: ٥٩-٦٧].

﴿قَالَ اتَّعِبُدُونَ مَا تَحْتُونَ﴾ (٦٥) الاستفهام: للإنكار والتفريع والتوبيخ، و«ما»: موصولة.
أي: قال إبراهيم عليه السلام لقومه- لما جاؤوا إليه ليعاتبوه على تحطيم
أصنامهم- منكرًا عليهم عبادتهم إياها، ومقرعًا لهم وموبخًا، وعائبًا عليهم: أتعبدون
الذي تنحتونه؟! أي: كيف تعبدون الذي تصنعونه بأيديكم؟! وهل يليق عقلاً أن
يكون المعبود مصنوعاً لعباده؟!!

هذا لا يليق، يصنع الرجل بيده الصنم، ثم يعبده، ويتضرع إليه، ويتعلق به،
ويرجو منه جلب النفع ودفع الضرر، هذا من أسفه السفه! وصدق الله العظيم: ﴿أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ
تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤٦) [الحج: ٤٦].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٦) الواو حالية، أي: والحال أن الله خلقكم.

﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: وخلق الذي تعملونه. أو
مصدرية، أي: وعملكم، أي: فهو عز وجل أحق بالعبادة وحده؛ لكونه خالقكم وخلق
ما تعملون.

فلما قامت عليهم الحجة، عدلوا إلى أخذه بالقوة والقهر: ﴿قَالُوا﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَبْتُوا لَهُ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجله ﴿بُنَيْنًا﴾ نكر للتعظيم، أي: بنياناً عظيماً عالياً، وذلك ليجمعوا فيه حطباً كثيراً، ويوقدوا فيه ناراً عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿فَالْقُوَّةُ فِي الْحَجِيمِ﴾ الفاء: للترتيب والتعقيب، أي: فاطر حوه في النار الشديدة الوقود؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ «الكيد» في الأصل: تدبير الأذى خفية، وإيقاع الخصم من حيث لا يشعر، والمعنى هنا: فأرادوا إيقاع الأذى والضرر به خفية وعلناً، وليقتلوه أشنع قتلة بإحراقه بالنار.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾، أي: المغلوبين الأخسرين. والأسفل: الذي بلغ غاية السفلى والحقارة، والنزول والدنو.

أي: رددنا كيدهم في نحورهم، وجعلنا النار على إبراهيم برداً وسلاماً؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَنَابْنَارِ كُوفٍ بُرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ و﴿أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

فجعله الله تعالى هو الأعلى؛ بأن سلمه مما أرادوا به من إهلاكه، وأكرمه بأمر خارق للعادة؛ بأن جعل النار عليه برداً وسلاماً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿١١٠﴾ رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١١١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَاقَتِ أَفْعَلْ مَا نُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١١٣﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَأْتِرَهِمُ ﴿١١٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١١٦﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٢٣﴾

قوله: ﴿وَقَالَ﴾، أي: وقال إبراهيم عليه السلام لما نصره الله تعالى على قومه، وأنجاه الله من النار، وأيس من إيمانهم:

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، أي: إني مهاجر إلى ربي، قاصداً الأرض المباركة أرض الشام. وهذه أول هجرة في سبيل الله، والإضافة في قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إضافة تعطف وتحن وتضرع إلى ربه عز وجل أن يدبره إلى ما فيه مصلحته، بعدما لقي من قومه من التكذيب والأذى؛ ولهذا قال:

﴿سَيِّدِينَ﴾، أي: سيرشدي ويوفقني إلى ما فيه الخير لي من أمر ديني ودنياي؛ كما قال في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الآية: ٢٦]، وقال في سورة مريم: ﴿وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيحًا﴾ [الآية: ٤٨].

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، أي: يا رب، أعطني ولداً يكون من الصالحين، المخلصين لك، المتبعين شرعك. وذلك ليستعين به ويأنس، عوضاً من قومه وعشيرته الذين كانوا غير صالحين، وناصبوه العداة وآذوه، ففارقهم، فاستجاب الله له، فقال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعُلْمٍ حَلِيمٍ﴾ [١١١] الفاء: للتعقيب، والبشارة: الخبر السار، أي: فاستجبنا دعاءه، ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعُلْمٍ حَلِيمٍ﴾.

والمراد به: إسماعيل عليه السلام، أكبر ولد إبراهيم، ولد له على كبر سن، وهو أبو العرب.

ووصفه هنا بقوله: ﴿حَلِيمٍ﴾ لأنه أنسب في هذا المقام، أي: ذي حلم وتأن، وعقل ورشد.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾، أي: بلغ هذا الغلام - وهو إسماعيل - مع أبيه إبراهيم ﴿السَّعْيَ﴾، أي: المشي معه، ومصاحبته، وليس له حينذاك ولد سواه، ابتلاه الله تعالى بأمره بذبحه أشد ما كان تعلقاً به، قيل: كان عمره ثلاث عشرة سنة، وقيل: سبع سنين، أو بين ذلك.

﴿فَكَالَ يَبْنَىٰ﴾ بالتصغير تلطفاً معه، ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، أي: إن الله أراني في المنام أني أذبحك، أي: أخبرني وأمرني بالمنام أني أذبحك؛ ولهذا قال إسماعيل: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

روى ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء وحي»^(١).
﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر الراء، فيصير
بعدها ياء: «تُرى»؛ وقرأ الباقون بفتحها، فيكون بعد الراء ألف: ﴿تَرَىٰ﴾.
لم ينزعج إبراهيم عليه السلام لما رأى لقوة يقينه، لكنه عرض ذلك على ابنه؛
ليختبر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم، وليستعد له ويتجلد، ويتذرع بالصبر
الجميل، وليظهر تقبله لأمر الله، ويكون شريكاً لأبيه في الأجر، ويكون أهون عليه،
وليس ذلك لاستشارته؛ إذ لا يمكن أن يستشير إبراهيم ابنه في فعل ما أمره الله به
وتفذيده؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ﴾، أي: سأنفذ حكم ما رأيت، ولم يقل: «إني رأيت»؛ لأن
رؤيا الأنبياء حق، وفعلهم بأمر الله تعالى؛ لأنهم معصومون.
فقوله: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، أي: فكر في أمرك، واستعد لذلك، فأجاب الابن
جواباً عجبياً عظيماً.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ أَفَعَلْ مَا تَأْمُرُنِي﴾، أي: افعل ونفذ الذي تؤمر به، أي: امض لما أمرك الله
به، ولا تتردد. ولم يقل: افعل ما رأيت، أو لا مانع عندي، ونحو ذلك، بل قال: ﴿أَفَعَلْ
مَا تَأْمُرُنِي﴾ تذكيراً لأبيه بأمر الله له بذلك، وحثاً له على تفذيده.
قيل: خاف إسماعيل أن تدرك أباه رحمة الولد، فيراجع الله عز وجل في ذلك.
﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ السين: للتنفيس، وتفيد تحقق وقوع الشيء
وقربه، أي: ستجدني إن شاء الله من الصابرين على هذا البلاء العظيم، أي: من جملة
المتصفين بالصبر حقاً.

وبدأ بالاستثناء وقدمه على قوله: ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ﴾ أدباً مع الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله عز وجل.
﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾، أي: استسلما وانقادا لأمر الله، فلم يبق هناك منازعة، لا من الأب،
ولا من الابن، بل استسلام صرف، وتسليم محض، وهذا استسلام القلب.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٢٢١.

﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ هذا استسلام الجوارح، واللام: بمعنى «على»، أي: صرع إبراهيم ابنه على الأرض على جبينه؛ وهو جانب الجبهة الذي يلي الأرض عند النوم؛ ليذبحه. وإنما صرعه على الأرض على جبينه؛ من أجل ألا يرى وجهه حين يذبحه، ولئلا يرى الابن السكين فيفزع؛ لأن رؤية المذبح السكين تروعه.

وجواب الشرط لقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا﴾ محذوف، تقديره: ظهر صبرهما، أو أجزلنا لهما الأجر، ونحو ذلك.

قال عز وجل: ﴿وَوَدَّيْتَهُ أَنْ يَبْتَهِمَ﴾ «أن»: تفسيرية، أي: يا إبراهيم، ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا﴾، أي: صدقت ما أريناك وأمرناك به في المنام، أي: فعلت ما يقتضي تصديق هذه الرؤيا.

وهذا امتداح من الله تعالى لإبراهيم، وثناء عليه، فقد عزم على ذبح ابنه، وقام بمقدمات ذلك، وصرع ابنه على جبينه على الأرض؛ ليذبحه، فجعل الله عز وجل ذلك تصديقًا.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَوَدَّيْتَهُ﴾، أي: رفعنا عن إبراهيم هذه الشدة والمحنة، وجعلنا له خرجًا ومخرجًا؛ لأنه كان من المحسنين في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

وكذلك نجزي المحسنين؛ بأن ندفع عنهم الخطوب، ونفرج لهم الكروب، ونجعل لهم من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبَتْلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦) الجملة مؤكدة بـ«إن» واللام، وضمير الفصل، والإشارة تعود إلى ما أمر به إبراهيم في المنام من ذبح ابنه، أي: إن هذا هو الابتلاء والاختبار الشاق، الواضح الجلي، حيث أمر عليه السلام بذبح ابنه وفلذة كبده، وثمره فؤاده ووحيده، وأول وولده، والذي أبان صدق إيمانه عليه السلام، وقوة يقينه، وخالص محبته وخلته لربه، وتقديمها على كل محبوب.

فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر ربه، منقاداً لطاعته؛ ولهذا امتدحه الله تعالى بقوله:

﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، وجعله الله تعالى له خليلاً.

﴿وَفَدَيْنَهُ﴾، أي: وفدينا الابن المأمور بذبحه.

﴿بِذْبِيحٍ عَظِيمٍ﴾، أي: بكبش عظيم، جعلناه فداءً للذبيح يذبح بدلاً عنه، وقرباناً وسنة إلى يوم القيامة.

﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ﴾، أي: أبقينا عليه، ونشرنا له ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً، ولسان صدق ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾، أي: فيمن جاؤوا بعده إلى يوم القيامة؛ استجابة لدعائه بقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] فكان إمام الحنفاء، خلد الله ذكره، وأثنى عليه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٣٠] شاكراً لِنِعْمِهِ أَجْبَنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٣﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٠] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

إلى غير ذلك من الآيات في ذكره عليه السلام والثناء عليه؛ كما أثنى عليه المصطفى ﷺ في السنة المطهرة، في أحاديث كثيرة، ولهذا أمرنا بالتشهد أن نقول: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، في العالمين؛ إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد؛ كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد»^(١).

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٧٠، والنسائي في السهو ١٢٨٨؛ من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴿١١٩﴾ نَكَرَ «سَلام» للتعظيم، وهو مفسر لما أبقى الله تعالى عليه، ونشر له في الآخرين، أي: أبقينا عليه في الآخرين الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلامة من القدح والنقص، الذي يعتري البشر.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۖ ﴿١٢٠﴾﴾ تعليل لما قبله، والإشارة لما جزاه الله به من فداء ابنه بالذبح العظيم، والإبقاء عليه في الآخرين بالسلام، والذكر الجميل، والثناء الحسن، أي: جزيناه بذلك؛ لأنه من المحسنين، وبمثل هذا الجزاء نجزي المحسنين.

﴿إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿١٢١﴾﴾ تعليل لكونه من المحسنين؛ كما أن كونه من المحسنين تعليل لما قبله، أي: جزيناه بهذا الجزاء العظيم؛ لجمعه بين كمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيمان.

﴿وَوَسَّوْا لَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۖ ﴿١٢٢﴾﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق عليهما السلام. أي: وبشرنا إبراهيم عليه السلام بابنه إسحاق، بشارة كرامة منا له، أي: من غير أن يسألنا ذلك.

﴿نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۖ ﴿١٢٣﴾﴾، أي: حال كونه نبياً من الصالحين، أي: بشرناه بولادته، ويكونه نبياً من الصالحين.

وهذا يبين أن المبشّر به قبل هذا، والذي رأى إبراهيم في المنام أن يذبحه، ليس هو إسحاق، بل هو إسماعيل عليهما السلام.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ۖ ﴿١٢٤﴾﴾، أي: على إبراهيم، فجعلنا في ذريته النبوة والكتاب، فكل الأنبياء بعده من ذريته.

﴿وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۖ ﴿١٢٥﴾﴾، أي: وباركنا على إسحاق، فجعلنا أنبياء بني إسرائيل كلهم من نسل إسحاق، وليس من ولد إسماعيل إلا محمد ﷺ.

والبركة: كثرة الخير؛ من العلم، والنبوة، والذرية، وغير ذلك.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا ۖ ﴿١٢٦﴾﴾، أي: ومن ذرية إبراهيم وإسحاق عليهما السلام.

﴿مُحْسِنٌ ۖ ﴿١٢٧﴾﴾ في عبادة الله تعالى، وإلى عبادة الله، أي: مؤمن.

﴿وَمَا ظَلَمَ لِنَفْسِهِ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي؛ والاعتداء على الحق، وعلى الخلق.

﴿مُبِينٌ﴾ بين ظاهر ظلمه، ومبين: مظهر لظلمه.

أي: ومن ذريتها الصالح والطالح، والعاقل والظالم، ولهذا لما قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أجاهه عز وجل بقوله: ﴿لَا يَتَّأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وفي هذا إشارة إلى أنه سيكون في ذرية إبراهيم من هو ظالم لا يستحق الإمامة في الدين.

الفوائد والأحكام:

١- أن إبراهيم من شيعة نوح عليها السلام، وأن الأنبياء عليهم السلام كلهم بعضهم تبع لبعض، فأصل دينهم واحد، وهو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ مِنْ شِعْبِ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [٨٣] ﴿كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢- ثناء الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام في إخلاصه الدين لله تعالى وامتداحه له بسلامة قلبه من الشرك، وبرأته من الشبهات والشهوات، ومن كل اعتقاد باطل، وخلق ذميم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٨٤].

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لإبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُ﴾ وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٠٠].

٤- إنكاره عليه السلام على أبيه وقومه عبادة الأصنام، وابتغاءهم إفكًا وكذبًا آلهة غير الله، وتسفيهاً لهم، وقوته عليه السلام في ذات الله، وصدعه بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [٨٥] ﴿أَبْفِكَ آلهةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [٨٦].

٥- أن كل ما عبد من دون الله فهو إفك وكذب.

٦- تهديده لهم، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى وعقابه إذا لقوه وهم على الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٨٧].

٧- تفريعهم وتوبيخهم في عبادتهم مع الله غيره، وتنقصهم كمال ربوبيته وإلهيته، وإنزال حاجاتهم بغيره، وهذا على المعنى الثاني لقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٨٧].

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بَرَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والاحتجاج على المشركين بتوحيد الربوبية، الذي يثبتونه بالزامهم توحيد الألوهية.
 ٩- التماس إبراهيم عليه السلام العذر في عدم الخروج مع قومه لعيدهم، بحجة أنه مريض؛ لأجل أن يَخْلَوْ بِأَصْنَامِهِمْ؛ لقوله تعالى: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

١٠- إياحة التورية إذا كانت لمقصد شرعي، وقد تكون مستحبة، أو واجبة، أما إذا كانت لغير مقصد شرعي؛ فقد تكون مكروهة، أو محرمة.
 قال ابن كثير^(١): «وهذا ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، وإنما هو من باب المعارض في الكلام؛ لمقصد شرعي ديني».
 ١١- توليهم عنه مدبرين، وتركهم إياه، لما أبدى لهم عذره؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْرِبِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

١٢- ميله على آهنتهم سرعاً خفية بعد أن خلا له الجو، وتهكمه بهم، وسخريته منهم؛ لعدم أكلهم، وعدم نطقهم؛ تحقيراً لهم، وإلزاماً لعابديهم بعدم استحقاتهم للعبادة.
 ١٣- إقباله عليهم بضرهم بيمينه ضرباً شديداً، وتحطيمهم؛ انتصاراً لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَأَعَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾، ويؤخذ من هذا: قوة إبراهيم في الحق، وقوته في بدنه.

١٤- شدة انتصار قومه لآهنتهم، وغضبهم لما فعل بها، وإقبالهم على إبراهيم مسرعين؛ بغية الانتقام منه، والإيقاع به؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.
 وهذا من أعجب العجب، يعبدون هذه الآلهة بدعوى أنها تنفع وتدفع، وهم الذين يدافعون عنها.

١٥- انتهازه عليه السلام إقبالهم عليه، وحاسهم للانتصار لآهنتهم؛ لتجديد الإنكار عليهم، وتقريعهم، وتوبيخهم، وكيف يعبدون آلهة مخلوقة، هم ينحتونها، ويتركون عبادة

(١) في «تفسيره» ٨ / ٢١.

الله الذي خلقهم وخلق معبوداتهم؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (١٥) **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴿١٦﴾.

١٦- إثبات أنه عز وجل هو وحده خالق كل شيء، المستحق للعبادة وحده، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

١٧- أن أعمال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أعمال العباد مخلوقة لهم، لا شأن لله فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦) كما أن فيها رداً على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله؛ لأن الله أضاف العمل إليهم، فقال: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فأعمال العباد مضافة إلى الله خلقاً وتقديراً، ومضافة إليهم فعلاً ومباشرة، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة^(١).

١٨- لجوءهم إلى أخذه بالقوة، وإلقائه في النار، لما أقام عليه الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (١٧).

١٩- إرادتهم الكيد له، وإلحاق الضرر به، وقتله بالإحراق بالنار أشنع قتلة، ونصر الله تعالى له، وإنقاؤه، ورد كيدهم في نحورهم، وجعل النار عليه برداً وسلاماً، وجعلهم المغلوبين الأسفلين، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (١٨) وهذه سنة الله عز وجل في نصر رسله وأوليائه.

٢٠- إثبات الإرادة للإنسان، والاختيار. وفي هذا رد على الجبرية الذين يسلبون ذلك منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾.

٢١- إعلانه عليه السلام - بعد أن أقام الحجة على قومه، ونصره الله عليهم وأنجاه من كيدهم - الخروج من أرضهم، والهجرة إلى الله وفي سبيله، إلى أرض الشام المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾.

٢٢- إخلاصه عليه السلام لربه، وقوة توكله عليه، وتمام ثقته بهديته له وتوفيقه؛ لقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (١٩).

(١) انظر: «الطحاوية» ٢/ ٦٤١.

٢٣- سؤاله ربه أن يهب له ولدًا من الصالحين؛ يأنس به ويطمئن بعد أن ناصبه قومه العدا، وخرج من أرضهم فرارًا بدينه؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

٢٤- حاجة الإنسان إلى من يستعين به من الصالحين من ولد أو غيره.

٢٥- أنه إنما ينفع من الأولاد والقرناء من كان صالحًا، مؤديًا لحق الله وحقوق الخلق؛ لقوله: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

٢٦- إجابة الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام، وبشارته له بغلام حليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وهو إسماعيل عليه السلام، بكر إبراهيم، أي: أكبر أولاده، وهو أول ولد بشر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق، وهو أبو العرب، وهو «الذبيح» الذي أمر الله إبراهيم بذبحه، وهذا ظاهر من سياق الآيات؛ فإن الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي فِي الْمَنَارِ إِنِّي أَذْبَحُكَ﴾، إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات: ١٠١-١١١]، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الصافات: ١١٢].

فدل على أن البشارة بإسحاق بعد ذلك، وأيضًا: فالبشارة بنبوته تدل على أنه غير الذبيح؛ لأنها لا تتفق مع الأمر بذبحه.

وقد جاءت لإبراهيم البشارة بإسحاق أيضًا في آيات أخرى؛ كما في قول الملائكة: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٨].

كما بشرت أمه سارة، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١]، أي: يولد له ولد في حياتها، يسمى: يعقوب، فيكون له ذرية ونسل، وهذا لا يتفق مع الأمر بذبحه وهو صغير.

كما أن الله وصف إسحاق بقوله: ﴿عَلِيمٍ﴾ بينما وصف الذبيح بقوله: ﴿حَلِيمٍ﴾ وهذا غير هذا؛ لأن الذي وصف بالحلم هو الذي صبر على الذبح، وهو إسماعيل؛ لأن الله وصفه بأنه من الصابرين، ولم يصف بذلك إسحاق؛ فقال تعالى: ﴿وَلِإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥]؛ كما وصفه بأنه صادق الوعد،

فقال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وذلك لقوله: ﴿سَتَجِدُنِي﴾ ووفاءه بذلك.

وإلى هذا القول - وهو أن الذبيح إسماعيل عليه السلام - ذهب أكثر السلف من الصحابة والتابعين وأهل العلم، واختاره ابن تيمية وابن القيم^(١)، وابن كثير والسعدي، وذهب طائفة من السلف من الصحابة والتابعين وبعض أهل العلم، إلى أنه إسحاق، والراجح القول الأول.

قال ابن كثير^(٢): «وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام؛ فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم: أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً، وفي نسخة: «بكره»، فأقحموا هنا كذباً وبهتاناً: «إسحاق». وهذا لا يجوز؛ لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، و«إسماعيل» أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك، وحرّفوا «وحيدك»، بمعنى: الذي ليس عندك غيره؛ فإن إسماعيل كان قد ذهب به وبأمه إلى جنب مكة. وهذا تأويل وتحريف باطل؛ فإنه لا يقال: «وحيدك» إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً: فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ مسلماً من غير حجة». ثم ذكر دلالة الكتاب على ذلك.

وقال السعدي^(٣): «وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك؛ فإنه ذكر بعده البشارة

(١) انظر: «زاد المعاد» ١ / ٧١.

(٢) في «تفسيره» ٧ / ٢٣، وانظر: ٥ / ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦ / ٣٨٨.

بإسحاق، ولأن الله تعالى قال في بشره بإسحاق: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فدل على أن إسحاق غير الذبيح.

٢٦- ثناء الله تعالى على إسماعيل عليه السلام بوصفه بالحلم، وهو من أنبل الأخلاق والصفات؛ لقوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُ حَلِيمٍ﴾.

٢٧- مشروعية البشارة لمن ولد له ولد، وبخاصة إذا كان ذكرًا.

٢٨- رؤيا إبراهيم في المنام لما بلغ إسماعيل معه السعي، واشتد تعلقه به ومحبته له؛ أنه يذبحه، وإخباره بذلك؛ ليختبر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم، وليستعد له ويتجلد ويصبر، ويظهر تقبله لذلك، فيكون شريكًا لأبيه في الأجر، وليكون ذلك أهون عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرئِي فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

٢٩- تلطف إبراهيم مع ابنه بقوله: ﴿يَبْنَئِي﴾؛ ليعيد عن نفسه تهمة أنه لا يحبه، أو يريد الإضرار به.

٣٠- أنه يجوز أن يورثي الإنسان بالشيء؛ لاستطلاع الأمر واستظهاره؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما قال لابنه: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ لم يرد أن يستشير، وإنما أراد أن يختبره؛ لينظر مدى قبوله لذلك، ويستعد له.

٣١- أن رؤيا الأنبياء حق؛ ولهذا اعتمدها إبراهيم وصدقها بفعله.

٣٢- تلطف إسماعيل وحسن أدبه مع أبيه عليها السلام في هذا الموقف الصعب؛ لقوله: ﴿يَتَأَبَّتْ﴾.

٣٣- حثه لأبيه على فعل ما أمره الله به وتنفيذه؛ مخافة أن تدرك أباه رحمة الوالد، فيراجع ربه في ذلك؛ لقوله عليه السلام: ﴿أَفَعَلَ مَا تَأْمُرُ﴾.

ويؤخذ من هذا: أنه لا غضاضة في أمر الإنسان بالخير لمن هو أفضل منه.

٣٤- أدب إسماعيل عليه السلام مع ربه؛ حيث علق تمكنه من الصبر على مشيئة الله تعالى؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وهكذا ينبغي للمسلم أن يعلق ما يريد أن يفعله في المستقبل على مشيئة الله تعالى.

٣٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٣٦- عزم إسماعيل عليه السلام على الصبر على الذبح بمشيئة الله تعالى، وعونه له.

٣٧- استسلام إبراهيم وإسماعيل، وانقيادهما لأمر الله تعالى، وصرع إبراهيم ابنه

إسماعيل على جبينه ليدبحه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَقَلَّ لِلَّهِ لِلْجَيْنِ﴾ (١٠٣).

٣٨- فضيلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ حيث استسما لأمر الله تعالى في

هذا الأمر العظيم، الذي لا يقدم عليه إلا أمثالهما.

٣٩- إدراك العناية الربانية لهما بعدما عزموا وصمما وفعلا ما أمرا به، ونداء الله عز

وجل لإبراهيم، ورفع هذا الابتلاء عنهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ الآيات.

٤٠- إثبات الكلام لله عز وجل بحرف وصوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَهُ أَنْ

يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

٤١- وفاء إبراهيم عليه السلام في فعل ما أمر به، وصدق إسماعيل فيما وعد به من

الصبر؛ ولهذا امتدحهما الله تعالى، فقال: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يُأْمُرُ

أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مریم: ٥٤-٥٥].

٤٢- امتداح الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، وثنائه عليه بتصديق الرؤيا وفعل ما

أمره الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.

٤٣- مجازاته عز وجل له- لكونه من المحسنين- برفع هذا الابتلاء، وفدائه بذبح

عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الآية.

٤٤- أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا؛ كما جاء في

الحديث (١).

(١) أخرجه أحمد ١ / ٣٠٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٤٥- جواز النسخ قبل التمكن من الفعل؛ خلافاً للمعتزلة؛ لأن الله أمر إبراهيم بذبح ولده، ثم نسخه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه: إثابته على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمَيِّنُ﴾ (١٦).

٤٦- أن الإنسان إذا قصد العمل، وسعى له؛ كتب له أجره وإن لم يتمكن من فعله؛ كما في حديث: «وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان. فهو بنيته، فأجرهما سواء» (١).

وقال ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً» (٢).

٤٧- وعد الله تعالى للمحسنين بمجازاتهم، بتنفيس الكروب، ودفع الخطوب، وتفريج الهموم، واحتساب ما قصدوه، وفعلوا أسبابه من الخير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ والجزء من جنس العمل.

٤٨- أنها ابتلي به إبراهيم عليه السلام من أمره بذبح ابنه إسماعيل، هو البلاء المبين، والمصاب العظيم؛ لأن المصائب وإن كانت كلها من الابتلاء؛ إلا أن أشدها ما يتلى به العبد بأن يؤمر أن يفعلها هو بنفسه؛ كما في أمر إبراهيم عليه السلام، بأن يذبح ابنه وحيداً، وقلدة كبده، فهذا من أشق الأشياء وأصعبها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمَيِّنُ﴾.

٤٩- حكمة الله تعالى فيما يقدره على أنبيائه وأصفيائه وعباده المؤمنين، من الابتلاء والمصائب؛ لتمحيصهم ورفعة منازلهم، وقد لقي إبراهيم عليه السلام من ذلك ما لم يقع لغيره من الرسل وغيرهم؛ فابتلي بإلقائه في النار، وابتلي بأمره بذبح ابنه، وهذه أشد. وظهر بذلك خلوص قلبه ومحبه لله تعالى؛ ولهذا اتخذ الله خليلاً.

٥٠- فداؤه عز وجل إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم، جعله تعالى بديلاً عنه، وقربانا وسنة إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدَيْنَهُ يَذْبَحُ عَظِيمًا﴾ (١٧).

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٨، من حديث أبي كبشة الأنباري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٩٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩١، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

- ٥١- إبقاء الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام على إبراهيم ونشره فيمن بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٠٨) ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٠٩).
- ٥٢- الثناء على إبراهيم بكمال الإحسان، وكمال العبودية، وكمال الإيثار، وأنه عليه السلام إنما نشر له الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام عليه في الآخرين؛ لكونه من المحسنين في عبادة الله تعالى، وإلى عباده، ولكونه من عباد الله المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٠) ﴿إِنَّهُ مِنَّ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١).
- ٥٣- مجازاة المحسنين بإبقاء الثناء الجميل من الذكر الحسن، والسلام عليهم فيمن بعدهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٠).
- ٥٤- تأكيد الحث على الإحسان، والترغيب في العبودية والإيثار، والتنويه بشأن المحسنين، وعباد الله المؤمنين.
- ٥٥- إثبات عبودية إبراهيم والرسول والمؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنَّ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١).
- ٥٦- بشارة إبراهيم عليه السلام بشارة ثانية بابنه إسحاق عليه السلام بولادته، وإثبات كونه نبياً من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٢) وهذا دليل ظاهر على أن الذي أمر بذبحه هو إسماعيل، وليس إسحاق؛ كما تقدم بيانه.
- ٥٧- مشروعية البشارة بالولد؛ لأن هذا مما يسر به والده وأهله، والتبشير أمر مستحسن شرعاً، وهذه البشارة تكرمه لإبراهيم من غير دعاء منه لذلك، بخلاف البشارة بإسماعيل؛ فهي بشارة باستجابة دعائه.
- ٥٨- مباركة الله تعالى على إبراهيم وإسحاق بالنبوة والعلم، وكثرة الذرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، فأبناء بني إسرائيل كلهم من ذرية ابنه إسحاق، ومحمد من ذرية ابنه إسماعيل.
- ٥٩- انقسام ذريتهما إلى محسن في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله، وإلى ظالم لنفسه بالشرك والكفر والمعاصي، بين الظلم ظاهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُنْسِفٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ فمنهم: المحسن المطلق؛ وهو المؤمن الذي إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه استغفر الله، ومنهم الظالم المطلق، وهو الكافر، ومنهم من عنده مطلق الإحسان

ومطلق الظلم، وهذا تارة يكون إلى الإحسان أقرب، وتارة إلى الظلم أقرب، حسب كثرة إحسانه، أو ظلمه.

٦٠- فضل المحسن؛ ولهذا قدم في الذكر على الظالم لنفسه.

٦١- أن من أحسن فأحسانه لنفسه، ومن ظلم فظلمه على نفسه.

٦٢- أنه لا نسب بين الله وبين الخلق، فمن ظلم نفسه لم ينفعه كونه من ذرية الأنبياء عليهم السلام.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْفَرُوا هُمُ الْفٰلِغِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَايَيْنَاهُمَا الْكِتٰبَ الْمُسْتَيِّنَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبَّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكذبوا فإتهم لهمضرون ﴿١٢٧﴾ إلهيادالله المحلصين ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرٰهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْفَرُوا هُمُ الْفٰلِغِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَايَيْنَاهُمَا الْكِتٰبَ الْمُسْتَيِّنَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ .

بعدهما ذكر الله قصة إبراهيم عليه السلام، أتبعها بذكر قصة موسى وهارون؛ لأن موسى عليه السلام أفضل أولي العزم بعد محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وكتابه أفضل الكتب بعد القرآن الكريم، وهارون عليه السلام كان وزيراً لموسى عليه السلام.

قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾﴾، أي: بالنبوة والرسالة، وهما وكل أنبياء بني إسرائيل من ذرية إسحاق عليهم السلام.

﴿وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾، أي: وخلصناهما ومن آمن معهما من قهر فرعون وبطشه وقومه، وسومهم لهم سوء العذاب؛ بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، واستعبادهم في الخدمة، وأخس الأشياء، وإهانتهم وإذلالهم، وخلصناهم أيضاً من الغرق الذي أهلك الله به فرعون وقومه.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾، أي: وقويناهم وأظهرناهم، هما وقومهما على فرعون وقومه، بإغراقه وقومه وإهلاكهم، وإنجاء موسى وهارون وقومهما.

﴿فَاكْفَرُوا هُمُ الْفٰلِغِينَ﴾، أي: فكانت لهم الغلبة والظفر والظهور على عدوهم في النهاية.

﴿وَءَايَيْنَاهُمَا الْكِتٰبَ الْمُسْتَيِّنَ ﴿١١٧﴾﴾، أي: وأعطيناها الكتاب، وهو التوراة، أفضل

كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

﴿الْمُسْتَيْبِينَ﴾ السنين والتاء للمبالغة، أي: البين الواضح الجلي، الذي فيه بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَهُ وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وسمي بـ«الكتاب»؛ لأن الله كتبه بيده؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال آدم في حجاجه مع موسى عليهما السلام: «وأنت موسى الذي كلمه الله، وكتب له التوراة بيده»^(١).

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١١٨﴾، أي: أَرشدناهما ووفقناهما إلى الطريق العدل المستقيم في الاعتقاد والأقوال والأفعال، الموصل إلى مرضاة الله تعالى وجنته.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ﴾ ﴿١١٩﴾، أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً، ولسان صدق فيمن جاؤوا بعدهما.

﴿سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾ تفسير لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ﴾ ﴿١١٩﴾ أي: تركنا عليهما ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً، ومنه السلام عليهما.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٢١﴾، أي: جزيناها بما ذكر؛ لأنهما من المحسنين، وكذلك نجزي جميع المحسنين.

﴿إِنَّهُمْ أُمَّةٌ عَابَدُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٢﴾ تعليل لما قبله، أي: جازيناها بما ذكر؛ لأنهما جمعا بين كمال الإحسان، والعبودية والإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَلِإِنِ الْيَأْسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَلَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْرَبِ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

(١) أخرجه البخاري في القدر ٦٦١٤، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، وأبو داود في السنة ٤٧٠١، وابن ماجه في المقدمة ٨٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَلِإِنِّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٣) اللام في قوله: ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هنا، وفي الموضوعين بعده، للتوكيد، يقال: «إلياس»، ويقال: «إلياسين»؛ كما في الآية الأخرى: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ إِذَا لَمَسْتَنِي يَا إِيَّاسَ﴾ (١٢٤) وهو من أنبياء بني إسرائيل، يقال: أرسله الله إلى أهل «بعلبك». ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٢٤) «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، و«ألا»: حرف عرض، واستمالة، وتحضيض، أي: ألا تتقون الله وعذابه، والقيامة وأهوالها في عبادتكم غير الله؟

﴿أَنْذَعُونَ بَعْلًا﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتسفيه، أي: أتعبدون صنمًا، قيل: كان لقومه صنم يعبدونه، يسمى: «بعلاً».

والدعاء: عبادة، سواء كان ركوعًا وسجودًا، أو دعاء مسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾، أي: وتركون عبادة أحسن الخالقين، الذي خلقكم، فلا تعبدونه.

وهذا يحتمل: أنهم لا يعبدون الله أبدًا ولا يعرفونه، ويحتمل: أنهم يعبدون مع الله غيره، ومن عبد مع الله غيره فهو كمن لم يعبد الله؛ لأن الله عز وجل غني عن عبادة من أشرك معه غيره؛ كما قال في الحديث القدسي: «أنا أغني الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه» (١).

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف وحفص بنصب الأسماء الثلاثة: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ وقرأ الباقون برفعها: «اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ». أي: وهو سبحانه ربكم ورب آبائكم الأولين، أي: ورب أجدادكم الأولين، المستحق وحده للعبادة دون غيره.

ولم يقل: وتذرون الله، بل قال: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ الآية؛ استدلالاً بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، أي: أتعبدون من لا يخلق، وتركون عبادة الخالق سبحانه؟! (١) سبق تحريجه.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿فَاتَيْنَهُمْ لَمُحَضَّرُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام: للتوكيد، أي: لمحضرون يوم القيامة لدينا؛ لمناقشة الحساب، والعذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (١١٨) «إلا»: أداة استثناء، أي: لكن عباد الله المخلصين، من قوم إلياس وغيرهم، الذين أخلصوا لله تعالى العبادة، وأخلصهم واختصهم برحمته، فإنهم لا يحضرون للعذاب، بل لهم الأجر والثواب.

﴿وَوَزَّكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١١٩)، أي: وأبقينا له فيمن جاؤوا بعده ذكرًا جميلًا، وثناء حسنًا.

﴿سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ (١٢٠) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة والمد وقطع اللام من الياء: «آل يَاسِينَ»؛ مثل: «آل يعقوب».

وقرأ الباقون بكسر الهمزة وإسكان اللام، ووصلها بالياء كلمة واحدة: ﴿إِلِ يَاسِينَ﴾ فيقال له: «إلياس»، ويقال له: «إلياسين»؛ كما يقال: «ميكال» و«ميكائيل»، أي: سلام عليه وعلى آله، وهو تفسير لما أبقى عليه من الذكر الجميل، والثناء الحسن.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢١) تقدم الكلام عليه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتأكيد نبوة موسى وهارون عليهما السلام، وامتنان الله تعالى عليهما بذلك، وبإنجائه إياهما ومن تبعهما من بطش فرعون وآله بهم، قتلاً واستحياءً واستذلالاً، ومن الغرق، ونصرهم، وجعل الغلبة لهما وقومها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَخَيَّرْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

٢- شدة ما لقي موسى وهارون وبنو إسرائيل من فرعون وقومه.

٣- منة الله تعالى عليهما بإيتائهما الكتاب البين الواضح الجلي، المشتمل على بيان الهدى من الضلال، والحق من الباطل، وهي التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ ﴿١١٧﴾﴾ وفي هذا امتداح من الله تعالى للتوراة؛

لأنها أفضل كتبه عز وجل بعد القرآن الكريم.

٤- أنه قد يجتمع أكثر من رسول في وقت واحد، ولأمة واحدة، وبكتاب واحد، وشرع واحد، فموسى وهارون عليهما السلام كانا في وقت واحد، وأرسلا معاً إلى فرعون وقومه، وإلى بني إسرائيل، وكتابهما التوراة، وشرعهما ما جاء فيه، بل إن أكثر أنبياء بني إسرائيل كانت شريعتهم التوراة؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ ولهذا فإن الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام يعتبر مكملاً للتوراة.

٥- منة الله عز وجل على موسى وهارون عليهما السلام، بهدائيهما الصراط المستقيم، الموصل إلى مرضاة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١١٨).

٦- أن كل إنسان محتاج إلى هداية الله له إلى الصراط المستقيم، وكل من هداه الله الصراط المستقيم فلله عليه نعمة ومنة، يجب أن يذكرها ويشكرها.

٧- إبقاء الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام عليهما فيمن بعدهما؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴾ (١١٩) سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿ (١٢٠).

٨- أن الله عز وجل جازاهما بما ذكر؛ لأنهما من المحسنين، ومن عباد الله المؤمنين، جمعاً بين كمال الإحسان، والعبودية والإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢١) إِيْتَهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (١٢٢).

٩- وعد الله تعالى بمثل هذا الجزاء لجميع المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢١).

١٠- إثبات عبودية موسى وهارون وإلياس عليهم السلام، وغيرهم من الرسل والمؤمنين، لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ إِيْتَهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢٢)، وقوله: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢٢).

١١- فضيلة الإحسان والعبودية لله تعالى والإيمان، والترغيب بالاتصاف بذلك.

١٢- أن العبودية لله تعالى أشرف ما يوصف به البشر؛ ولهذا وصف الله بها رسله

وأنبياؤه.

- ١٣- إثبات رسالة «إلياس» عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.
- ١٤- دعوته عليه السلام قومه إلى تقوى الله عز وجل، وإنكاره ما هم عليه من عبادة الأصنام، وترك عبادة ربهم وخالقهم، وتوبيخهم وتسفيههم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلْتَدْعُونَ إِلَّا نُنُقُونَ ﴿١١٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١١٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾﴾.
- ١٥- وجوب تقوى الله تعالى على العباد، بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.
- ١٦- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١١٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾﴾.
- فتفرده بالخلق والربوبية، يوجب إفراده بالعبادة والألوهية.
- ١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾﴾.
- ١٨- تكذيبهم لإلياس عليه السلام، وتوعدهم بإحضارهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى؛ لمناقشة الحساب والعذاب، وإدخالهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُم مَّحْضُرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.
- ١٩- سلامة عباد الله الذين أخلصوا العبادة لله، وأخلصهم واختصهم برحمته من العذاب، وفوزهم بالثواب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١١٨﴾﴾.
- ٢٠- إبقاء الذكر الجميل، والثناء الحسن، والسلام على إلياس عليه السلام فيمن جاؤا بعده؛ لأنه من المحسنين، ومن عباد الله المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْسُوقُ ﴿١٢٠﴾ إِنَّكَ كَذَلِكَ تَجْزَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَجَّيْنَتْهُ وَاهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُثْمِرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾ وَيَأْتِيْلُ أَفْلًا نَقْلُوكَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴿فَبَدَّدْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدِيُونَ ﴿١٤٧﴾ فَفَاتَمُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَجَّيْنَتْهُ وَاهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُثْمِرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾ وَيَأْتِيْلُ أَفْلًا نَقْلُوكَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل.

﴿إِذْ بَجَّيْنَتْهُ وَاهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾، أي: حين نجبناه وأهله أجمعين. قيل: هو وابتناه.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٥﴾﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«عجوزًا»: منصوب على الاستثناء المتصل، وهي زوجته، كانت كافرة على دين قومها، وكانت تظاهرهم على لوط. قيل: اسمها: «وارهة».

﴿الْغَدِيرِ ﴿١٣٥﴾﴾: الباقيين في العذاب، الهالكين.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾، أي: أهلكتنا بقية قومه ودمرناهم تدميرًا عظيمًا، بأن قلبنا عليهم ديارهم، فجعلنا عاليها سافلها، وأتبعناهم حجارة من سجيل منضود؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِيلٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

فصارت محلثهم بحيرة متنة قبيحة المنظر، يمر عليها المسافرون في طريقهم بين الحجاز والشام، ولهذا قال:

﴿وَإِنَّا لَنُثْمِرُونَ عَلَيْهِمْ ﴿١٣٦﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنكم لتمرّون على ديارهم وآثارهم، مُّصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾ حال، أي: حال الصباح في النهار، ﴿وَيَأْتِيْلُ ﴿١٣٨﴾﴾.

أي: وتمرون عليهم بالليل، أي: لتمرّون عليهم بالنهار والليل في سفركم، ذهابًا

وإيابًا؛ لكون ديارهم على الطريق؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَسَبِيلٌ مَّقِيمٌ﴾ [الحجر: ٧٦].
 ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ، أي: أفلا تتفكرون وتتفعلون بعقولكم،
 فتعتبروا بحال هؤلاء، وكيف دمر الله عليهم بسبب كفرهم وإجرامهم، وللكافرين
 أمثالها؟

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٦) إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ
 الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْقَمَمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مَلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ
 يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴿فَبَدَّدَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى
 مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدٍ مِّنْكَ (١٤٧) فَتَأَمَّنُوا فَمَرَّعْتَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴿:

قوله: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٦) هو يونس بن متى؛ كما قال ﷺ: «ما ينبغي
 لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». ونسبه إلى أبيه (١).
 أرسل إلى قومه، وهو من رسل بني إسرائيل.

﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١٤٠)، أي: حين خرج من بين ظهراي قومه مستعجلاً
 مسرعاً مغاضباً لهم، ولم يصبر حين استعصوا على الاستجابة له لأول وهلة، ولم ينزل
 بهم العذاب الذي توعدهم به؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ
 عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿إِلَى الْفُلْكِ﴾، أي: السفينة، ﴿الْمَشْحُونِ﴾: المملوء من الركاب.
 ﴿فَسَاهَمَ﴾، أي: اقترع مع ركاب السفينة: أيهم ينزل منها؟ لتخفيف حملتها حين
 أخذت الأمواج تلعب بها، وأشرفوا على الغرق كلهم.
 ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾، أي: من المغلوبين الذين وقعت عليهم القرعة؛ ليلقوا
 أنفسهم بالبحر، حتى لا تغرق السفينة وكل من فيها، ارتكاباً لأخف الضررين. وقد
 قيل: إن أصحاب السفينة أعادوا الاقتراع ثلاث مرات؛ ضناً بيونس أن يلقي في البحر،

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٦) ٣٣٩٦، ٣٣٩٥، ومسلم في
 الفضائل، ذكر يونس عليه السلام ٣٣٧٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

لكنها كانت تقع عليه.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ﴾، أي: فابتلعه الحوت، وهو سمك عظيم، ولم يمضغه، فلم يهشم له لحمًا، ولم يكسر لهم عظمًا.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ الجملة: حالية، أي: وهو يعني يونس عليه السلام، ﴿مُلِيمٌ﴾، أي: آتٍ بما يلام عليه، والذي يلام عليه هو خروجه من قومه مغاضبًا لهم قبل أن يأذن الله له، وكان من الواجب عليه أن يصبر؛ ولهذا قال الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ:

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَجْنِبْهُ رِبُّهُ، فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠].

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١١٣﴾﴾ «لولا»: شرطية غير عاملة؛ وهي حرف امتناع لوجود، أي: فلولا أنه كان من المصلين المتعبدين الذاكرين الله المسبحين بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ﴾ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لمكث في بطن الحوت إلى يوم البعث، يوم القيامة، لكن بسبب تسيحه وعبادته نجاه الله تعالى، وقد قال ﷺ في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما: «تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة» (١).

﴿فَبَدَّنَهُ﴾، أي: طرحناه من بطن الحوت وألقيناه، ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ «العراء»: وجه الأرض، أي: بالأرض الفضاء، الخالية من الشجر والبناء.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ الجملة حالية، أي: وهو مريض ضعيف البدن، بسبب حبسه في بطن الحوت.

﴿وَأَبْتَنَا عَلَيْهِ﴾، أي: وأنبتنا عليه في هذه الأرض العراء - لطفًا به ورحمة - ﴿شَجَرَةً مِّن يَّقِينٍ﴾ وهي شجرة القرع سريعة نمو الورق باردة؛ لتظله؛ لشدة حاجته إلى الظل؛

ولهذا قال: ﴿وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ﴾ ولم يقل: «وَأَبْتَنَّا لَهُ».

قيل: إنه لا يقع عليها الذباب.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾، أي: أرسله الله تعالى، وأتم رسالته إلى مئة ألف، ﴿أَوْ زَيْدُونَ﴾ «أو» بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، أي: بل يزيدون. ويحتمل: أن تكون «أو» للتحقيق، أي: لتحقيق العدد السابق، وهو مئة ألف، أي: إن لم يزيدوا على مئة ألف فلا ينقصون عنها، فدعاهم إلى الله تعالى.

﴿فَقَامُوا﴾ الفاء: عاطفة، أي: فبادر هؤلاء المئة ألف كلهم جميعاً إلى الإيمان، والتصديق به وبما دعاهم إليه.

﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: فكشفنا عنهم العذاب، وصرفناه عنهم بعد ما انعقدت أسبابه، وأبقيناهم متمتعين إلى بلوغ آجالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَاءٍ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات رسالة لوط عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.
- ٢- امتنان الله على لوط عليه السلام، بإنجائه وأهله من العذاب والهلاك، إلا زوجته، فكانت في الهالكين؛ لكفرها ومظاهرتها قومها على لوط؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ بَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ﴾.
- ٣- تدمير وإهلاك الآخرين من قومه؛ لكفرهم وإجرامهم، وشناعة فعلهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾.
- ٤- وجوب الحذر من ارتكاب فاحشتهم؛ لأنها سبب للتدمير حسيًّا، وهو الهلاك، ومعنويًّا، بتدمير الرجولة، بانقلاب الذكور إناثًا.
- ٥- سنة الله تعالى الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول بإنجاء رسله والمؤمنين، وإهلاك المكذبين.

- ٦- أن آثار ما أوقعه الله بقوم لوط وبديارهم ظاهرة للعيان، على طريق المسافرين بين الحجاز والشام، يمرون عليها، نهارًا وليلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا لِنَرُنَّ عَنْهُمْ مُصْبِحِينَ﴾ .
- ٧- تفرغ وتوبخ المشركين المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم، والإنكار عليهم، كيف لا يتفكرون بعقولهم بما حل بقوم لوط بسبب كفرهم وإجرامهم، فيحذرون أن يحل بهم مثله؟! لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .
- ٨- أن من لم ينتفع بعقله بمعرفة طريق النجاة من العذاب فليس بعاقل.
- ٩- إثبات رسالة يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .
- ١٠- استعجال يونس عليه السلام، وعدم صبره، وخروجه من قومه مغاضبًا لهم، قبل أن يأذن الله له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ .
- ١١- أن الأنبياء والرسل عليهم السلام ليسوا معصومين من الصغائر، التي لا تتعلق بالتبليغ، ولا تخل بالشرف، لكنهم لا يستمرون عليها، وسرعان ما يتوبون منها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَتَى﴾ ، أي: هرب قبل إذن الله له.
- ١٢- ابتلاء الله تعالى، وامتحانه ليونس لما أبق وخرج من عند قومه بركوب الفلك المشحون، وما جرى له من المساهمة والاقتراع بينه وبين أهل الفلك، وكونه من المدحضين، ثم نزوله في البحر، والتقام الحوت له؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ .
- ١٣- مشروعية القرعة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا اقترع بين نسائه، فأيتهن وقعت عليها القرعة خرج بها.
- ١٤- ارتكاب أخف الضررين؛ لدفع أعلاهما؛ لأن غرق البعض أخف وأهون من غرق الجميع.
- ١٥- آية من آيات الله الدالة على عظمتة وتما قدرته أن جعل هذا الحوت يلتقم يونس، أي: يبتلعه، دون أن يمزق له لحمًا أو يكسر له عظمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَالنَّمَةُ الْخَوْتُ﴾ .

١٦- أن يونس عليه السلام حين التقمه الحوت قد أتى بما يلام عليه، وهو غضبه على قومه، وعدم صبره، واستعجاله في الخروج من بينهم قبل إذن الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

وفي هذا حب الإعذار من الله. وفي الحديث: «لا أحد أحب إليه العذر من الله»^(١).

١٧- فضيلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على يونس وعلى غيره من الأنبياء عليهم السلام؛ لما كان عليه من الصبر على قومه - مع شدة أذاهم له، فقد لبث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو بالتي هي أحسن، وبالصفح ويقول: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»^(٢).

١٨- أن التسبيح والصلاة وعبادة الله تعالى، والطاعة السابقة من أسباب النجاة من الغم وكشف الكروب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

١٩- إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢٠- قدرة الله تعالى على جعل الحوت قبراً ليونس؛ لقوله تعالى: ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢١- إلقاء الحوت له، ونبذه في الأرض الفضاء، وهو سقيم، بتقدير الله تعالى، ولطفه به، بإنباته عليه شجرة من يقطين تظله؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَدَّنْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقِطِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

٢٢- لا ينبغي اليأس من الشفاء مهما بلغ المرض بالإنسان؛ لتمام قدرة الله تعالى ولطفه.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٦)، ومسلم في اللعان (١٤٩٩) - من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) سبق تحريجه.

٢٣- إرساله بعد هذا إلى مئة ألف أو يزيدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْتُهُ إِلَىٰ مِائَةِ آلَافٍ

أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

٢٤- إيمانهم كلهم جميعاً، وتصديقهم به وبما دعاهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَامُوا﴾.

٢٥- كشف العذاب عنهم بعد أن رأوه، وصرفه لما آمنوا، وتمتيعهم إلى بلوغ

آجالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَامُوا فَمَتَّعْنَاهُم إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٢٦- أن الإيمان سبب لطول العمر، كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ

وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رَبَّهُ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُخَيِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤، ٣].

٢٧- أن من نجى من الأسباب المهلكة فلن ينجو من الموت:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ﴿١٥٨﴾ وَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٩﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَن هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافِرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوَإِنِ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكُفِّرُوا بِنِعْمِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ﴿١٥٨﴾ وَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٩﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ۞

ذكر في الآيات السابقة قصص عدد من الرسل وأمهم، وما آل إليه أمرهم؛ من إنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين؛ تسلياً للنبي ﷺ، وتحذيراً للمكذبين والمشركين من قومه، ثم انتقل إلى الإنكار عليهم.

قوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ۞ الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَي: فَاسْأَلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ. وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّهْكُمِ بِهِمْ؛ كَأَنَّهُمْ نَصَبُوا أَنفُسَهُمْ يَحْكُمُونَ بِهَا يَشَاؤُونَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٩].

﴿الرَّبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: كيف يجعلون لله البنات اللاتي يكرهون، ويختارون لهم البنين؟ كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧]، وذلك بزعمهم أن الملائكة بنات الله، أي: أن هذا حكم باطل جائر؛ كما قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٦١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٦٢﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

ولهذا قال: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا ۞ ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أخلقنا الملائكة إنثاء؟

﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ الجملة حالية، أي: وهم حاضرون خلقهم، أي: ليس الأمر

كذلك؛ فالملائكة ليسوا إناثاً ولا ذكوراً؛ لأنهم لا يتوالدون، ولا يأكلون، ولا يشربون، فكيف حكموا بأنهم إناث وهم ما شاهدوا خلقهم وما حضروه؟

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (١١٠) [الزخرف: ١٩]، أي: ويسألون عن ذلك يوم القيامة.

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ ﴾ «ألا»: حرف استفتاح يفيد التنبيه والتوكيد، أي: ألا إنهم من كذبهم الواضح، وافترائهم الظاهر، و«من»: سببية، أي: بسبب إفكهم. وقدّم السبب - وهو قوله: ﴿ مِنْ إِفْكِهِمْ ﴾ - على المسبب - وهو قوله: ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ - تأكيداً لبطلان قولهم وكذبهم.

واللام في قوله: ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾: للتوكيد.

﴿ وَوَلَدَ اللَّهُ ﴾، أي: ينسبون الولد إلى الله، تعالى الله عن ذلك، فيقولون: الملائكة بنات الله. ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ الجملة معطوفة على التي قبلها، ومؤكدة بـ«إن» واللام، فأكد عز وجل بطلان قولهم وكذبه قبل ذكره وبعده؛ كما قال تعالى: ﴿ وَخَرَفُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ بَعِيرٍ عَلِيمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١٠٠) بديع السموات والأرض أن يكون له، ولد ولم تكن له صنجة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴿ (١١١) [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ (١٥٣) قرأ أبو جعفر: «أصطفى»؛ بوصل الهمزة، وكسرها في الابتداء، وقرأ الباقون بقطع الهمزة وفتحها مطلقاً: ﴿ أَصْطَفَى ﴾ والاستفهام للنفي، أي: أيجتار الله عز وجل - على سبيل الفرض والتقدير الممتنع أن يتخذ ولداً - البنات على البنين، أي: لا يمكن أن يجتار البنات دون البنين؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا ﴾ [الإسراء: ٤٠].

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (١٥٤) «ما» و«كيف»: كل منهما اسم استفهام، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: كيف تقولون هذا القول العظيم، وتحكمون هذا الحكم الفاسد الجائر؟! كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ أَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١١) ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (٢٢) [النجم: ٢١؛ ٢٢].

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٥٥) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتخفيف الذال:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وقرأ الباقون بتشديدها: «تَذَكَّرُونَ».

والاستفهام: للإنكار والتقريع، أي: أفلا تتعظون، وتعتبرون، وتميزون، فتعرفوا بطلان هذا القول، وأنه عز وجل منزه عن الولد بدليل العقل والنقل؟

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥٦) «أم» كالتي قبلها، أي: بل ألكم سلطان مبين؟ أي: برهان بيّن وحجة ظاهرة، من نقل أو عقل، على قولكم هذا يبين أنه حق؛ ولهذا قال: ﴿فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٥٧) الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والأمر هنا للتحدي والتعجيز، أي: فاتوا بكتابكم المنزل من عند الله، الذي يدل على ما قلتم، إن كنتم صادقين، أي: إن كنتم صادقين في قولكم ذلك، أي: إنكم لا يمكن أن تأتوا بكتاب يدل على أن الله جعل الملائكة بناتاً له؛ كما تزعمون، فقولكم باطل لا مستند له من نقل ولا عقل، بل لا يُجوزُه العقل.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾، أي: بين الله عز وجل، ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾، أي: صلة؛ حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وأمهاთهم سروات الجن.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد علمت الجن.

﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إنهم لمحضرون بين يدي الله تعالى يوم القيامة؛ ليجازيهم على أعمالهم، فلو كان بينهم وبين الله نسب - كما زعم المشركون - لكان لهم حال آخر.

وقيل: المعنى: ولقد علمت الجن أن هؤلاء المشركين لمحضرون للحساب؛ لكذبهم وزعمهم الباطل أن بينه عز وجل وبين الجنة نسباً.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) «ما»: مصدرية أو موصولة، أي: تنزيهاً لله تعالى عن وصفهم، أو عن الذي يصفونه به من الصاحبة والولد، والشريك، ومماثلة المخلوقين، وغير ذلك مما لا يليق به سبحانه.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (١٦٠) «إلا»: أداة استثناء بمعنى: «لكن»، و«عباد» منصوب على الاستثناء المنقطع.

﴿الْمُخْلِصِينَ﴾: الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، وأخلصهم واختصهم برحمته.

فنزّه عز وجل نفسه عما يصفه به كل الخلق إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل وأتباعهم؛ لأنهم لا يصفونه إلا بما يليق به من صفات الكمال والجلال.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّكُرْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَعْتَيْنِ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوَآءَ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾:

لما أبطل نسبتهم الولد لله، وجعل الإناث له دون الذكور، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، وجعلهم بينه وبين الجن نسباً، انتقل إلى إبطال ما هم عليه من الشرك، فقال: ﴿فَاتَّكُرْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦١) «ما»: موصولة، أي: إنكم أيها المشركون، والذي تعبدونه من دون الله من الأصنام.

وفيه التفات من الغيبة إلى الحضور؛ للتنبيه، وللتحدي للمشركين وإهانتهم وإذلالهم.

﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَعْتَيْنِ﴾ (١٦٢) «ما»: نافية، والضمير في «عليه» يعود إلى «ما» الموصولة

في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾.

أي: إنكم أيها المشركون، ومعبوداتكم من دون الله، ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: ما أنتم على الذي تعبدون ﴿بِفَعْتَيْنِ﴾، أي: بمضلين أحداً، أي: لا تقدرّون على أن تفتنوا، أي: تضلوا أحداً، وتصدوه عن دين الله، فيعبد أصنامكم.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ (١٦٣) «إلا»: أداة حصر، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم، أي: يدخلها ويقاسي حرها، فهو الذي يفتن بفتنتكم إياه؛ لنفوذ قضاء الله تعالى فيه؛ كما قال تعالى: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ (٩) [الذاريات: ٩]، أي: يُصَرِّفُ عن الحق ويضل عنه من قُضِيَ عليه بالخذلان، واتباع الباطل.

﴿وَمَا مِنَّا﴾ هذا من كلامه عز وجل على لسان الملائكة؛ للرد على من زعم أنهم بنات الله، أي: وما منا نحن الملائكة، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر.

﴿لَهُ، مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾، أي: له مكان وزمان قيام وعبادة وعمل وتديير معلوم، أمره الله به؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى:

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

فلا يخرجون عن طاعة الله، ولا يتجاوزون ما أمرهم الله تعالى به، وليس لهم من الأمر شيء، فكيف يُعبدون مع الله عز وجل؟

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمَسِيحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ اللام في الموضعين: للتوكيد، أي: وإنا نحن الصافون صفوفًا في الصلاة والعبادة، والعمل بين يدي الله تعالى، وفي طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴿١﴾﴾ [الصافات: ١].

وقال ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟»، قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول، ويتراصون»^(١).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمَسِيحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ المقدسون لله، المنزهون له عن الشريك، وعن كل ما لا يليق به، فكيف نجعل شركاء معه؟! كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٦٥﴾ لَا يَسْئِفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٦٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكُنَّ نَجْرِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْرِي الظَّالِمِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

عن عبدالرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله ﷺ قال يوماً جلسائه: «أطت السماء وحق لها أن تئط؛ ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك راعع أو ساجد. ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمَسِيحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾»^(٢).

وروي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء من موضع شبر إلا عليه جبهة ملك، أو قدماء. ثم قرأ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٦﴾﴾»^(٣).

عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً»^(٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ٣٨ نقلاً عن ابن عساکر، وأخرجه الترمذي في الزهد بمعناه دون قوله: «ثم قرأ...» إلى آخره ٢٣١٢؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال: «حسن غريب».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ٣٨.

(٤) سبق تخريجه.

﴿وَأَن كَانُوا﴾ «إن»: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن محذوف، أي: وإن كان المشركون المكذبون للنبي ﷺ.

﴿يَقُولُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: ليقولون قبل بعثة محمد ﷺ فيهم، ونزول القرآن الكريم عليه.

﴿لَوْ أَن عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأُولِينَ﴾ ﴿١٦٨﴾ «لو»: شرطية غير عاملة، أي: لو أن عندنا كتابًا من كتب الأنبياء السابقين، وتذكيرًا مما ذُكر به الأولون.

﴿لَكِنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿١٦٩﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لكننا نحن عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا له العبادة والعمل، دون غيرنا.

﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾، أي: فكفروا بالقرآن لما جاءهم، وكذبوا الرسول ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِّنَ الْإِنسَانِ لَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤٤﴾ [فاطر: ٤٢].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وتكذيبهم. وهذا تهديد ووعيد لهم، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنَّا إِنَّا سَوَاءُ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٧].

الفوائد والأحكام:

- ١- الإنكار على المشركين في كذبهم وجورهم بنسبتهم الولد لله تعالى، وجعل البنات له ولهم البنون؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِيَهُمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ﴿١٤٩﴾، أي: سلهم منكراً عليهم، ومبطلاً زعمهم: كيف تجعلون لله البنات ولكم البنون؟!
 - ٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له بقوله: ﴿الرِّبَّكَ﴾.

٣- جهل مشركي العرب في كراهتهم للبنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ [النحل: ٥٨].

٤- الإنكار عليهم؛ كيف حكموا على الملائكة بأنهم إناث، وما شاهدوا خلقهم، ولا حضروه؟! لقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾، أي: أنهم لم يشاهدوا خلقهم، فكيف حكموا بأنهم إناث، والبينة على المدعي؟!

٥- إثبات وجود الملائكة، وهم خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله من نور.

٦- التنبيه على شدة إفكهم وكذبهم، في نسبتهم الولد لله، تعالى الله عن قولهم؛

لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ﴾.

٧- تأكيد كذبهم، وإبطال قولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ فأكد عز وجل

كذب قولهم قبل ذكره وبعده؛ تنزيهاً لنفسه عن الولد.

٨- الإنكار عليهم؛ كيف يزعمون اختيار الله لنفسه البنات وإيثارهم بالبنين؟

وهل يعقل هذا أو يليق؟! لقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

٩- التسفيه لهم؛ كيف يحكمون هذا الحكم الجائر؛ بنسبة الولد لله، ومن جعل

البنات له وهم البنون؟ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَلْذَكُرْ

وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿١٦١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

١٠- الإنكار عليهم، وتوبيخهم؛ لعدم تذكركم؛ إذ لو تذكروا واعتبروا وميزوا لم

يقولوا هذا القول؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

١١- نفي أن يكون لهم برهان بين، وحنة ظاهرة، من نقل أو عقل، على قولهم هذا؛

لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾، أي: ليس لكم سلطان مبين على ما تقولون.

١٢- تحديهم وتعجيزهم أن يأتوا بكتاب منزل من الله يدل على صدقهم؛ لقوله

تعالى: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

١٣- كذبهم وجرأتهم في نسبة الصاحبة لله، وجعلهم بينه وبين الجن نسباً، تعالى

الله عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾.

١٤- إثبات وجود الجن، وهم خلق من خلق الله، خلقوا من نار؛ كما قال تعالى:

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥].

١٥- علم الجن؛ أنهم لمحضرون بين يدي الله تعالى للحساب، وأنهم خلق من خلق الله ضعاف، سيجازون كغيرهم على أعمالهم، ولا نسب ولا حسب بينهم وبين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْغِنَّةَ إِتْمُهمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

كما أنهم يتبرؤون من دعوى هؤلاء المشركين، الذين جعلوا بين الله وبين الجنة نسباً، ويعلمون أن هؤلاء سيحضرون ويحاسبون على قولهم هذا.

١٦- أن الجن كالإنس مبعوثون ومحضرون يوم القيامة، ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم.

١٧- إثبات البعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

١٨- تنزيه الله تعالى وتقديسه عما يصفه به المشركون والمبطلون؛ من الشريك والصاحبة، والولد، وكل ما لا يليق به؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

١٩- امتداح الله عز وجل لعباده المخلصين، وأنهم لا يصفونه إلا بما يليق به من صفات الكمال والجلال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾.

٢٠- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾.

٢١- تحدي المشركين، ونفي أن يقدرُواهم ومعبوداتهم من دون الله على فتنة أحد وإضلاله، إلا من سبق في علم الله أنه من أهل النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّكُرُ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾. مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفِتْنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾.

٢٢- إثبات القدر، وأن الله قدر في الأزل مقادير كل شيء من الهداية والضلال، وغير ذلك، وأن من كتب الله له الهداية فلا سبيل إلى إضلاله، وأن من كتب عليه الضلال فهو ضال لا محالة، لكن على المرء أن يحذر من فتنة أهل الشر والفساد؛ لثلا يكون ممن هو صالٍ الجحيم.

٢٣- إثبات وجود النار، وأنها معدة للكافرين.

٢٤- أن الملائكة عليهم السلام خلق من خلق الله مدبرون، لكل منهم مقامه وعبادته وعمله، وما وكل إليه، وليسوا بنات الله؛ كما يزعمه المشركون؛ لقولهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾.

٢٥- تمدح الملائكة بما لكل منهم من مقام معلوم، وبما هم عليه من الصفات العظيمة، في تعظيمهم لله تعالى، ووقوفهم أمامه صفوفًا في الصلاة والعبادة والعمل، وتسبيحهم وتعظيمهم له على الدوام؛ لقولهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

٢٦- أهمية النظام والانتظام؛ لأن ذلك أساس النجاح.

٢٧- دعوى المشركين كذبًا ومكابرة؛ أنه لو كان عندهم كتاب وتذكير مما ذكر به الأولون، لكانوا أخلص الناس عبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُنَّ ﴿١٦٧﴾ لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾.

٢٨- كفرهم بالقرآن لما جاءهم، وتكذيبهم الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَكْفَرُوا

بِهِ﴾.

٢٩- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم؛ لقوله تعالى:

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُضْضُورُونَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٥﴾ فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٦﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٧﴾ أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِثِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٩﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٨٠﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٢﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٣﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُضْضُورُونَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٥﴾ فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٦﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٧﴾ أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِثِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٩﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٨٠﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨١﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: ولقد سبقت وتقدمت كلمتنا الكونية والقدرية في الأزل في الكتاب الأول «اللوح المحفوظ».

﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: لرسلنا وأتباعهم المؤمنين. ووصف الرسل بالعبودية له عز وجل؛ لأنها أفضل وصف يتصف به البشر.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُضْضُورُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ الجملة جواب القسم المقدر، واللام في الموضعين، وكذا ضمير الفصل «هم» للتوكيد والحصر، أي: إنهم لهم المنصورون من ربهم، في الدنيا والآخرة، دون غيرهم.

﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٥﴾﴾، أي: وإن جندنا، أي: جند الله عز وجل، وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون، وما يؤيدهم الله به من الملائكة والأسباب الكونية من الرياح والمطر وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤].

﴿لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، أي: الغالبون لغيرهم من الكفار، إما غلباً حسيّاً ومعنوياً، وإما غلباً معنوياً، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فهم الغالبون مطلقاً؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿فَنُؤَلِّعُ مِنْهُمْ﴾، أي: أعرض عن هؤلاء المشركين المعاندين، واصبر على أذاهم.
 ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى أجل ووقت حلول عقاب الله ونكاله العاجل بهم، أو إلى حين الأمر بقتالهم.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، أي: أنظرهم، وارتقب ما يحل بهم من العقاب؛ لمخالفتهم لك وتكذيبك، وانظر إليهم إذا نزل بهم العذاب.

﴿فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾، أي: فسوف يبصرون ما يحل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة، ويتظرونه. وهذا تهديد ووعد لهم.

﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦) الاستفهام: للإنكار عليهم في استعجالهم العذاب؛ تكذيباً به، وإنكاراً له بكفرهم وعنادهم، وتماديهم في طغيانهم، ويقولهم وطلبهم تعجيل العذاب؛ كما في قولهم للنبي ﷺ: ﴿قَالُوا أَلْحِثْنَا لِتَأْفِكِنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢) [الأحقاف: ٢٢].

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِهِمْ﴾، أي: فإذا نزل عذابنا بفنائهم ومقامهم وأرضهم؛ لإهلاكهم ودمارهم، أي: أنه نازل بهم لا محالة؛ ولهذا قال:

﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾، أي: فبئس ذاك الصباح صباحهم؛ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال!

ولم يقل: فسَاء صباحهم، بل قال: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ بالإظهار بدل الإضمار؛ لتبكيتهم، وتذكيرهم بالإعذار منهم وإنذارهم، وقيام الحجة عليهم؛ وليشملهم هذا الوعد والتهديد وغيرهم من المكذبين.

عن أنس رضي الله عنه، قال: صَبَّحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبير، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم، ورأوا الجيش، رجعوا يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خبير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فسَاء صباح المنذرين» (١).

عن أبي طلحة رضي الله عنه، قال: لما صَبَّحَ نبي الله ﷺ خبير، وقد أخذوا مساحيهم،

(١) أخرجه البخاري في الأذان، ما يحقن بالأذان من الدماء ٦١٠، ومسلم في النكاح ١٣٦٥.

وغدوا إلى حروثهم وأراضيهم، فلما رأوا نبي الله ﷺ معه الجيش، ركضوا مدبرين، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين» (١).

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كرر هذا تأكيداً لتهديدهم بوقوع العذاب، وتسليية للرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾، أي: تنزيهاً لربك يا محمد، وتعظيماً وتقديساً منه عز وجل لنفسه الكريمة، ودعوة إلى تنزيهه وتقديسه عن النقائص والعيوب، وعماً يقوله الظالمون المكذبون، وعن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته.

﴿رَبِّ الْعَزَّةِ﴾، أي: ذي العزة، أي: القوة والغلبة والقهر والامتناع. و«رب» في الأصل بمعنى: الخالق المالك المدبر، ولكنها هنا بمعنى: «صاحب»، أي: صاحب العزة؛ لأن العزة صفة من صفات الله تعالى، وصفاته عز وجل غير مخلوقة. وأضاف هنا اسم «الرب» إلى صفة «العزة» دون غيرها من الصفات؛ لاقتضاء المقام ذلك؛ لأن السياق في ذكر النصر والغلبة للرسول ﷺ، والذل والخذلان لأعدائه. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عن وصف المفترين والمكذبين له، أو عن الذي يصفونه به مما لا يليق به؛ من الشريك، والصاحبة، والولد، وغير ذلك.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ نكر «سلام» للتعظيم، أي: سلام من الله تعالى على جميع رسله عموماً في الدنيا والآخرة.

وسلام من عباده المؤمنين عليهم؛ كما نقول في التشهد: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» (٢).

(١) أخرجه أحمد ٤ / ٢٨، ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٩٩، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وهذا عام للرسل وغيرهم.

وذلك لسلامة ما وصفوا به ربهم من النقص، وصحته، ووصفهم له بصفات الكمال والجلال، وسلامة ما دعوا إليه العباد؛ من توحيد الله تعالى، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: له الحمد وحده على نصره رسله وأوليائه، وخذلان أعدائه، وعلى كل شيء، وعلى كل حال في الأولى والآخرة، وفي السموات والأرض، وعلى الدوام؛ لأنه المنزه عن النقائص والعيوب، الموصوف بصفات الكمال والجلال.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالقهم، ومالكهم، والمتصرف فيهم، لا رب لهم غيره، ولا معبود لهم سواه.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى الأزلي السابق لرسله وأتباعهم بالنصر لهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفْمُنَا لِعِبَادِنَا الْمُتْرَسِلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّمَا لَهُمُ الْمُتْرَسُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَإِنَّا جُنْدُنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾ (١٧٣).

٢- البشارة للنبي ﷺ بنصر الله تعالى له، وكون الغلبة له وللمؤمنين، وتهديد ووعيد المكذبين له.

٣- إثبات القدر، وكتابة كل شيء في اللوح المحفوظ من نصر وغلبة، وغير ذلك.

٤- أن كلمات الله تنقسم إلى كلمات كونية قدرية، وكلمات شرعية.

٥- إثبات عبودية الرسل عليهم السلام، وأتباعهم المؤمنين لله تعالى، عبودية خاصة.

٦- تسلية الرسول ﷺ، وتهديد المكذبين له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِيئَ﴾ (١٧٤) ﴿وَأَبْصُرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، أي: أن عقوبة من الله تنتظرهم عاجلاً أو آجلاً.

٧- تحقيق رؤيته ﷺ عذابهم عن قريب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَبْصُرُهُمْ﴾.

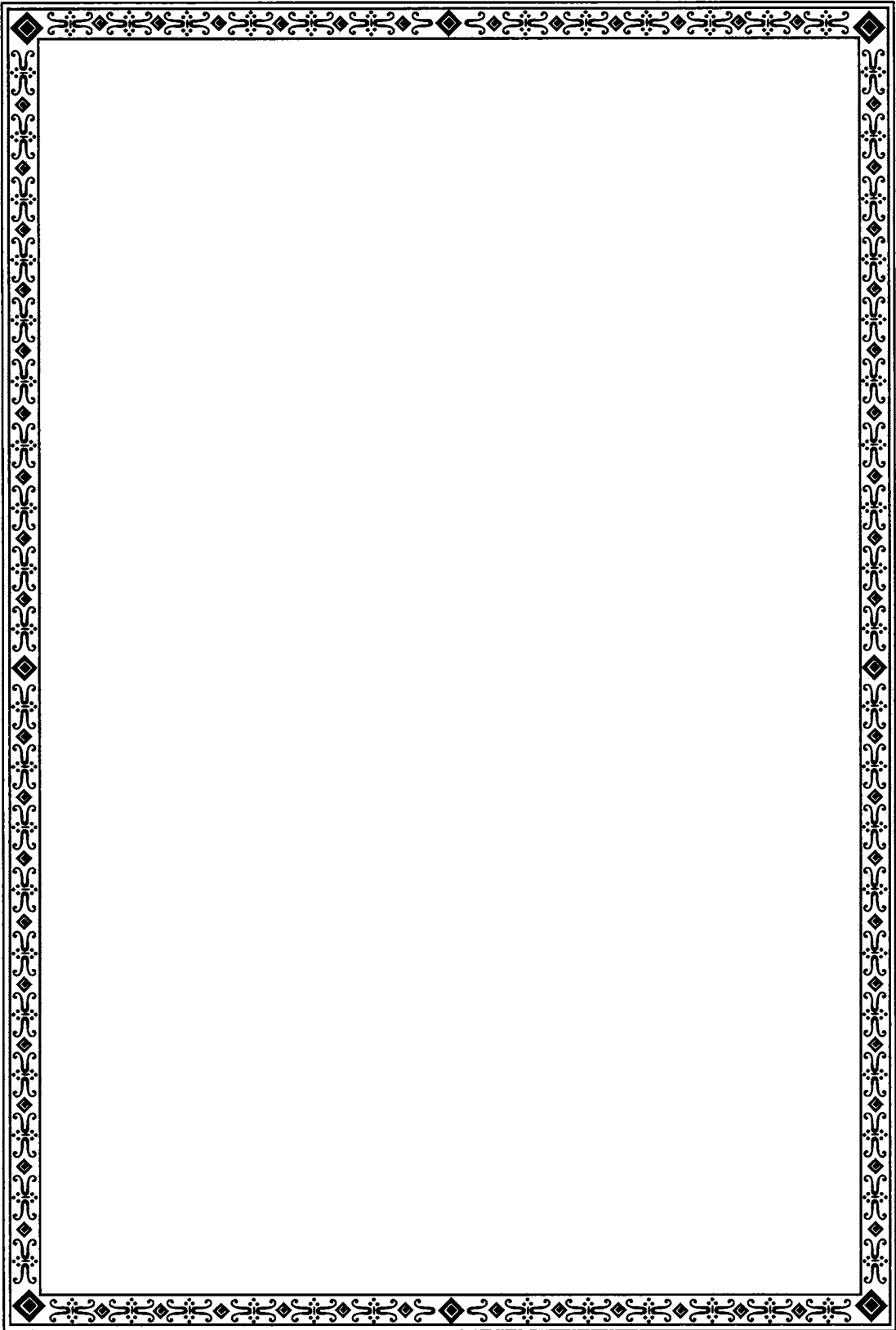
٨- تهديدهم ووعيدهم بقرب عذابهم وتحقيقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

٩- الإنكار عليهم في استعجالهم عذاب الله؛ تكذيباً به، وإنكاراً له، بقولهم

وفعلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦).

- ١٠- تخويفهم نزول العذاب بساحتهم، وسوء صباحهم يوم نزوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٧).
- ١١- تبكيتهم لما لم يستجيبوا للرسول والنذر، وأنهم لم يعذبوا إلا بعد قيام الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿الْمُنْذَرِينَ﴾.
- ١٢- تأكيد التسلية له ﷺ، وتهديد المكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٧٨) وَأَنْصُرُ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿٧٩﴾.
- ١٣- تنزيه الله عز وجل لنفسه عما يصفه به المشركون والمكذبون؛ مما لا يليق به، وأمره عباده بتزنيه عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٠).
- ١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ وتشريفه وتكريمه بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ.
- ١٥- إثبات أن الله عز وجل هو صاحب العزة، ذو القوة والغلبة، والقهر والامتناع، يعز من يشاء بفضله، ويذل من يشاء بعدله.
- ١٦- سلامه عز وجل على جميع رسله، وسلام عباده المؤمنين عليهم؛ لسلامة ما وصفوا به ربهم من النقص، ووصفهم له بصفات الكمال، وسلامة ما دعوا إليه العباد من توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨١).
- ١٧- اختصاصه عز وجل بكمال الحمد، وصفات الكمال على الدوام في كل زمان ومكان، وعلى كل حال؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.
- ١٨- إثبات ربوبيته عز وجل العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ص



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة ص» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿ص﴾ [الآية: ١].
و«ص» من الحروف المقطعة أوائل بعض السور، وهي كغيرها من حروف الهجاء
وتسمى أيضاً: «سورة داوود».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت «سورة ص» بقوله تعالى في مطلعها ﴿ص﴾ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ إشارة إلى
إعجاز القرآن، وتعظيماً له بالقسم به على صدق النبي ﷺ.

٢- شدة عناد الكفار وشقاقهم وتعجبهم من أن يأتيهم منذر منهم، ومن أمره ﷺ
لهم بعبادة الله وحده، ووصية بعضهم لبعض، بالصبر على عبادة الأصنام. واتهامهم له
بالتسحر والكذب، واختلاق ما جاء به، وتشكيكهم بالذكر وكيف يُنزل عليه من
بينهم، وتوعدهم بالعذاب، وأنه لا مناص لهم عنه ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص: ٨-١١].

٣- التذكير بتكذيب الأمم قبلهم رسلهم؛ قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد
وتمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب وعقاب الله لهم، وتهديد المشركين
أنهم ما ينتظرون إلا أن يحل بهم عقاب الله كالذين من قبلهم: ﴿وَمَا يَنْظُرُونَ إِلَّا الصَّيْحَةَ
وَاحِدَةً مَا لَهُمْ مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

٤- استعجال الكفار بالعذاب تكديباً به، واستبعاداً له، وأمره عز وجل له ﷺ
بالصبر على قولهم ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا جَعَلْنَا قَلْبَنَا قَلْبًا قَطَنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا
دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

٥- التذكير بما أعطاه الله عز وجل لعبده داود عليه السلام من تسخير الجبال

والطير، وتقوية ملكه وإيتائه الحكمة وفصل الخطاب، والفصل بين الخصوم، وجعله خليفة في الأرض. قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِي إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّتْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ إِلَى ﴿يَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

٦- بيان أنه عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، وإنما خلقها لحكمة عظيمة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

٧- تعظيم القرآن والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ، وبيان الحكمة من ذلك ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾.

٨- الامتنان على داود عليه السلام بهبته عز وجل له ابنه سليمان، وذكر ما من الله به على سليمان من العبودية لله تعالى والأوب إليه، والخير والملك العظيم الذي لم يعط لأحد مثله، وتسخير الريح والشياطين له، وما له عند الله من الزلفى وحسن المآب. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴿٣١﴾﴾.

٩- ذكر أيوب عليه السلام وابتهاله إلى الله عز وجل لكشف ضره، واستجابة الله تعالى له، وثناؤه عليه بصبره ورجوعه إلى ربه ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٣٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٣﴾﴾.

١٠- ذكر عباده عز وجل ورسله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل وليسع وذا الكفل والثناء عليهم بالذكر الحسن، وبأعظم ما أعد لهم عنده من حسن المآب ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٣٥﴾ وَإِتْمَمْنَا لَهُمُ الْوَسْطَىٰ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَسَبٍ مَّجِيدٍ ﴿٣٦﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٣٧﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٣٨﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّنْفُتَحَةٍ لَهُمْ فِيهَا الْأَنْبُوبُ ﴿٣٩﴾ مُتَّكِفِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهِتٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٤٠﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ الْأَرْبَابِ ﴿٤١﴾ هَذَا مَا تَوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٤٢﴾ إِنَّ هَذَا الرَّزْقَ أَنزَلْنَاهُ مِن قَدَافٍ ﴿٤٣﴾﴾.

١١- ذكر ما أعد للطاغين من شر المآب، وأصناف العذاب، وسوء الحساب، والخصام

في النار: ﴿ هَذَا وَابٍ لِلظَّالِمِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَسُوا إِلَيْهَا ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرِينَ شَكَلَهُ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوَجٌّ مُفْنَجٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ مِنْهُمُ الَّذِينَ صَلُّوا النَّارَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ قَدَمَتُمْ لَنَا فَيَسِّرَ الْفَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذَتْهُمُ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ .

١٢- بيانه أنه ﷻ إنها هو منذر، وأنه لا إله إلا الله الواحد القهار ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِّنْ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ .

١٣- ذكر خلق آدم عليه السلام وأمر الملائكة بالسجود له بعد تسويته ونفخه عز وجل به روحه، وسجود الملائكة له كلهم أجمعون، وامتناع إبليس من السجود له استكباراً وكفراً وإخراجه من الجنة ولعنه إلى يوم الدين، وإنظاره إلى يوم يبعثون ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ لَا تَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٥﴾ .

١٤- أمر الله عز وجل له ﷻ ببيان أنه ﷻ لم يسأل على ما جاء به من ربه أجراً، ولم يكن من المتكلفين في ذلك، وأنه إنما هو ذكر للعالمين وليعلمن نبأه بعد حين. ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ②﴾ كَرَّ أَهْلَكُمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا
وَلَاتَ جِبْنَ مَنَاصٍ ③ وَيَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ④ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا
وَجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⑤ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَاصْبِرُوا عَلَى مَا الْهَيْكُلُ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ⑥ مَا
سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ⑦ أَمْ نَزَّلْنَا عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا
يَذُوقُوا عَذَابِ ⑧ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ⑨ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
فَلْيَرْكُفُوا فِي الْأَسْبَابِ ⑩ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْآخِرَابِ ⑪﴾.

قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ②﴾ كَرَّ أَهْلَكُمَا مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتَ جِبْنَ مَنَاصٍ ③﴾:

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «مرض أبو طالب، فأنته قريش، وأتاه
رسول الله ﷺ يعوده، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل فقعده فيه، فقالوا: إن ابن
أخيك يقع في آهتنا. وقال: ما شأن قومك يشكونك؟ قال: «يا عم، أريدهم على كلمة
واحدة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي العجم إليهم الجزية». قال: ما هي؟ قال: «لا إله
إلا الله». فقاموا، فقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! قال: ونزل: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي
الذِّكْرِ ①﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⑤﴾ (١).

وفي رواية: «إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ⑦﴾» (٢).
قوله: ﴿صَّ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة، وبيان الحكمة فيها، في مطلع
سورة البقرة.

﴿وَالْقُرْآنَ﴾ الواو: للقسم، أي: وأقسم بالقرآن. وقد أقسم عز وجل بالقرآن؛
تعظيمًا له، وتنويهاً بشأنه، وتشريفًا له، وإثباتًا لإعجازه.

﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ صفة للقرآن، و«ذي» بمعنى: «صاحب»، أي: ذي التذكير للعباد

(١) أخرجه أحمد ١ / ٣٦٢، والنسائي في «الكبرى» ١١٤٣٦.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ص ٣٢٣٢، وقال: «حديث حسن».

والموعظة، وبيان ما فيه النفع لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: تذكيركم.

وأيضًا ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، أي: ذي القدر العظيم والشرف والمكانة، المستحق للمدح والثناء، أفضل كتب الله تعالى، الحاكم والمهيمن على جميع الكتب قبله.

وأيضًا ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، أي: الذي فيه الشرف للنبي ﷺ وقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وجواب القسم محذوف دل عليه قوله: ﴿صَّ﴾، تقديره: إن القرآن لحق، ونحو ذلك.

قال ابن القيم: «فإن المقسم به؛ من تعظيم القرآن، ووصفه بأنه ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ المتضمن لتذكير العباد وما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر، ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقًا من عند الله غير مفترى كما يقول الكافرون.

وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتأخريهم: إن الجواب محذوف، تقديره: إن القرآن لحق. وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك».

وبعد أن استبعد ابن القيم كل ما قيل: إنه جواب القسم من جمل الآيات وألفاظها، قال: «وأقرب ما قيل في الجواب لفظًا - وإن كان بعيدًا معنيًا - عن قتادة وغيره؛ أنه في قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢]؛ كما قال: ﴿قَبَّ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [١] بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق: ١-٢]، وذلك على تقدير بعضهم «بل» بمعنى: «إن»، أي: إن الذين كفروا في عزة وشقاق» (١).

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [٢] «بل»: للإضراب الانتقالي.

﴿فِي عِزَّةٍ﴾، أي: في تكبر وحمية، وأنفة جاهلية؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

﴿وَشِقَاقٍ﴾، أي: ومشاققة ومخالفة لله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ

وَرَسُولُهُ ﴿ [الحشر: ٤].

والمعنى: إن في هذا القرآن ذكراً لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، لكن الذين كفروا لم ينتفعوا بهذا القرآن، ولم يتذكروا به؛ لما في قرارة نفوسهم من الكبر وحمية الجاهلية، والشقاق والمخالفة؛ كما قال تعالى: ﴿ فَاتَّهَمُوا لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿ كَذَّاهِلِكُمْ مِمَّنْ قَبْلِهِمْ مَن قَرْنٍ ﴾ «كم»: خبرية للتكثير، و«قرن» بمعنى: أمة، أي: كثيراً من الأمم السابقة قبل كفار مكة أهلكتناهم، بسبب تكذيبهم للرسول، وما جاؤوا به من الحق. وفي هذا تهديد ووعيد للمشركين أن يحل بهم من الهلاك ما حل بمن قبلهم.

﴿ فَتَادُوا ﴾، أي: استغاثوا وتضرعوا، وأظهروا التوبة والإنابة لما رأوا العذاب، والضمير يعود على القرون والأمم المهلكة.

﴿ وَلَا تَحِينَ مَنَاصِرٍ ﴾ الواو: حالية، والحال أنه لات حين مناص، و«لات»: حرف نفي، بمعنى: «لا» العاملة عمل «ليس»، والتاء فيها زائدة؛ كما تزداد في «ثم»، و«رب»، فيقال: «ثمت» و«ربت»، واسمها محذوف تقديره: «الحين»، و«حين» خبرها منصوب بالفتحة، و«المناص»: النجاء والقوت.

والمعنى: وليس الوقت وقت فرار وخلص من العذاب، ولا وقت توبة وإجابة؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَسْنَا إِذَا هُمْ مِنهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٢-١٣]، أي: إذا هم منها يهربون.

وقالوا حين رأوا الدخان: ﴿ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الدخان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿١٤﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لِنُصْرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٤-٦٥].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَسْنَا قَالُوا يَا لَلَّهِ وَحْدَهُ. وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَسْنَا سَنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدَحَلَّتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٤﴾ أٰجْعَلِ الْاٰلِهَةَ اِلٰهًا وَّحِدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَا مِنْهُمْ اَنْ اٰمَسُوْا وَاَصْبِرُوْا عَلٰٓى اِلٰهَتِكُمْ اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ

يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْلِقُ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴿١١﴾:

قوله: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، والتقدير: أي: وعجبوا من مجيء المنذر منهم، وأنكروه، وأحالوه. أي: وعجبوا أن جاءهم رسول نخب ونخوف لهم عذاب الله ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: بشر منهم، أي: ليس من الملائكة.

كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ [ن: ٢]، وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَاذِبُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤].

وما علموا حكمة الله تعالى في كونه لم يكن ملكًا، بل بشرًا منهم جنسًا ونسبًا، ويتكلم بلسانهم؛ ليمكنوا من الأخذ والتلقي عنه؛ وليعرفوه، ولا تأخذهم النخوة عن اتباعه. ﴿وَقَالَ الْكَاذِبُونَ﴾ أظهر في مقام الإضرار، ولم يقل: وقالوا، بل قال: ﴿وَقَالَ الْكَاذِبُونَ﴾ لوصفهم بالكفر، ومن سلك مسلكهم.

﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ أشاروا إليه بإشارة القريب «هذا»؛ تحقيرًا له؛ كما في قولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

أي: هذا ساحر كذاب، وما جاء به سحر؛ لشدة تأثيره، وكذب لا حقيقة له. ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجب، أي: كيف صير محمد الآلهة، أي: المعبودين ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾، أي: معبودًا واحدًا؟ وذلك لأنه قال لهم: «قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا»^(١)؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

(١) أخرجه أحمد ٣/٤٩٢، ٤/٣٤١، من حديث ربيعة بن عباد الديلمي رضي الله عنه.

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ الإشارة بـ«هذا» في المواضع الأربعة إلى جعل الآلهة إلهًا واحدًا، وهو الله عز وجل وحده لا شريك له.

أي: إِنَّ جَعَلَ الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ اللام: للتوكيد في الموضعين، أي: لشيء عجيب يتعجب منه عجبًا عظيمًا كثيرًا؛ لأن «عجاب» أبلغ من «عجيب».

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، أي: سعى ومشى سادتهم وأشرفهم وكبرواؤهم ورؤساؤهم - كعقبة بن أبي معيط، وأبي جهل، والعاص بن وائل، والأسود بن يغوث، وغيرهم - محرضين على التمسك بما هم عليه من الشرك، قائلين: ﴿إِنْ أَمْشَوْا﴾، «أن»: تفسيرية، أي: أن استمروا على شرككم ودينكم وطريقتكم.

﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، أي: اثبتوا على عبادة آلهتكم، واحبسوا أنفسكم عليها، ولا تحيدوا عنها، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد ﷺ من عبادة الله وحده.

كما في قولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].
﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر، أي: إن جعل الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾، أي: يراد منه شيء خفي وراء ذلك، أي: يريد منه محمد التروء والسيادة عليكم، لا النصح لكم، ولسنا مجيبين له.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾، أي: بجعل الآلهة إلهًا واحدًا، وأنه لا إله إلا الله.

﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ الملة: الدين، أي: ما سمعنا بهذا في ملة عيسى ودينه آخر الملل؛ لأن النصراني يقولون: إن الله ثالث ثلاثة. أو ما سمعنا بهذا في ملة أخرى، لا في النصرانية، ولا في دين آبائنا، ولا في غير ذلك. وهذا أعم وأولى.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْخَلِقُ﴾ «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هذا الذي جاء به محمد من جعل الآلهة إلهًا واحدًا إلا اختلاق، أي: كذب وافتراء، اختلقه محمد وافتراه من عند نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [السجدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣].

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هذا مبني على قولهم: ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾،

وعلى قولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا آخِئْتُ﴾.

والاستفهام: للإنكار والتعجب، أي: كيف يخص بإنزال القرآن عليه من بيننا، أي: لم يُنزل عليه ولا يمكن ذلك؛ كما في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ﴾، فقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَهْمُرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي في الموضوعين، أي: بل هم في شك من إنزال القرآن، وكفر وتكذيب به، وتردد فيما يصفونه به، هل هو سحر أو شعر أو كهانة؟ وفي قوله: ﴿ذِكْرِي﴾ تشریف القرآن وتعظيمه بإضافته إلى ضمير المتكلم؛ وهو الله عز وجل، وتحقيق كونه من عند الله عز وجل.

﴿بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ﴾ «لَمَّا»: حرف نفي، يفيد عدم وقوع المنفي حتى صدور هذا النفي، مع قرب وقوعه.

وحذفت ياء المتكلم من ﴿عَذَابِ﴾؛ تخفيفاً ومراعاة للفاصلة.

أي: بل الذي جرأهم على التكبر والشقاق ووصف القرآن بأنه اختلاق، وإنكارهم أن ينزل عليه ﷺ من بينهم، والشك فيه هو أنهم إلى حين قولهم هذا ما ذاقوا عذاب الله تعالى ونقمته، أي: لما تأخر حلول العذاب بهم، ظنوا الوعيد بذلك كذباً. وهذا وعيد وتهديد لهم بأنهم سيدوقون العذاب عن قريب، أي: سيصيبهم، ويحسون بآلامه ويتجرعونها.

وهم إذا أصابهم العذاب وذاقوه صدقوا، ولكن لا ينفعهم ذلك؛ كما قال تعالى:

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

وهذا كما قالت ثمود لصالح عليه السلام: ﴿أَهْلَيْكَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ

أَشِرٌّ﴾، فتوعدهم الله بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْأَشِرِّ﴾ [القمر: ٢٥-٢٦].

﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ «أم» في هذا الموضع والذي بعده هي المنقطعة التي

بمعنى: «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري.

والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: بل عندهم خزائن رحمة ربك؟ أي: ليس عندهم خزائن رحمة ربك، فيعطوا منها من يريدون، ويمنعوها عن من يريدون، ويجعلون الرسالة فيمن يريدون دون من لا يريدون؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) فقال عز وجل ردًّا عليهم: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

و«خزائن»: جمع «خزانة»، أو «خزينة»، وهي في الأصل: البيت الذي يخزن فيه المال، أو الطعام، أو الصندوق الذي يخزن فيه المال.

وخزائن رحمته عز وجل: كل ما يكون برحمته التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي من الأرزاق المعنوية والحسية؛ ولهذا خص من شاء من عباده بالرسالات، وخص محمداً ﷺ من بين الرسل بأعظم الرسالات، فأنزل عليه القرآن الكريم أفضل كتبه عز وجل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

كما يهدي عز وجل من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بعدله، ويعطي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ﴾، أي: ذو العز التام، الذي لا يرام ولا يضام، ﴿الْوَهَّابُ﴾، أي: ذو العطاء الجزيل، والهبات العظام من النبوة وغيرها.

أي: ليس عندهم شيء من خزائن رحمته وهباته، ولو كان عندهم شيء من ذلك لاخلوا بأقل القليل منها وأمسكوا؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٢) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٥١) ﴿فِيْنَهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّعْتَهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (٥٥) [النساء: ٥٣-٥٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّم تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (١٠٠) [الإسراء: ١٠٠].

و«العزير»، و«الوهاب»: من أسماء الله عز وجل، ويؤخذ من اقترانها هنا أنه عز

وجل بعزته يمنح القوة والنصر والتأييد والعز والتمكين، ونحو ذلك.

وأنة بهياته الجزيلة، وعطاياه الواسعة العظيمة، يعطي ما يشاء لمن يشاء، فيعطي النبوة والرسالة، ويعطي العلم، ويعطي الملك، ويعطي الخير من المال والأهل والولد والصحة والأمن، وسائر النعم، وغير ذلك.

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: بل، ألهم ملك السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وما بينهما من المخلوقات العظيمة؛ كالشمس والقمر والنجوم والكواكب، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله؟

﴿فَلْيَرْفَعُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام: للأمر، أي: إذا كان لهم ملك السموات والأرض وما بينهما، فليصعدوا، ويأخذوا بالأسباب الموصلة إلى السماء، فليأتوا بالوحي، ويخصوا به من شاؤوا، أو يقطعوه عن النبي ﷺ، ويمنعوا فضل الله تعالى عليه، ونصره له؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَدُهُ عُقْدًا مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَلِّطْهُ فَاِخْرَاقَ مَا يُرِيدُ لِيُفِئَّهُمُ الْخَيْبَةَ وَخُرُوجَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَنْصُرُهُمْ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]. والمعنى: أنهم ليس لهم من الملك شيء، فلا يستطيعون الصعود إلى السماء، وقطع الوحي عن رسول الله ﷺ، وفي هذا تحدُّ لهم، وإرغام لأنوفهم.

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ﴾ نكر «جند» للتحقير والتقليل، وهو خبر مبتدأ، أي: هم جند؛ يعني: المكذبين للنبي ﷺ، أو مبتدأ خبره: «مهزوم»، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، أو صفة لـ «جند» للتحقير، والهزء بهم، أي: جند قليلون حقيرون.

﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة للمكان، واللام: للبعد، أي: في ذلك المكان البعيد.

﴿مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ «مهزوم»: خبر لـ «جند»، أو صفة، أي: مهزومون مغلوبون؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ [سورة القصص: ٤٤، ٤٥].

وهكذا حصل لهم يوم بدر، قال تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ﴾ [القمر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثُرُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [سورة المجادلة: ٢٠، ٢١].

وفي هذا وعد للنبي ﷺ بالنصر عليهم، وتهديد ووعد للمكذبين له.

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿صَّ﴾.
- ٢- إقسام الله عز وجل بالقرآن تعظيماً وتشريفاً له، وتنويهاً بشأنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١)، أي: إنه لحق من عند الله.
- ٣- ثناء الله عز وجل على القرآن الكريم، وامتداحه له؛ لما فيه من التذكير للعباد والموعظة، وبيان ما فيه النفع لهم في الدين والدنيا والآخرة، وكونه ذا القدر العظيم والشرف والمكانة، فهو أفضل كتب الله تعالى، وكونه شرفاً للنبي ﷺ وقومه.
- ٤- عدم انتفاع الكفار بالقرآن وما فيه من الذكر؛ لما في نفوسهم من الكبر والحمية، والأنفة الجاهلية، والمخالفة لله ولرسوله؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (٢).
- ٥- التهديد والوعيد للكفار المستكبرين عن اتباع القرآن، المخالفين لله ورسوله ﷺ؛ أن يحل بهم من الهلاك ما حل بكثير من الأمم قبلهم مما لم يكن لهم منه مناص ولا مهرب، والتسلية للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَّاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (٣).
- ٦- أن أكثر الأمم كذبوا رسلهم، وكانت عاقبتهم الهلاك.
- ٧- أن التضرع، والتوبة والإنابة، وطلب المهرب والمفر حين نزول العذاب لا ينفع ولا يجدي شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَوا وَعَلَّاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾.
- ٨- تعجب الكفار المكذبين للنبي ﷺ مما لا يثير عجباً؛ وهو كونه ﷺ بشراً مثلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِجْبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾.
- ٩- أن من حكمة الله تعالى، وتمام نعمته، كون الرسل عليهم السلام ليسوا ملائكة، بل من البشر؛ ليتمكنوا من الأخذ عنهم، ومن نعمة الله على العرب كونه ﷺ منهم، ويتكلم بلسانهم.
- ١٠- أن من أعظم مهمات الرسل: الإنذار والتحذير من عذاب الله تعالى، ومن لازم ذلك: التبليغ، بل والتبشير؛ لقوله تعالى: ﴿مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾.

- ١١- جرأة كفار مكة على اتهامه ﷺ بالسحر والكذب، ووصفهم إياه بأنه ساحر كذاب؛ تنفيراً منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كٰذِبٌ﴾ .
وهذا ديدن المكذبين للرسول عليهم السلام.
- ١٢- أن الذي حملهم على التعجب من كون الرسول منهم، ووصفه بالسحر؛ هو كفرهم؛ ولهذا أظهر في مقام الإضمار؛ فقال: ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ﴾ ؛ ليشملهم وصف الكفر هم وغيرهم ممن قال بقولهم.
- ١٣- إنكارهم وتعجبهم من دعوته ﷺ إلى عبادة الله تعالى وحده، ونبذ الشرك والشركاء؛ لقولهم: ﴿اَجْعَلِ الْاِلٰهَةَ اِلٰهًا وَّحِيْدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ .
- ١٤- وجوب عبادة الله تعالى وحده، وأنه هو وحده إله الخلائق كلهم، ومعبودهم، وإلى هذا دعا ﷺ والمرسلون قبله.
- ١٥- دعوة سادة المشركين وأشرافهم لهم بالثبات على ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿وَاَنْطَلَقْنَا مَلَأُ مِنْهُمْ اَنْ اَمْشُوا وَاَصْبِرُوا عَلٰٓى اِلٰهِيْكُمُ﴾ .
- ١٦- أن الصبر قد يكون غير محمود، وهو الصبر على فعل ما يخالف أمر الله؛ من الشرك والمعاصي.
- ١٧- اتهامهم النبي ﷺ بأنه في دعوته إياهم إلى عبادة الله تعالى وحده يريد الترويس والسيادة عليهم؛ لقولهم: ﴿اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ .
- ١٨- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقولهم: ﴿اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ وفي هذا رد على الجبرية الذين ينكرون ذلك.
- ١٩- أنه لا دليل للمشركين المكذبين له ﷺ، ولهذا قالوا: ﴿فِي الْمَلٰٓئِكَةِ الْاٰخِرَةِ﴾ ، أي: في النصرانية المحرفة، أو في دين آبائهم الباطل. وكونهم لم يسمعوا به لا يعتبر دليلاً لهم.
- ٢٠- اتهامهم له ﷺ أنه اختلق الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده من عند نفسه؛ لقولهم: ﴿اِنَّ هٰذَا اِلَّا اَخْلَقْتُ﴾ .
- ٢١- إنكارهم وتعجبهم من تخصيصه ﷺ بإنزال القرآن عليه من بينهم، وحسد لهم؛ لقولهم: ﴿اَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ .
- ٢٢- خطر السادة والكبراء من دعاة الضلال على عامة الناس ودهمائهم.

٢٣- أن الذي حملهم على التكبر عن اتباع القرآن والشقاق والتعجب من كون الرسول بشراً منهم، ورميهم إياه بالسحر والكذب، وإنكارهم وتعجبهم من دعوته إياهم إلى التوحيد، واستمرارهم على الشرك، واتهامهم له ﷺ أنه يريد السيادة عليهم، وإنكارهم وتعجبهم أن ينزل القرآن عليه من بينهم؛ هو شكهم في القرآن، وتكذيبهم به، وكونهم بعد لم يذوقوا عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾.

٢٤- تهديدهم بوقوع العذاب بهم عن قريب؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾.

٢٥- أنهم لا يملكون خزائن رحمة الله عز وجل؛ فيعطوا منها من يريدون، ويمنعوها عن من لا يريدون، ويجعلوا الرسالة فيمن يريدون دون من لا يريدون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْرَعْنَاهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، أي: ليس عندهم خزائن رحمته عز وجل، فخزائن رحمته كلها بيده، وقد وسعت كل شيء.

٢٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ والمؤمنين؛ لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٧- إثبات اسم الله عز وجل: «العزیز»، وصفة العزة التامة من جميع الوجوه له سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾.

٢٨- إثبات اسمه عز وجل: «الوهاب»، وأنه سبحانه ذو العطاء الجزيل، والهبات الواسعة العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿الْوَهَّابِ﴾.

٢٩- أنه عز وجل بمنحه يمنح القوة والنصر والتمكين، وهباته الجزيلة يعطي ما يشاء لمن يشاء.

٣٠- اختصاصه عز وجل بملك السموات والأرض وما بينهما دون الخلق كلهم، فليس لهؤلاء المكذبين المعترضين على رسالته ﷺ ولا لغيرهم شيء من الملك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْرَلَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾.

٣١- تحديدهم أن يصعدوا في أسباب السماء، فيقطعوا رحمة الله ووحيه عن رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾.

٣٢- تحقير المكذبين له ﷺ، وتقليل شأنهم، والبشارة له ﷺ، ووعده بنصره عليهم، وتهديدهم بالهزيمة والخذلان؛ لقوله تعالى: ﴿جُنْدًا مَا هُنَّآلِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٣﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٥﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَتَّائِذًا إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قُلُوبَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٨﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٩﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لِلَّهِ أَوَّابٌ ﴿٢٠﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٣﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٥﴾﴾:

ذكر في الآيات السابقة كثرة القرون الذين أهلكوا إجمالاً، ثم عدد كثيرًا منهم بأسمائهم، مبيّنًا السبب الموجب لعقابهم، وهو تكذيبهم الرسل.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، أي: قبل كفار مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ.

﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ وهم: قوم هود عليه السلام.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾، أي: ذو الجنود والقوة والأبنية الشاهقة، والملك العظيم

الثابت؛ قال الشاعر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد^(١)

﴿وَتَمُودُ﴾ وهم: قوم صالح عليه السلام.

﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾، أي: وأصحاب الغيضة والأشجار الكثيرة الملتفة

والبساتين، وهم قوم شعيب عليه السلام.

﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾، أي: الطوائف والأمم القوية الكثيرة، الذين طغوا وبعغوا،

وكذبوا رسل الله، فلم تنفعهم قوتهم ولا كثرتهم لما جاء أمر الله؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا

فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا

(١) البيت للأسود بن يعفر النهشلي. انظر: «الأغاني» ١٣/٢٢، «نهاية الأرب» ٦٦/٣، «لباب الأدب»

أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ [غافر: ٨٢].
وفي هذا تعريض بتهديد وتخويف المكذبين للرسول ﷺ؛ بأنه قد عذب وأهلك من
هم أكثر وأشد وأقوى منهم، فما أعنت عنهم كثرتهم وشدتهم وقوتهم لما جاءهم أمر الله.
﴿إِنْ كُلُّ﴾ «إن» حرف نفي بمعنى «ما»، أي: ما كل من هؤلاء الأحزاب.
﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما كل هؤلاء الأمم إلا كذب رسوله،
ومن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل.

﴿فَحَقَّ عِقَابٌ﴾، أي: فحق عقابي عليهم، أي: وجب ووقع.
وحذفت ياء المتكلم من «عقاب»؛ للتخفيف ومراعاة الفواصل.
قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً مَا لَهُا مِنْ فَوْاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قِطْنًا
قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ يَنْسُخُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَئِنَّ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ۗ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصَّلْنَا الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾، أي: وما ينتظر هؤلاء الكفار المكذبون للنبي ﷺ.
﴿إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: صيحة واحدة تصاح بهم، أي: نفخة
واحدة، وهي نفخة الفزع؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ
يَخِصِّمُونَ ﴿٤١﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٤٩، ٥٠].
﴿مَا لَهُا مِنْ فَوْاقٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الفاء: «فَوَاقٍ»، وقرأ الباقون
بفتحها: «فَوَاقٍ».

و«الفواق»: ما بين الحلبتين، أو ما بين الرضعتين، فحالب الناقة يعصر الثدي ثم
يتوقف، ثم يعود ويعصره، والرضيع يمص الثدي، ثم يطلقه، ثم يعود ويلتقمه.
ومعنى قوله: ﴿مَا لَهُا مِنْ فَوْاقٍ﴾، أي: ليس بعدها إمهال بقدر الفواق، ولا مثوية لها.
﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال المشركون المكذبون بوعد الله ووعيده- من شدة تكذيبهم
واستبعادهم لذلك وعنادهم- داعين على أنفسهم بتعجيل العذاب: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا

ربنا، ﴿مَجَلَّ لَنَا قَطْنَا﴾، أي: عجل لنا قسطنا ونصيبنا وحننا من العذاب، أي: أوقعه علينا عاجلاً في الدنيا؛ كما قال بعضهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْبَرِّ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾، أي: قبل يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء على الأعمال.
 ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أي: اصبر يا محمد على قولهم، أو على الذي يقولونه من التكذيب والاستهزاء والسخرية وغير ذلك؛ فإن النصر والعاقبة لك.
 ولهذا ذكره بعبدته ورسوله داود عليه السلام، وسيرته، وما كان عليه من العبادة والصبر؛ للتأسي به.

كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].
 ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾، أي: واذكر عبدنا ونبينا ورسولنا داود عليه السلام.
 ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ «ذا» نعت لـ«داود» منصوب، وعلامة نصبه الألف، أي: صاحب الأيد، أي: القوى والقوة، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، أي: بقوة، وقال تعالى: ﴿فَتَأْوِيكُمْ وَبِأَيْدِكُمْ يَنْصُرُوكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٦]، أي: قواكم بنصره.
 وقد كان داود عليه السلام صاحب الأيد، أي: القوى في تنفيذ أمر الله، والقوة في العلم والعمل والطاعة والعبادة والدعوة والحرب، والثبات عند اللقاء، قال ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى» (١).
 ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، أي: إنه كثير الأوب، أي: كثير الرجوع إلى الله عز وجل في جميع أموره، وطلب مرضاته، وتدارك ما فاته.

والجملة تعليل لما قبلها، وفيه إيحاء إلى أن القصد الاقتداء به عليه السلام؛ كما قال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَةُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٧، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٩٩، والترمذي في الصوم ٧٧٠؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾، أي: ذللنا الجبال مع داود عليه السلام، ﴿يُسَبِّحُنَّ﴾ بتسبيحه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ آخر النهار.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي»^(١)؛ يعني: الظهر أو العصر.

﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾ أول النهار وقت إشراق الشمس، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

﴿وَالطَّيْرِ﴾ «الطير»: منصوب عطفاً على «الجبال».

﴿مَحْشُورَةً﴾: حال، أي: وسخرنا الطير معه حال كونها محشورة، أي: مجموعة، يسبحن بتسبيحه بالعشي والإشراق؛ كما قال تعالى: ﴿يَنْجِبَالُ أَوْيٍ مَعَهُ وَالطَّيْرِ﴾ [سبأ: ١٠]، أي: سبحي معه.

﴿كُلُّ لَهْءٍ﴾، أي: كل من الجبال والطير لداود عليه السلام، ﴿أَوَابٍ﴾، أي: رجّاع إلى طاعته، يطيعه ويسبح بتسبيحه، ويرجع معه.

﴿وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ﴾ ذكر عز وجل منته عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بتقوية ملكه وتمكينه، أي: وقوينا ملكه بما وهبنا له من أسباب قوة الملك المادية من الحراس والجنود والأموال وغير ذلك، والمعنوية من الحزم والعزم، وقوة السلطان. ثم ذكر منته عليه بالنبوة والعلم.

﴿وَأَيَّنَّا لَهُ الْحِكْمَةَ﴾، أي: النبوة والعلم، وسداد الرأي.

﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ بالحكم بالصواب والحق والعدل في الخصومات إذا حكم، وفصل الخطاب بالبيان والفصاحة والبلاغة إذا تكلم؛ كما أوتي نبينا ﷺ جوامع الكلم^(٢).

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٨٢، ومسلم في المساجد ٥٧٣، وأبو داود في الصلاة ١٠٠٨، والنسائي في السهو ١٢٢٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٧٧، ومسلم في المساجد ٥٢٣، والنسائي في الجهاد ٣٠٨٧، والترمذي في السير ١٥٥٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت أو بعثت بجوامع الكلم».

الفوائد والأحكام:

- ١- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المكذبين له بذكر تكذيب الأمم قبلهم لرسولهم، قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، وعقاب الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾.
- ٢- إثبات رسالة نوح ولوط عليهما السلام، ورسول من ذكر من الأقوام، وهم هود وموسى وصالح وشعيب عليهما السلام.
- ٣- أن السعيد من وعظ بغيره.
- ٤- عظم ما أعطيه فرعون من القوة والجنود والملك، ولم يدفع عنه ذلك عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ﴾.
- ٥- أن قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب أشجار وبساتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ لَيْكَةٍ﴾.
- ٦- قوة أولئك الأقوام وشدتهم وكثرتهم، ومع ذلك لم تنفعهم ولم تدفع عنهم عقاب الله لما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾.
- ٧- إثبات الأسباب وترتب مسيبتها عليها بإذن الله، فأولئك الأقوام إنما عوقبوا بسبب تكذيبهم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فأثنى على داود عليه السلام؛ لأنه أواب رجاع إلى ربه.
- ٨- أن من كذب رسولا، فقد كذب جميع الرسل.
- ٩- يجب عدم الاعتزاز بما عليه أكثر الخلق، فأكثر الأمم كذبوا رسولهم.
- ١٠- الاعتبار بالأغلب؛ وأن الكل قد يطلق على الأغلب، فكل الأقوام المذكورين آمن منهم من آمن ونجا.
- ١١- التهديد والوعيد للمكذبين للنبي ﷺ بقرب حلول العذاب بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَتُّوْلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَنَجْدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾.

١٢- سفة المشركين المكذبين، وجهلهم؛ لدعائهم بتعجيل عذابهم في الدنيا قبل يوم القيامة؛ إمعاناً في التكذيب، واستبعاد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (١٦).

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، واعتراف المشركين بذلك؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

١٤- إثبات يوم القيامة، والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وإظهار المشركين الإيذان بذلك، وإن كانوا في الحقيقة يكذبون به.

١٥- أمره عز وجل له ﷺ بالصبر على قول قومه وأذاهم، وفي ذلك إشارة وبشارة إلى أن النصر والعاقبة له؛ لأن النصر مع الصبر، والعاقبة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

١٦- أنه ﷺ كغيره من البشر يتأثر ويتألم؛ ولهذا أمره الله بالصبر على ما يقوله المشركون.

١٧- أن طريق الرسل وأتباعهم ليس مفروشا بالورود والرياحين، بل لا بد فيه من الأذى بالقول والفعل، فلا بد فيه من الصبر.

١٨- تذكير الله عز وجل له ﷺ بعبده ورسوله داود عليه السلام وسيرته، وما كان عليه من الصبر على العبادة والطاعة وغير ذلك؛ لتثبيت فؤاده ﷺ، وطمأنة نفسه، والتأسي به في العبادة والصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ الآية.

١٩- إثبات نبوة داود عليه السلام ورسالته، وتشريفه وتكريمه بوصفه بالعبودية لله تعالى، أفضل ما يوصف به البشر، وإضافته إلى ضمير المتكلم وهو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَبْدَنَا﴾ وقوله: ﴿وَأَيِّنَّا الْحِكْمَةَ﴾ وهي النبوة والعلم.

٢٠- فضيلة داود عليه السلام؛ لأن الله عز وجل امتدحه وأثنى عليه، وأمر النبي ﷺ بذكره؛ للاقتداء به.

٢١- عظم ما أعطيه داود عليه السلام من القوة في العلم والعمل والطاعة والعبادة والحرب، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَا الْأَيْدِيُ﴾.

٢٢- الترغيب في القوة في الله، قوة القلب والبدن، والعلم والعمل؛ لأن الله أثنى

على داود عليه السلام بذلك، وفي الحديث: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»^(١).

٢٣- اتصافه عليه السلام بكثرة الرجوع إلى الله، والإنابة إليه، وتدارك ما فاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

٢٤- الحث على الرجوع إلى الله تعالى في جميع الأمور، والتوبة والإنابة إليه؛ لثنائه عز وجل على داود بذلك.

٢٥- امتنان الله عز وجل على داود عليه السلام بتسخير الجبال والطيور يسبحن معه أول النهار وآخره تسبيحًا خاصًا، وطاعته، والرجوع إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ^(١٩).

٢٦- نعمة الله تعالى على داود بما أكرمه به من حسن الصوت، الذي جعل الجبال والطيور يرجعن معه، ويجاوبنه بالتسبيح.

٢٧- فضل هذين الوقتين: العشي، والإشراق؛ لأنهما أوقات الصلاة والتسبيح والأذكار والأوراد.

٢٨- قدرة الله تعالى على جعل الجبال وغيرها من الجمادات، والطيور وغيرها من العجاوات، وكل شيء يسبحه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٢٩- فضل الله عز وجل على سليمان عليه السلام بتقوية ملكه، وتمكينه بما وهبه من أسباب قوة الملك المادية والمعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

٣٠- امتنان الله عز وجل على داود بإيتائه النبوة والعلم، وفصل الخطاب في الخصومات، والفصاحة والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾.

٣١- أن من نعم الله تعالى على العبد أن يرزقه العلم وفصل الخطاب؛ لأن الله امتن على نبيه داود عليه السلام بذلك.

* * *

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِجْمَةً وَوَلِي نِجْمَةٌ وَجِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿١٥﴾ يٰ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِجْمَةً وَوَلِي نِجْمَةٌ وَجِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿١٥﴾ ۞

قال السعدي^(١): «لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك، مقصوداً، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلها الله فتنة لداود وموعظة؛ لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقبض له هذه القضية؛ فقال لنبيه ﷺ: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ۞ فإنه نبأ عجيب. »

قوله: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ۞ الاستفهام للتعجب والتشويق، أي: وهل أتاك يا محمد، خبر الخصم؟ وهو خطاب له، ولكل من يصلح خطابه. والنبأ: الخبر الهام، و﴿ الْخَصْمِ ۞، أي: المتخاصمين؛ ولهذا قال: ﴿ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۞، أي: حين تسوروا على داود المحراب، وهو مكان عبادته، و«التَّسْوَرُ»: الاعتلاء والصعود على السور.

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ ۞ «إذ»: بدل من «إذ» الأولى، أي: حين دخلوا على داود في محرابه- وكان قد أغلق عليه بابه للعبادة- باعتلاء السور عليه.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦ / ٤١٤.

﴿فَفَرَعَ مُنْهَمًا﴾ الفاء: عاطفة، أي: خاف وارتاع منهم؛ لتسورهم المحراب عليه وهم جماعة، وهذا خوف طبيعي تقتضيه الطبيعة والجبلة.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾، أي: اطمئن ولا تخش شراً، أي: أننا ما جئنا لقتل أو نهب، ونحو ذلك.

﴿حَصَّانَ يَبِئَ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ﴾ تعليل للنهي عن الخوف، أي: نحن خصمان بغى بعضنا على بعض، أي: اعتدى بعضنا على بعض وظلمه.

﴿فَأَحْكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل.

﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾، أي: ولا تمل في الحكم على أحدنا، ولا تجر ولا تظلم.

و«الشطط»: الميل عن الحق، والجور والظلم والميل إلى أحد الخصمين.

﴿وَأَهْدِنَا﴾، أي: ودلنا وأرشدنا.

﴿إِلَى سَوَاءٍ أَلْصَرِطِ﴾، أي: إلى وسط الطريق، أي: إلى الطريق السوي، طريق العدل، والحق، والصواب.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾، أي: فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾، وجائز أن يكون أخاه في الدين، أو في النسب، أو الصداقة، أو في ذلك كله؛ مما يقتضي مراعاة هذه الأخوة فيما بينهما.

﴿لَهُ تَسَعٌ وَسَعُونَ نِعْمَةً﴾ مما يوجب عليه القناعة بما آتاه الله، و«النعجة»: أنثى الضأن.

﴿وَلِي نِعْمَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ لا تعدل شيئاً بالنسبة لما عنده، فطمع فيها.

﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾، أي: اجعلني كافلها، وأعطنيها، وذلك لتصير في ملكه، وهو

الكافل لها.

﴿وَعَزَّيَ فِي الْخِطَابِ﴾، أي: وغلبني في الجدال، أي: صار يجادلني ويحاجني حتى غلبني.

﴿قَالَ﴾ داود عليه السلام: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه،

أي: اعتدى عليك بسؤال ضم نعجتك إلى نعاجه.

ووجه الظلم ظاهر: لأن هذه النعجة ملك له، وهو أيضاً فقير معدم، لا يملك

غيرها، وأخوه عنده ما يغنيه عنها.

﴿وَأَنْ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾، أي: الشركاء في المواشي كالإبل والبقر والغنم، أو في الأموال عامة.

﴿يَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ اللام: للتوكيد، والبغي: الاعتداء والظلم، أي: ليعتدي بعضهم على بعض، ويظلم بعضهم بعضًا، في أخذ بعضهم من نصيب بعض، بأي وسيلة من الوسائل؛ لأن الظلم من صفة النفوس، وهوديدن كثير من الخلق؛ قال المتنبي^(١):

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعللة لا يظلم
ويقال في المثل: «لا يترك الظلم إلا عاجز».

وهذا غير مسلم على الإطلاق؛ ولهذا قال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا الذين آمنوا من الخلطاء وغيرهم، أي: صدقوا بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، أي: فهم لا يبغى ولا يعتدي بعضهم على بعض في أخذ نصيبه أو ظلمه؛ لأن الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من البغي والظلم، ويقدر نقص الإيمان والعمل الصالح عندهم، يحصل منهم البغي والظلم.

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ «ما»: زائدة إعرابًا، مؤكدة للقلة من حيث المعنى، أي: وقليل من الخلطاء، ومن الخلق كلهم، المؤمنون الذين يعملون الصالحات، ولا يقعون في البغي والاعتداء والظلم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَطَنَ دَاوُدُ﴾، أي: وأيقن داود عليه السلام، وعلم.

﴿أَنَّمَا فَنَّنَاهُ﴾ «أنما»: كافة ومكفوفة، وتفيد الحصر، أي: اخترناه وامتحناه، ودبرنا عليه هذه القضية والخصومة؛ لينتبه.

﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ﴾ الفاء: عاطفة، أي: طلب من ربه المغفرة لما صدر منه.

﴿وَحَرَّرَّاكُمَا﴾، أي: خر على الأرض ساجدًا لله تعالى.

(١) انظر: «ديوانه» ١/١٦٦.

﴿وَأَنَابَ﴾، أي: وتاب ورجع إلى الله تعالى خشية له.
 ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكُ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فغفرنا له ذلك الذي صدر منه، بستره
 والتجاوز عنه.

قال السعدي^(١): «وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به، وتوبته، وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها».
 ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ الواو: عاطفة، أي: وإن له مع المغفرة ﴿عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ اللام: للتوكيد،
 أي: وإن له عندنا لدرجة رفيعة، ومنزلة عالية، وقرباً منا.

﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾، أي: وله عندنا «حسن مآب»، أي: حسن منقلب، وطيب مأوى
 في الجنة؛ لتوبته وإنابته، وعدله التام في ملكه، وقوته في الطاعة والعبادة، وثباته عند
 اللقاء، وغير ذلك.

قال ابن القيم: «فزاده الله على المغفرة أمرين: الزلفى، وهي درجة القرب منه...
 والثاني: حسن المآب، وهو حسن المنقلب، وطيب المأوى عند الله. قالوا: ومن تأمل
 زيادة القرب التي أعطاها داود بعد المغفرة علم صحة ما قلنا: وأن العبد بعد التوبة
 يعود خيراً مما كان»^(٢).

قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣١﴾﴾:
 قوله: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ﴾، أي: صيرناك ﴿خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ تنفذ أحكام الله،
 وتحكم بين الناس في أمور دينهم ودنياهم.

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ الأمر للوجوب، أي: فاحكم بين الناس بالعدل.
 ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾، أي: ولا تتبع في حكمك بين الناس ﴿الْهَوَىٰ﴾، أي: ما تهواه نفسك.

﴿فِيضْلَكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فيضلك الهوى، أي: يبعذك ويحيد بك، ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: عن صراط الله وطريقه وشرعه.
قال ابن القيم: «فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق، وهو الوحي الذي أنزل الله على رسوله، وإلى الهوى، وهو ما خالفه»^(١).
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: الذين يتعمدون الخروج عن سبيل الله، ومخالفة حكمه، ولم يقل: «إنك إن تضل»؛ تفادياً من مخاطبة داود بذلك، وليكون الكلام أعم.
﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: عظيم من حيث كيفه وكمه.
﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب نسيانهم يوم القيامة؛ يوم الحساب والجزاء، وترك الاستعداد والعمل له.

الفوائد والأحكام:

- ١- ذكر قصة الخصم الذين تسوروا المحراب على داود عليه السلام، والتشويق إليها؛ لما فيها من العجب والعبء والعضات.
- ٢- ملازمة داود عليه السلام محرابه للعبادة، مع ما هو فيه من الملك الكبير، وكثرة ما يرد عليه من الأحكام.
- ويؤخذ من هذا: حاجة كل من يتولى شيئاً من مسؤوليات الأمة، أن يجعل له وقتاً يخلو فيه بربه للعبادة؛ ليكون غذاءً روحياً له، وقربة له عند الله، وسبباً لتوفيقه في أعماله، وعاوناً له عليها.
- ٣- تشریف النبي ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتَك﴾.
- ٤- فزع داود عليه السلام من هؤلاء الخصم؛ لأنهم تسوروا عليه محرابه، وكان لا يأتيه فيه أحد، ودخلوه من غير بابه، ومن غير استئذان، مفاجأة، ومباغطة؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَزَع﴾.
- ٥- أن الأنبياء عليهم السلام بشر، يعترهم ما يعترى غيرهم من البشر من الخوف الطبيعي ونحو ذلك.
- ٦- ينبغي الاستئذان ومراعاة لأداب عند الدخول على الحكام وغيرهم، وأن

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٣٨.

تؤتى البيوت من أبوابها.

٧- حلم داود عليه السلام؛ فإنه ما غضب عليها، ولا انتهرهما، ولا وبخهما حين تسورا عليه المحراب.

٨- طمأننتهم له بأنهم ما جاؤوا لأمر يخاف منه، بل لخصومة بينهم، وهكذا ينبغي لمن قدم ففزع المقدم عليه منه أن يطمئنه، ويبين له سبب قدومه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾.

٩- جواز نسبة البغي والظلم لمن حصل منه ذلك؛ لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾.

١٠- مطالبتهم إياه بالحكم بينهم بالعدل، من غير ميل لأحدهم، أو جور وظلم، وداللتهم إلى الصواب؛ لقولهم: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

١١- حسن خلق داود عليه السلام، وعدم اشمئزازه من نصيحتهما، وقبوله ذلك منها.

١٢- ينبغي ألا تؤثر الخصومة على الخصمين بترك الأدب فيما بينهما؛ لقول هذين الخصمين معاً: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾، مع أن الباغي واحد، وقول الذي عرض القصة: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾.

١٣- يجب احترام حق الأخوة، سواء كانت في الدين، أو في النسب، أو الصداقة، أو في ذلك كله؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ فهذا تذكير بحق الأخوة بينهما.

١٤- أن المال كلما كثر عند الإنسان كان مدعاة إلى طمعه وجشعه، فهذا الذي عنده تسع وتسعون نعجة لم تقنعه، بل طمع في نعجة أخيه الواحدة، وقد قال ﷺ: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولا يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(١).

١٥- أن بعض الخصوم قد يكون أقوى حجة من بعض؛ لقوله: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٣٩، ومسلم في الزكاة ١٠٤٨، والترمذي في الزهد ٢٣٣٧؛ من حديث

أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد قال ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي بنحو مما أسمع، فمن قضيت له شيء من حق أخيه فلا يأخذه؛ فإنها أقطع له قطعة من النار»^(١).

١٦- أن قوة حجة الخصم أمر مطلوب، بل ومحمود إذا كان بحق، لكن إن كان لقلب الموازين، وبغير حق فهو مذموم.

١٧- قضاؤه عليه السلام بينهما بالعدل، دون ميل لأحدهما أو ظلم؛ لقوله لصاحب النعجة الواحدة: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ سُؤَالَ تَجَبُّكَ إِلَيَّ نِعَاجِيَةً﴾، وإنما حكم داود عليه السلام- والله أعلم- دون أن يسمع كلام الخصم الآخر؛ لأنه ظهر من السياق السابق من كلامهما أن هذا هو الواقع.

قال السعدي^(٢): «ومن المعلوم من السياق من كلامهما أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر؟».

١٨- يجب ألا يمنع الحاكم من الحكم بالحق والعدل سوء أدب الخصم، فداود عليه السلام حكم بينهم بالعدل، مع أنهم تسوروا عليه المحراب وأفزعوه.

١٩- أن كثيراً من الخلطاء والشركاء في المواشي والأموال قد يعتدي بعضهم على بعض، ويظلم بعضهم بعضاً، بانتقاص حقه، ونحو ذلك؛ لقول داود: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ﴾.

٢٠- استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات- وهم قليل- من بين الخلطاء، من بغي بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

٢١- فضيلة الإيمان والعمل الصالح؛ لأن ذلك يمنع صاحبه من الاعتداء والظلم؛ وقد روي في الحديث القدسي: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه،

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٨٠، ومسلم في الأفضية، الحكم بالظاهر ١٧١٣، وأبو داود في الأفضية ٣٥٨٣، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٠١، والترمذي في الأحكام ١٣٣٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣١٧؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٤١٥.

فإذا خانه خرجت من بينهما»^(١).

٢٢- أنه لا بد من الجمع بين إيمان القلب وتصديقه، وعمل الصالحات بالجوارح الظاهرة، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٣- أن أهل الإيمان والعمل الصالح قليل بالنسبة لأهل الكفر والبغي والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فلا يغتر بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على ضلال.

ولهذا قال بعض السلف: «لا تستوحش من الحق لقلّة السالكين، ولا تغترّ بالباطل لكثرة الهالكين»^(٢).

٢٤- تنبه داود عليه السلام من خلال تسور الخصم محرابه عليه، وخصومتها، واعتقاده بأن الله إنما اختبره وامتحنه بذلك، واستغفاره ربه، وخروره ساجدًا، وإنابته إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

ويشرع السجود عند قراءة هذه الآية من «ص»، لكنها ليست من عزائم السجود، فعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنه قال في السجود في «ص»: «ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها»^(٣).

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ سجد في «ص»، وقال «سجد داود توبة، ونحن نسجدها شكرًا»^(٤).

وعن مجاهد قال: سألت ابن عباس - يعني: عن سجدة «ص» - من أين سجدت؟ فقال: «أوما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِم مَّا قَتَدُوا﴾؟ فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، في الشركة ٣٣٨٣، وضعفه الألباني، وأخرجه الحاكم ٦٠ / ٢ وصححه، ووافقه الذهبي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة، في أبواب سجود القرآن ١٠٦٩، وأبو داود في الصلاة، السجود في «ص» ١٤٠٩، والترمذي في أبواب السفر، ما جاء في سجدة «ص» ٥٧٧، وأحمد ١ / ٣٦٠.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» في التفسير، فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥٢ / ٧، وقال ابن كثير: «تفرد به النسائي، ورجال إسناده كلهم ثقات».

(١) ﷺ

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل وسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَرَّنَ الناس للسجود، فقال: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تَشَرَّنْتُمْ» فنزل وسجد وسجدوا» (٢).

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لداود عليه السلام، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُ﴾.

٢٦- مغفرة الله تعالى لداود ما صدر منه- مما استوجب ابتلاءه وامتحانه- بعد استغفاره ربه، وإنابته إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾.

٢٧- أن الاستغفار والصلاة والعبادة والإنابة والتوبة، من أسباب مكفرات الذنوب.

٢٨- عظم ما عند الله تعالى لداود من الكرامة: من المنزلة الرفيعة عنده تعالى، والقرب منه، وحسن المرجع، وطيب المأوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

٢٩- أن حال التائب من الذنب بعد التوبة والإنابة خير من حاله قبل الذنب؛ لما أعطاه الله تعالى لداود بعد توبته من الكرامة، وكحال آدم قبل معصيته بالأكل من الشجرة، وبعد أكله منها وتوبته، وتوبة الله تعالى عليه.

٣٠- إثبات الكلام لله تعالى بحرف وصوت مسموع؛ لقوله: ﴿يَدَاوُدُ﴾ الآية.

٣١- امتنان الله تعالى على داود بجعله خليفة في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾.

٣٢- أمر الله تعالى لداود بالحكم بين الناس بالحق، أي: بالعدل، ونهيه عن اتباع الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ الآية.

وليس في هذا دلالة على أنه قد يقع منه ذلك؛ لأن الأنبياء عليهم السلام

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «ص»، ٤٨٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة-السجود في «ص» ١٤١٠ وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ٥٣: «تفرد به أبو داود، وإسناده على شرط الصحيح».

- معصومون عن الخطأ في التبليغ، وعن الوقوع في الكبائر.
- ٣٣- أنه يجب على الحاكم بين الناس أن يحكم بينهم بالحق والعدل، ويحذر من اتباع الهوى.
- ٣٤- أن من اتبع الهوى في حكمه بين الناس أضله عن سبيل الله القويم، وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿فِيضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٣٥- الوعيد والتهديد لمن ضلوا عن سبيل الله، وصراطه المستقيم؛ بالعذاب الشديد، بسبب نسيانهم يوم الحساب، والعمل له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.
- ٣٦- إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها بإذن الله تعالى.
- ٣٧- إثبات يوم القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، ووجوب الاستعداد والعمل له، والحذر من نسيانه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٣٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيُبَيِّنَ لَهُ مَا فِي السُّورَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا وَعَمِلُوا

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ «باطلاً»: مفعول مطلق نائب عن المصدر، أي: خلقاً باطلاً، أي: عبثاً وهواً ولعباً، من غير فائدة ولا مصلحة، أي: ما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات إلا بالحق والعدل، ولعبادة الخلاق لله تعالى وحده، ومجازاتهم على أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٦١﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا وَعَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ [النجم: ٣١].

﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الإشارة إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾، أي: ذلك الظن بأننا خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً، هو ظن الذين كفروا، أي: اعتقادهم، فيعتقدون أنه ليس هناك بعث ولا معاد ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١٢﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ [المؤمنون: ٣٧].

قال ابن القيم: «والباطل الذي ظنوه ليس هو الجمع بين النقيضين، بل الذي ظنوه: أنه لا شرع ولا جزاء، ولا أمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، فأخبر أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذي تنزه عنه، وذلك هو الحق الذي خلقت به، وهو التوحيد وحقه وجزاؤه، وجزاء من جحدته وأشرك به»^(١).

﴿قَوْلٌ﴾، أي: وعيد شديد وهلاك ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، أي: أنها هي مصيرهم؛ لأنهم ظنوا بربهم ما لا يليق بجلاله، فأنكروا البعث والمعاد والحساب، ومجازاة العباد، ظنوا أنه خلق الخلق باطلاً، وتركهم سدى؛ ولهذا قال:

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٣٨.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «أم»: في الموضوعين هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أي: أنصير الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم. ﴿كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والأعمال السيئات، أي: لا نجعل هؤلاء كهؤلاء، فستان بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأصلحوا في الأرض، وبين الذين كفروا وعملوا السيئات، وأفسدوا في الأرض، شتان بينهم في الدنيا والآخرة، فالمؤمنون سعداء بإيمانهم في الدنيا والآخرة، ومآلهم إلى الجنات، والكفار أشقياء بكفرهم في الدنيا والآخرة، ومآلهم إلى النار والدركات.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: بل أنجعل المتقين الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، ﴿كَالْفَجَّارِ﴾، أي: كأهل الفجور والمعاصي. وهذا تأكيد للإنكار، وزيادة تشنيع على منكري البعث والجزاء؛ لأن إنكار البعث والجزاء يقتضي المساواة بين المختلفين؛ كالتسوية بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار. فهذا حكم في غاية السوء والقبح، يتنزه الله عنه، ولا يجوز نسبه إليه؛ لمنافاته لحكمته وعدله وكماله، فلا يليق به أن يجعل المؤمن كالمفسد، والبر كالفاجر، والمحسن كالسيء؛ لأن هذا قبيح في نفسه، يتعالى الله عن فعله، وينكره الشرع، وتنكره العقول والفطر وتستقبحه، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

والمعنى: إنا لا نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ولا نجعل المتقين كالفجار، ولا يستوون عند الله، وحكمتنا تأبى ذلك وعدلنا؛ ولهذا لا بد من البعث والمعاد؛ لمحاسبة العباد، ومجازاتهم على أعمالهم، والاقتصاص للمظلوم من الظالم، وهذا تدل عليه العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

﴿كَتَبٌ﴾، أي: هذا كتاب، ونكر «كتاب» للتعظيم، والمراد به: القرآن الكريم، ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ صفة لـ «كتاب»، أي: أنزلناه من عندنا، فهو كلامنا.

﴿إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿مُبْرَكٌ﴾، أي: كثير البركة والخير، فيه بيان كل خير، والدعوة إليه، والتحذير من كل شر.

﴿لِيَذَّبَرُواْ عَنِيبَهُ وَيَلْتَدَبَّرُواْ أَوْلُواْ أَلْتَبِيْ﴾ قرأ أبو جعفر بناء الخطاب مع تخفيف الدال: «لِتَدَبَّرُوا»، وقرأ الباقون بياء الغيبة، مع تشديد الدال: «لِيَذَّبَرُوا».

واللام في الموضعين للتعليل، أي: لأجل أن يتدبروا آيات هذا الكتاب العظيم: بتلاوة ألفاظها وحفظها، وفهم معانيها، وتطبيق أحكامها، والعمل بها.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أَوْلُواْ أَلْتَبِيْ﴾، أي: ولأجل أن يتعظ ويعتبر بآيات هذا الكتاب أصحاب العقول النيرة، الذين ينتفعون بعقولهم، ويهتدون بها إلى الحق، بعد تدبر ألفاظ هذه الآيات ومعانيها وأحكامها.

الفوائد والأحكام:

١- أن الله عز وجل خلق السماء والأرض والمخلوقات كلها بعد العدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾.

٢- النفي القاطع أن يكون عز وجل خلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً وعبثاً وهواً ولعباً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾.

٣- إثبات أن الله عز وجل خلق السماء والأرض وما بينهما بالحق، وإقامة الحق والعدل، ولحكمة عظيمة؛ وهي أن يعبد الخلائق ويوحده، ويمجزيهم على أعمالهم؛ لفهوم قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾.

٤- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى.

٥- لا أحد يعتقد أن الله خلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً وعبثاً، وترك الخلائق سدى، إلا الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٦- أن من اعتقد بأن الله خلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً، فهو كافر.

٧- التهديد والوعيد للذين كفروا واعتقدوا أن الله خلق الخلق باطلاً، بالنار وعذابها الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ﴾.

٨- إثبات وجود النار، وأنها أعدت للكافرين.

٩- أن حكمة الله تعالى تأبى، ولا يليق بعدله وكماله أن يجعل الذين آمنوا كالمفسدين في الأرض، ويجعل المتقين كالفجار، فلا يستون عند الله، فالمؤمنون المتقون لهم الثواب، والمفسدون الفجار لهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۗ﴾ (٢٨)، أي: لا نجعل هؤلاء كهؤلاء، ولا يستون عندنا.

١٠- أنه لا بد من البعث والمعاد، ومحاسبة العباد بأعمالهم، ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والاقتصاص من الظالم للمظلوم.

١١- لا بد من الجمع بين الإيثار بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحاً، أي: خالصاً لله تعالى، تبعاً لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ﴾.

١٢- أن من كفر وعمل السيئات فهو من المفسدين في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ۗ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۗ﴾ [الأعراف: ٥٦].

كما أن من آمن وعمل الصالحات فهو من المصلحين في الأرض؛ لأن صلاح الأرض بالإيثار والعمل الصالح، وفسادها بالكفر والمعاصي.

١٣- الحث والترغيب بالإيثار والعمل الصالح، وتقوى الله، والتحذير والترهيب من الإفساد في الأرض والفجور.

١٤- تعظيم القرآن، والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ۗ﴾.

١٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ۗ﴾.

١٦- أن القرآن منزل من عند الله تعالى، وهو كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ ۗ﴾،

وفي هذا الرد على القدرية القائلين بخلق القرآن.

١٧- أن القرآن مكتوب باللوح المحفوظ، وبالصحف التي بأيدي الملائكة،

ومكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا ۗ﴾.

١٨- إثبات رسالته ﷺ بإنزال الكتاب عليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله

تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾.

١٩- ثناء الله تعالى على القرآن الكريم، وامتداحه له بقوله: ﴿مُبْرَكٌ﴾، أي: كثير الخير والبركة، فيه تبيان كل شيء، والدعوة لكل خير، والتحذير من كل شر.

٢٠- أن الحكمة من إنزال القرآن الكريم: ليتدبر العباد آياته؛ بتلاوته وحفظه، وفهم معانيه، وتطبيق أحكامه، والعمل به، والتذكر والاتعاظ به؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَتَذَكَّرُوا﴾.

قال الحسن البصري: «والله ما تدبّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل»^(١).

٢١- أن التذكر هو ثمرة التدبر، ولهذا قدم التدبر على التذكر.

٢٢- أنه لا يتذكر ويتعظ بالقرآن إلا أصحاب العقول، الذين ينتفعون بعقولهم، ويهتدون بها إلى الحق، والتي هي مناط المدح؛ بخلاف غيرهم الذين عندهم العقول التي هي مناط التكليف، لكنهم لم ينتفعوا بها.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ٥٥.

قال الله تعالى: ﴿ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَكَابِرٍ ﴿٤٠﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ۞

قوله: ﴿ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ۞، أي: آتينا لداود ابنه سليمان وارثًا للنبوة بعده.

كما قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴿النمل: ١٦﴾، أي: في النبوة. وقد كان له أبناء كثيرون غيره.

﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ ﴾ سليمان عليه السلام، و«نعم»: لإنشاء ملدح، ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾، أي: كثير الأوب والرجوع إلى الله تعالى في جميع أموره، والإنابة إليه، والطاعة والعبادة، والذكر والتسبيح.

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ «إذ»: ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر.

أي: إذ عرض عليه سُوَّاس خيله ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾، أي: ما بعد العصر، أو ما بعد الزوال إلى الغروب، ﴿ الصَّافِنَاتُ ﴾، أي: الخيل الصافنات، جمع «صافنة»، وهي الخيل التي تقف على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة، وذلك علامة أصالتها ونجابتها وخفتها وقوتها، وهو أجمل عند رؤيتها.

وأنشد بعضهم في صفة فرس:

أَلِفَ الصَّفُونِ فَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا (١)

(١) انظر: «أمالي ابن الحاجب» ٢/ ٦٣٥، شرح شواهد المغني ٢/ ٧٢٩، «لسان العرب» مادة (صفن)،

﴿الْحَيَادُ﴾، أي: ذوات الجود، والسبق في السير، أو: جمع «جواد» وهو: اسم الفرس ذكرًا كان أو أنثى.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾، أي: أحببت الخير، و«حب» للتأكيد، و«الخير»: يطلق على المال عمومًا؛ كما قال تعالى: ﴿وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

والمراد بالخير في الآية هنا: «الخيال»، وهي من أنفس المال. أي: إني آثرت حب الخيال، وانشغلت بالنظر إليها ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾، أي: عن أذكار المساء وصلاة العصر.

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، أي: حتى غابت الشمس، أي: استترت واختفت عن الأبصار، أو حتى توارت الخيال واستترت عنه.

﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ الخطاب لسؤاس خيله، وضمير الهاء للخيل، أي: أرجعوا الخيل إليّ. وقيل: الخطاب للملائكة، والضمير للشمس.

﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قرأ أبو جعفر، وقبل عن ابن كثير بهمزة ساكنة بعد السين: «بِالسُّوقِ»، وقرأ الباقون بدون همز: ﴿بِالسُّوقِ﴾.

وقوله: ﴿فَطَفِقَ﴾، أي: شرع، ﴿مَسْحًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: يمسخها مسحًا.

و«السوق»: جمع ساق، و«الأعناق»: جمع عنق، وهي الرقاب. قال بعض المفسرين: شرع يعقرها ويضربها بالسيف في سيقانها، وفي رقابها؛ غضبًا لله تعالى، وتقربًا إليه؛ لأنها شغلته عن ذكر ربه^(١).

قال السعدي^(٢): «فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته

«مغني اللبيب» ٣١٨/١، «المعجم في شواهد العربية» ١٦٤/٣.

(١) انظر: «جامع البيان» ٢٠/٨٦-٨٧، «تفسير ابن كثير» ٧/٥٧.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/٤١٩، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٧/٥٧.

عن صلاة المساء وذكره، فقال ندمًا على ما مضى منه، وتقربًا إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديماً لحب الله على حب غيره: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾، وضمن «أحببت» معنى «آثرت»، أي: آثرت حب الخير، الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد: الخيل، ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ﴾، أي: غابت عن عينيه، ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ فردوها، ﴿فَطَفِقَ﴾، أي: شرع فيها، ﴿مَسَّحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾، أي: جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها»^(١).
واختار هذا الطبري^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾^(٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ^(٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ^(٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ^(٣٧) وَأَخْرَيْنَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ^(٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(٣٩) وَإِنَّا لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَاقِبٍ^(٤٠) :

قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾، أي: ابتليناه واختبرناه؛ بأن سليناه ملكه.
﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وكثير من التابعين: «أي: شيطاناً»^(٣).

قال الطبري^(٤): «ولقد ابتلينا سليمان، وألقينا على كرسية جسد شيطان ممثل بإنسان». وقال السعدي^(٥): «أي: شيطاناً، قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في مدة فتنة سليمان».

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٨٧ / ٢٠.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٨٧ / ٢٠.

(٣) انظر: «جامع البيان» ٨٨ / ٢٠، «تفسير ابن كثير» ٥٧ / ٧.

(٤) في «جامع البيان» ٨٧ / ٢٠.

(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦٢٠ / ٦.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، أي: رجع وتاب إلى ربه.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾، أي: يا رب، اغفر لي، أي: استر علي، وتجاوز عني.

﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾، أي: أعطني ملكًا، ونكر «ملكًا»: للتعظيم، أي: ملكًا عظيمًا

كبيرًا، وقدم طلب المغفرة؛ لأنها أهم، والتخلية قبل التحلية.

﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ الجملة في محل نصب نعت لـ «ملكًا»، أي: ملكًا لا يكون

مثله لأحد من البشر من بعدي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن عفريتًا من الجن تفلت عليّ

البارحة- أو كلمة نحوها- ليقطع علي الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى

سارية من سواربي المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي

سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾^(١) فرده خاسئًا^(١).

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ الجملة تعليل لما قبلها، وفيها تأكيد وتخصيص وحصص بـ «إن»،

وضمير الفصل «أنت»، وكون الجملة اسمية، أي: لأنك أنت وحدك الوهاب، أي:

الجواد الكريم، ذو الهبات العظيمة، والعطايا الجزيلة.

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ قرأ أبو جعفر: «الرِّيحَ» بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿الرِّيحِ﴾

بالإفراد. والفاء عاطفة، أي: فاستجبنا له وغفرنا له، فسخرنا له الريح، أي: الهواء،

التي هي خير وأسرع من الخيل.

﴿تَجْرَى بِأَمْرِهِ﴾، أي: تسير وفق أمره، ﴿رُخَاءً﴾، أي: لينة في سيرها وهبوبها، لينة في

طاعتها، لا تستعصي.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾، أي: حيث قصد وأراد من الجهات والبلاد.

﴿وَالشَّيْطِينَ﴾ منصوب عطفاً على «الريح»، أي: وسخرنا له الشياطين؛ وهم عفاريت

الجن.

﴿كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ «كل»: بدل من «الشياطين»، ﴿بِنَاءٍ﴾ مسخر بيني الأبنية العظيمة

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦١، ومسلم في المساجد، جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة ٥٤١.

العجيبة، من محارِب وتماثيل، وغير ذلك.

﴿وَعَوَّاصٍ﴾، أي: مسخر في الغوص في البحار؛ لاستخراج اللؤلؤ والمرجان والدرر والجواهر، التي لا توجد إلا في قعر البحار؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُصُونَ لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

﴿وَأَخْرَيْنَ﴾، أي: وآخرين من الشياطين ممن تمردوا وعصوا وامتنعوا عن العمل، أو أساءوا في صنيعهم، وآذوا واعتدوا.

﴿مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾، أي: موثقين بالقيود والأغلال في أيديهم وأعناقهم، وذلك من تمام قوة سلطانه وملكه.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾، أي: قال عز وجل لسليمان: هذا عطاؤنا العظيم لك، من تسخير الريح والشياطين، والملك العظيم، والسلطان التام؛ كما سألتنا. وفي هذا امتنان عليه بذلك.

﴿فَأَمْنٌ أَوْ أَمْسِكُ﴾ «أو» عاطفة للتخيير، أي: أعط من شئت، أو امنع من شئت. أو بمعنى الواو، أي: أعط من شئت، وامنع من شئت.

﴿بَعَثَ حِسَابٍ﴾، أي: فلا حساب عليك في ذلك، ولا حرج؛ لعلمه تعالى بكمال عدله عليه السلام، وحسن أحكامه.

قال ابن القيم: «أي: أعط من شئت، وامنع من شئت، لا نحاسبك، وهذه المرتبة هي التي عرضت على نبينا ﷺ، فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها، وهي مرتبة العبودية المحضة، التي تصرّف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد في كل دقيق وجليل»^(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة. فلما نزل، قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أفملكاً نبياً يجعلك، أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: «بل عبداً رسولاً»^(٢).

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٣٩.

(٢) أخرجه أحمد ٢ / ٢٣١، وصححه إسناده أحمد شاكر، وقال الهيثمي ٩ / ١٩: «رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى،

﴿وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَرْفَعًا﴾ اللام: للتوكيد، وإن له عندنا في الآخرة لدرجة رفيعة، ومنزلة عالية، وقربى وكرامة.

﴿وَحَسَنَ مَنَاقِبٍ﴾، أي: حسن مرجع، وطيب مأوى، وهي الجنة.

الفوائد والأحكام:

١- نعمة الله تعالى على داود بهبته سليمان عليهما السلام وارثًا للنبوة بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ وفي هذا إثبات نبوة سليمان عليه السلام، ورسالته.

٢- امتداح الله تعالى لسليمان بوصفه بالعبودية، التي هي أجل وصف يوصف به البشر؛ لقوله تعالى: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ﴾ وفي هذا إثبات عبودية الأنبياء لله تعالى عبودية خاصة.

٣- ثناء الله تعالى عليه بكثرة الإنابة، والرجوع إلى الله، والعبادة والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

٤- إثبات العلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فامتدحه عز وجل؛ لأنه أواب. وفيه ترغيب في الإنابة والرجوع إلى الله.

٥- عظمة ملك سليمان، وقوة جيشه، وتمتعه بعرض الخيل عليه بالعشي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾.

٦- لا بأس باستعراض ولي الأمر خيله وجنوده وجيشه؛ إظهارًا لقوة الأمة، وإعدادًا لذلك، بل إن ذلك أمر مطلوب.

٧- أن أحسن الأوقات لاستعراض الخيل وسباقها، واستعراض الجيوش، آخر النهار.

٨- أن مما أعطيه سليمان من الملك العظيم: قوة الجيش، من الخيل الأصيلة الصافنات الجياد؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾.

٩- يجب على الأمة الإسلامية أن تستعد بالقوة في كل عصر بما يناسبه.

- ١٠- أن من علامات أصالة الخيل ونجابتها وخفتها وسرعتها وجودتها: أن تقف على ثلاث قوائم، وطرف حافر القائمة الرابعة؛ لقوله تعالى: ﴿الضَّيْفَتُ لِحِيَادُ﴾.
- ١١- انشغاله عليه السلام بها حبًّا لليل، وحبًّا لها، عن أذكار المساء، وصلاة العصر، حتى توارت عن عينيه، أو حتى غابت الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (٣٣).
- ١٢- غضبه عليها؛ حيث كانت سببًا لانشغاله عن الصلاة وذكر الله، وأمره الساسة بردها عليه، وشروعه بضربها بالسيف بسيقانها ورقابها وعقرها؛ لقوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (٣٣).
- وذلك غضبًا لله تعالى، وتقديرًا لمحبهته عز وجل على محبتها.
- ١٣- استدل بالآية من يقول بجواز التعزير بإتلاف المال.
- وقيل: لا يجوز ذلك؛ لأنه إفساد.
- ١٤- يجب الحذر من الانشغال عن ذكر الله بالدنيا ومتاعها وزينتها.
- ١٥- ابتلاء الله تعالى لسليمان عليه السلام، واختباره إياه بسلب ملكه، وإلقائه على كرسي ملكه شيطانًا يتصرف فيه وقت فتنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾.
- ١٦- أن الله عز وجل قد يتلى أصفياء عباده بما يمحصهم، وينالون به أعلى المنازل والدرجات، وقد قال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم» الحديث (١).
- وقال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه» (١).
- قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويتلى الله بعض القوم بالنعم (٢)
- ١٧- إنابته عليه السلام إلى الله تعالى، ورجوعه إليه بعد فتنته بما ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، وهكذا جميع الأنبياء معصومون عن الاستمرار على الخطأ والذنب.

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص ٥٧٧.

١٨- دعاؤه عليه السلام ربه - بعد ابتلائه إيَّاه بذهاب ملكه، وبعد إنابته - بأن يغفر له، ويهب له ملكًا لا يكون لأحد من بعده مثله، وتقديمه طلب المغفرة؛ لأنها أهم، والتخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾.

١٩- أن الأنبياء عليهم السلام في حاجة إلى سؤال المغفرة من ربهم كسائر الخلق، وليسوا معصومين من صغائر الذنوب؛ مما لا يتعلق بالتبليغ.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٢١- أن الدعاء باسم الرب وصفة الربوبية من أقرب الأسباب لإجابة الدعاء، ولهذا دعا بذلك سليمان، وكان عامة دعاء الأنبياء والصالحين بذلك.

٢٢- جواز الدعاء بطلب الملك، وأن يهبه الله ملكًا لا يكون لأحد من البشر مثله؛ لقول سليمان عليه السلام: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾.

وقد اختلف العلماء في حكم سؤال الإمارة وما أشبهها من الولايات، فمنهم من أجاز ذلك، مستدلًا بسؤال سليمان عليه السلام الملك، وقول يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، وغير ذلك.

ومنهم من قال: لا يجوز، واستدل بقوله ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها»^(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرصعة وبئست الفاطمة»^(٢).

واستدلوا بحديث أبي موسى رضي الله عنه، أن رجلين قالوا: أمرنا يا رسول الله، فقال: «إنا لا نولي هذا من سألته وحرص عليه»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٦، ومسلم في الإيمان ١٦٥٢، وأبو داود في الخراج ٢٩٢٩، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٤، والترمذي في النذور ١٥٢٩، من حديث عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٨، والنسائي في البيعة ٤٢١١.

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٤٩، ومسلم في الإمارة ١٧٣٣، وأبو داود في الأقضية ٣٥٧٩.

ومنهم من قال: إن سألها بقصد إصلاح ما فسد منها، مع علمه بقدرته على القيام بمسؤوليتها، جاز له ذلك، وهو حري بأن يعان عليها؛ لحسن قصده، وعلى هذا يُنزل سؤال سليمان ويوسف عليهما السلام.

وأما من سألها مع علمه بعدم قدرته على القيام بها، أو لمجرد غرض في نفسه ولمصلحته؛ فإنه لا يجوز له سؤالها حتى وإن ظن قدرته عليها؛ فإنه لن يعان عليها، بل سيوكل إليها، والسلامة غنيمة، والعافية لا يعدلها شيء، وهذا هو الصحيح.

٢٣- ثناؤه عليه السلام على ربه، وتوسله إليه بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

وفي هذا توكيد وتخصيص وحصر، بأنه سبحانه وتعالى هو وحده الوهاب، ذو الهبات العظيمة، والعطايا الجزيلة.

٢٤- جمعه عليه السلام في دعائه بين أعظم أسباب إجابة الدعاء، وهما: الدعاء

باسم الرب عز وجل ووصفه، والثناء على المدعو بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، وقد قيل:

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرّضه الثناء (١)

٢٥- إثبات اسم الله تعالى «الوهاب»، وأنه سبحانه ذو الهبات والعطايا.

٢٦- استجابة الله تعالى دعاء سليمان، وتسخيره له الريح تجري بأمره رخاء حيث

قصد وأراد، والشياطين في البناء والغوص، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣١) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ (٣٧)﴾.

٢٧- أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فترك سليمان الخيل تقديماً لمحبة الله

تعالى؛ فسخر الله له الريح والشياطين.

٢٨- قدرة الله تعالى التامة على تسخير الريح - وهي جماد - لسليمان عليه السلام،

تجري وتأتمر بأمره، وتسخير الشياطين - الذين هم شر وضرر محض - يعملون له ما ينفع من الأبنية والغوص في البحار؛ لاستخراج اللؤلؤ والجواهر، وغير ذلك.

٢٩- حسن تدبير سليمان عليه السلام، وقوة سلطانه، بتوزيع الشياطين في البناء

والغوص، وتوثيق وتقييد المتمردين منهم بالقيود والأغلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» ص ١٧.

بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾.

٣٠- امتنان الله تعالى على سليمان عليه السلام بعبثائه العظيم له، بتسخير الريح والشياطين، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾.

٣١- تخيره بين أن يعطي - مما أعطاه الله - من يشاء، ويمنع من يشاء، لا حساب عليه في ذلك، ولا حرج؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْتَنُوا أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وفي هذا دلالة على حسن تصرفه.

٣٢- عظم ما أعدده الله تعالى لسليمان عنده في الجنة من الدرجة العالية، والمنزلة الرفيعة، والقرب منه والكرامة، وحسن المآب وطيب المأوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذَ بِيَدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَأَسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصِرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّمِمْ عِنْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَتَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مَفْنُحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِغَنَاقٍ حَثِيثٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ الْفُرَاتِ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُم مِّن نَّعَادٍ ﴿٥٤﴾

قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذَ بِيَدِكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾، أي: واذكر يا محمد عبدنا ونبينا ورسولنا أيوب عليه السلام، أي: اذكره بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء على صبره الجميل على ما أصابه من ضر، وهو خطاب له ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾، أي: حين دعا ربه رافعاً صوته، متضرعاً إليه، شاكياً حاله إليه لا إلى غيره.

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾، أي: بأني مسني وأصابني الشيطان بمس نفسي أو حسي.
﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد: «بِنُصْبٍ»، وقرأ يعقوب بفتحهما: «بِنُصْبٍ»، وقرأ الباقون بضم النون وإسكان الصاد: «بِنُصْبٍ».
وتنوين «نُصْبٍ» و«عَذَابٍ» وتنكيرهما، للتعظيم ﴿بِنُصْبٍ﴾، أي: ضرر وتعب عظيم.
﴿وَعَذَابٍ﴾، أي: ألم شديد، وذلك في جسده ونفسه، وفي أهله وماله.

قال ابن كثير^(١): «يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سلباً سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته

(١) في «تفسيره» ٧ / ٦٥.

حفظت وده؛ لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه نحوًا من ثمان عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل، وأولاد، وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن أُلقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكما لها، ورفضه القريب والبعيد، سوى زوجته رضي الله عنها؛ فإنها كانت لا تفارقه، صباحًا ومساءً، إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريبًا، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع إلى رب العالمين، وإله المرسلين، فقال: ﴿أَيُّ مَسْئِي الصُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وفي هذه الآية قال: ﴿أَيُّ مَسْئِي الشَّيْطَانُ يُنْصَبُ وَعَذَابٍ﴾.

ونسب ما أصابه إلى الشيطان؛ لأنه هو السبب المباشر، وهو يعلم أن ما أصابه بقدر الله، وأن الشيطان إنما سلط عليه بقضاء الله وقدره.

﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، أي: فاستجينا له، وقلنا له: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، أي: اضرب برجلك الأرض.

﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، أي: فركض برجله الأرض، فنبع الماء، فقلنا له:

﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ نكّر «مغتسل» و«شراب» للتعظيم، أي: هذا مغتسل بارد تغتسل به، وشراب تشرب منه.

فاغتسل به، وشرب منه، فذهب وزال ما به من الضر ظاهرًا وباطنًا؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَاكْشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ صُورٍ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانًا، خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى، ولكنني لا أغني لي عن بركتك»^(١).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾، أي: آتينا أهله، حيث أووا إليه بعد أن شردوا منه، وعجزوا أن يعيشوا معه بسبب شدة ما أصابه من الضر والمرض البدني والنفسي، فلما كشف الله ما

(١) أخرجه البخاري في الغسل، من اغتسل عريانًا في الخلوة ٢٧٩، والنسائي في الغسل والتميم ٤٠٩،

به وعافاه، أو وإليه.

﴿وَمَثَلُهُمْ مَعَهُمْ﴾، أي: ووهبنا له مثل أهله معهم، بأن رزقه الله أولادًا وأهلاً آخرين.

﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ «رحمة»: منصوب مفعول لأجله، أي: رحمة منا بعدنا أيوب، أي:

لرحمتنا له؛ لصبره، وثباته، وإنابته، وتضرعه، واستكانته.

﴿وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ «ذكرى»: معطوف على «رحمة»، أي: ولأجل تذكير أولي

الألباب، أي: أصحاب العقول النيرة الذين يتفكرون بعقولهم؛ ليعلموا تمام قدرة الله

تعالى، ولطفه، ورحمته، وفضله، وأنه عز وجل يجيب دعوة المضطر، ولا يجيب دعاء من

دعاه، وليعلموا حسن عاقبة الصبر، وأن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع

العسر يسراً؛ كما جاء في الحديث^(١).

﴿وَحَدَّ يَدَيْكَ ضَعْفًا﴾ الضغث: عثكال النخل الذي فيه حزمة شماريخ، أي: خذ بيدك

عثكالاً فيه مئة شمرأخ، أو خذ بيدك حزمة من حشيش، أو قضبان فيها مئة قضيب.

﴿فَأَضْرِبْ بِهِ﴾ حذف مفعول: ﴿فَأَضْرِبْ﴾ والله أعلم؛ للستر.

﴿وَلَا تَحْتَسِبْ﴾، أي: ولا تتقصد يمينك التي حلفت بضرب زوجتك مئة جلدة.

قال ابن كثير^(٢): «وذلك أن أيوب عليه السلام كان قد غضب على زوجته،

ووجد عليها في أمر فعلته، قيل: لإبطائها عليه، وقيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته

إياه، فلأمها على ذلك، وحلف إن شفاه الله؛ ليضربنها مئة جلدة، وقيل: لغير ذلك من

الأسباب، فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة، والرحمة

والشفقة والإحسان، أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضعفاً، وهو

الشمرأخ فيه مئة قضيب، فيضربها به ضربة واحدة، وقد برت يمينه، وخرج من حنته،

ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله، وأناب إليه».

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾، أي: ابتليناه بالضر العظيم فصبر، أي: ألفيناه صابراً محتسباً

لوجه الله تعالى.

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٦٦ / ٧.

﴿نَعَمَ الْعَبْدُ﴾، أي: نعم العبد أيوب عليه السلام، فامتدحه عز وجل بوصف العبودية، الذي هو أشرف ما يوصف به البشر.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل لما قبله، أي: نعم العبد؛ لأنه أواب، أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى في جميع أموره، والإنابة إليه، وعبادته، وطاعته، والتضرع إليه، أي: فجعلنا له مخرجاً مما هو فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَذْكُرْ﴾، أي: واذكر يا محمد ذكراً حسناً، والخطاب له ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قرأ ابن كثير: «عَبْدَنَا» على الإفراد، وقرأ الباقون: ﴿عِبْدَنَا﴾ على الجمع.

﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾، أي: أصحاب القوى في تنفيذ الحق، والقوة في الطاعة والعبادة والدعوة إلى الله تعالى.

﴿وَالْأَبْصَرِ﴾، أي: وأولي البصائر والفقهاء في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق، وكمال تنفيذه، والجمع بين العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾، أي: خصصناهم.

﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «بِخَالِصَةٍ»؛ بغير تنوين على الإضافة، وقرأ الباقون: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بالتنوين.

والتنكير للتعظيم، أي: أخلصناهم بخالصة عظيمة، وخصصناهم بخصيصة وخصلة كبيرة.

﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ «ذكرى» بدل من «خالصة»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي ذكرى الدار، أي: تذكرهم الدار الآخرة، والتذكير بها، وإيثارها، والعمل لها، ونزع

حب الدنيا من قلوبهم، والذكر الحسن لهم في هذه الدار، والثناء الجميل عليهم، ولسان الصدق، وتخصيصهم بأفضل ما في الدار الآخرة من الثواب.

قال ابن القيم: «فهذه الآية يجبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبياءه من اختصاصهم بالآخرة، وفيها قولان: أحدهما: إن المعنى: نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وإيثارها، والعمل بها. والقول الثاني: إنا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة، واختصاصناهم به عن العاملين».

وقال أيضًا: «أي: خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق، الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] «(١)».

﴿وَأَيُّهُمْ﴾، أي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

﴿عِنْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفِينَ﴾ الذين اصطفيناهم من صفوة خلقنا، ﴿الْآخِيَارِ﴾ جمع «خير» بالتشديد، وهو كثير الخير، أي: الذين هم من خيرة خلقنا؛ لاتصافهم بالصفات الخيرة، من العلم النافع، والعمل الصالح، والفضل، والخلق الكريم، وغير ذلك.

﴿وَأَذْكُرُوا إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾، أي: اذكروهم ذكرًا حسنًا.

وإسماعيل هو: إسماعيل بن إبراهيم، وهو أبو العرب؛ ولهذا أفردته عن إسحاق ويعقوب؛ لأن سلالتها بنو إسرائيل.

و«اليسع» قالوا: أصله: «يسع»، واللام فيه زائدة.

﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾، أي: وصاحب الكفل، وكلهم من أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

﴿وَكُلٌّ مِنَ الْآخِيَارِ﴾، أي: كل هؤلاء الثلاثة من الأخيار، أي: من خيار خلق الله، وذوي الصفات الخيرة.

قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [جنتي عدي مَفْنَحَةٌ لَهُمُ الْآتُوبُ] ﴿٥١﴾

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢ - ٤٣.

مُتَكِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهِمْ كَثِيرَةً وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الطَّرْفِ أَرْبَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِّنْ نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾:

قوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾، أي: هذا المذكور في هذه الآيات، أو هذا القرآن ذكر للناس؛ كما قال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

أو هذا ذكر لهؤلاء الأنبياء الأخيار، والرسل الأطهار، بحسن الشئاء. والأول أصح؛ ولهذا قال بعده:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَابٍ﴾.

لما أمر بذكر الرسل المذكورين، والشئاء عليهم باصطفائهم واختيارهم وخيريتهم، أتبع ذلك بالوعد بحسن المآب لعموم المتقين، من الرسل وأتباعهم.

أي: وإن للمتقين لحسن مرجع في الآخرة. واللام في قوله: ﴿لِحُسْنٍ﴾: للتوكيد.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ تفسير لقوله: ﴿لِحُسْنٍ مَنَابٍ﴾، أي: جنات إقامة أبدية.

﴿مَفَنَّةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ «مفتحة»: حال، أي: مفتحة لهم منها الأبواب، أو مفتحة لهم

أبوابها.

أي: مفتحة لهم الأبواب عند مجيئهم إليها؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ

أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

ومفتحة لهم الأبواب طيلة إقامتهم فيها؛ لأنهم فيها، وأخذهم راحتهم فيها؛ يذهبون ويحيئون، ويتصرفون حيث شاؤوا، والملائكة يدخلون عليهم في كل وقت،

ومن كل باب، ويهتئونهم، ويسلمون عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ

بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

﴿مُتَكِّينَ فِيهَا﴾، أي: متكئين في تلك الجنات، على الأرائك والسرر المزينات،

مرتاحين، مطمئنين، مخدومين؛ ولهذا قال:

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهِمْ كَثِيرَةً وَشَرَابٍ﴾، أي: يطلبون فيها فاكهة كثيرة الأنواع، كثيرة

الأعداد.

﴿وَشَرَابٍ﴾ مختلف الأنواع؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَّوْءٍ

يَنْغَيِّرَ طَعْمَهُ وَأَنْهَرُ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴿١٥﴾ [محمد: ١٥].

والمراد: أنهم مهما طلبوا، أحضره لهم خدمهم من الفواكه الكثيرة والشراب.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْأَطْرَفِ﴾، أي: عندهم زوجات قاصرات الطرف، أي: حاسبات الطرف، أي: النظر، أي: اللاتي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، وقصرن طرف أزواجهن عليهن؛ لجمالهم كلهم وعفافهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغى به بديلاً، ولا عنه عوضاً.

﴿أَنْزَابُ﴾، أي: متساويات في العمر والجمال، على سن الشباب، وأحسنه، وألذّه، ثلاث وثلاثين سنة.

﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿٥٣﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة: «يُوْعَدُونَ»، وقرأ الباقون بباء الخطاب: «تُوْعَدُونَ».

أي: يقال لهم: هذا ما توعدون، والإشارة في الموضعين إلى ما أعده الله للمتقين، من جنات عدن، وما فيها من النعيم المذكور.

أي: هذا الذي توعدون، ليوم الحساب، أي: هذا الذي وعدناكم به في الدنيا من الثواب والجزاء على إيمانكم وأعمالكم الصالحة، ليوم القيامة والحساب والجزاء.

﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ ﴿٥٤﴾ اللام: للتوكيد، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: إن هذا لرزقنا ما له أي نفاذ، أي: إن هذا المال الحسن، من جنات عدن وما فيها من ألوان النعيم، لعطاؤنا الذي لا نفاذ له ولا انقطاع، ولا انقضاء ولا زوال؛ كما قال تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨، الانشقاق: ٢٥].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأُمَّته بقصة أيوب عليه السلام، وابتلائه بالضر؛ لما في قصته

من العبر والمواعظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة أيوب عليه السلام، ونبوته.

٣- أن أشرف ما يوصف به البشر هي العبودية لله تعالى؛ لهذا وصف الله بها رسله وأنبياؤه، ووصف بها أيوب هنا، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ فأضافه إلى نفسه، وامتدحه بقوله: ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ كما وصف بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأضافهم إلى نفسه؛ فقال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

٤- فضيلة أيوب عليه السلام؛ لتضرعه وشكواه ما أصابه إلى ربه لا إلى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأيوب عليه السلام، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُ﴾.

٦- أن الأنبياء عليهم السلام كغيرهم من البشر، يصيبهم الابتلاء، بل هم أشد بلاءً من غيرهم، وقد يتسلط الشيطان عليهم بالأذى، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا.

٧- ينبغي شكوى الحال إلى الله تعالى وحده في كل ما يصيب العبد، فهو وحده سامع النجوى، وكاشف الضر والبلوى، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

وقد أحسن القائل:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم^(١)
وقال الآخر:

لا تشكون لمخلوق فتشتمته شكوى الجريح إلى الغربان والرخم^(٢)

٨- أن من أنواع التوسل: توسل العبد إلى الله تعالى بحاله؛ لقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وكما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

(١) البيت ينسب للشافعي، ولزبن العابدين. انظر: «عيون الأخبار» ٢/ ٢٨٤، «الكشكول» ١/ ٥٧، وانظر: «بصائر ذوي التمييز» ٣/ ٣٨١، «ربيع الأبرار» ٥/ ٢٧٧.

(٢) البيت للمتنبى. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٦٢.

٩- جواز إضافة الشيء إلى سببه المباشر؛ لأن أيوب أضاف ما أصابه إلى الشيطان، فقال: ﴿أَنَّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وهذا لا ينافي كون ذلك بتقدير الله وإرادته.

١٠- استجابة الله تعالى لنداء أيوب عليه السلام ودعائه، وأمره بركض الأرض برجله؛ لينبع ماء يغتسل منه ويشرب فيشفى؛ لقوله تعالى: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

١١- قدرة الله تعالى التامة؛ حيث أنبع بضرب أيوب برجله الأرض ماءً بارداً صالحاً للاغتسال والشراب، بل ودواء.

١٢- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ولو شاء الله لأنبع له الماء بدون ذلك، ولكن الله جعل لكل شيء سبباً.

١٣- مشروعية فعل الأسباب، وأن الله جعل لكل داء دواء، فأمره عز وجل بضرب رجله في الأرض، ومن ثم الاغتسال والشرب من الماء.

١٤- هبه الله عز وجل له أهله ومثلهم معهم؛ رحمة منه عز وجل به عليه السلام؛ لصبره وثباته، وتضرعه إلى ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا﴾.

١٥- سعة فضل الله تعالى ورحمته، فيعطي العبد إذا صبر واحتسب أكثر مما فقد، وأضعاف ما أمّل.

١٦- إثبات صفة الرحمة لله تعالى؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها سبحانه إلى من شاء من خلقه.

١٧- أن فيما ذكره الله في هذه القصة تذكيراً لأصحاب العقول الذين ينتفعون بعقولهم؛ ليعلموا تمام قدرة الله تعالى ورحمته، وإجابته دعوة المضطر، وحسن عاقبة الصبر، وأن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ لِلأُولَى الأُلْبَابِ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن نَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللّٰهَ ۗ اَلَا إِنَّا نَصُرُ اللّٰهَ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

١٨- أنه إنما يتذكر ويتعظ بالذكرى والمواعظ أصحاب العقول النيرة، الذين ينتفعون بعقولهم، دون غيرهم.

١٩- عناية الله تعالى بأيوب عليه السلام، بجعله له فرجًا ومخرجًا بالتخفيف والتيسير عليه في يمينه بجلد زوجته، رحمة بها، بأمره أن يأخذ عثكالا أو حزمة فيها مئة شمراخ أو قضيب، فيضربها بها ضربة واحدة، فيكون قد برّ في يمينه، ولم يحنث؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُدِّ بِيدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

قال ابن القيم: «فمن تأمل الآية علم أن هذه الفتيا خاصة بالحكم، فإنها لو كانت عامة الحكم في حق كل أحد لم يخف على نبي كريم موجب يمينه، ولم يكن في اختصاصها علينا كبير عبرة، فإنها يقص ما خرج من نظائره لنعته به، ونستدل به على حكمة الله فيما قصه علينا.

أما ما كان هو مقتضى العادة والقياس فلا يقص، ويدل على الاختصاص قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل؛ كما في نظائرها، فعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما أفتاه بهذا جزاءً له على صبره، وتخفيفاً عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه اليمين، وأيضاً: فإن الله سبحانه وتعالى إنما أفتاه بهذه الفتيا لثلاث يحنث؛ كما أخبر تعالى»^(١).

وفي حديث سعد بن عباد رضي الله عنه في قصة الرجل الذي زنى بأمة، وكان رجلاً ضعيفاً، فقال النبي ﷺ: «اضربوه حده»، فقالوا: يا رسول الله، إنه أضعف مما تحسب، لو ضربناه مئة قتلناه. فقال: «خذوا عثكالا فيه مئة شمراخ، ثم اضربوه ضربة واحدة» ففعلوا»^(٢).

قال ابن القيم بعد ذكره لهذا الحديث: «وامرأة أيوب كانت معذورة، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به، وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة، التي لا تستحق العقوبة، فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام، لنص السنة في شأن

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، إقامة الحد على المريض ٤٤٧٢، وابن ماجه في الحدود، الكبير والمريض يجب عليه الحد ٢٥٧٤، وأحمد ٥ / ٢٢٢.

الضعيف الذي زنى، فلا يتعدى بها عن محلها»^(١).

- ٢٠- تحريم الحنث باليمين، ووجوب الوفاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾.
- ٢١- أن من اتقى الله جعل الله له فرجًا ومخرجًا، وأبدله بعد العسر يسرًا.
- ٢٢- ثناء الله عز وجل على أيوب عليه السلام، وامتداحه له بأنه ابتلاه فوجده صابرًا محتسبًا، نعم العبد، كثير الرجوع والإنابة إلى ربه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.
- ٢٣- إثبات الأسباب، وترتب مسبباتها عليها بإذن الله.
- ٢٤- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بذكر عباده ورسله وأنبيائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ تذكيرًا بفضلهم، وللاقتداء بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.
- ٢٥- ثناء الله تعالى على إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بأنهم أصحاب القوى في تنفيذ أمر الله تعالى، والقوة في عبادته وطاعته، والدعوة إليه، وأصحاب البصائر والفقهاء في دينه؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾.
- ٢٦- إخلاصه وتخصيصه إياهم بخصيصة ذكرى الدار الآخرة، والعمل لها، وبأفضل ما فيها من الثواب، وبالذكر الحسن ولسان الصدق في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.
- ٢٧- اصطفاء الله تعالى لهم، واختياره إياهم ممن اصطفى؛ ليكونوا من الأصفياء الأخيار عنده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.
- ٢٨- في اختلاف مراتب العمال دليل على اختلاف مراتب العمل، وزيادة الإيمان ونقصانه.
- ٢٩- أمره عز وجل له ﷺ بذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم السلام، وأنهم كلهم من الأخيار عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٤١ - ٤٢.

الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾.

٣٠- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ فهو تذكير بما يحتاجه العباد، وذكرى وموعظة لهم، وشرف لمن آمن به واتبعه، وفيه التذكير بالأنبياء الأخيار، والرسل الأطهار، ممن يُتذكر بذكراهم.

٣١- وعد الله تعالى المؤكد للذين اتقوا الله، واتبعوا رسله، بحسن المآب، وطيب المآوى في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

٣٢- عظم ما أعد الله تعالى للمتقين عنده من النعيم الحسي والمعنوي في جنات عدن؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ ﴿٥٠﴾ الآيات.

٣٣- إثبات وجود الجنات التي أعدت للمتقين، وأن إقامة أهلها فيها إقامة أبدية، ورزقها لا ينفد؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ﴾ ﴿٥١﴾.

٣٤- إكرام أهل الجنة بفتح أبوابها لهم عند سوقهم إليها، وعلى الدوام؛ لكمال أمنهم فيها، وراحتهم في ذهابهم ومجيئهم، ودخول الملائكة عليهم وتهنئتهم؛ لقوله تعالى: ﴿مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾.

٣٥- كمال راحتهم فيها، وأن لهم فيها كل ما يطلبون ويريدون من الفواكه الكثيرة والشراب، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مُتَكِّبِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ ﴿٥١﴾.

٣٦- تنعمهم فيها بما عندهم من الزوجات الجميلات العفيفات، اللاتي قصرن طرفهن عليهم، وقصرن طرفهم عليهن؛ لجمالهم كلهم وعفتهم، ومحبة كل منهم للآخر، وعدم طموحه لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مِّنَ الْأَنْرَابِ﴾.

٣٧- أن هذه الزوجات من الحور العين، ومن نساء الجنة، كلهن على سن واحدة هي سن الشباب، وأحسنه وألذه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْرَابٌ﴾.

٣٨- تهنئتهم وهم في هذا النعيم العظيم، وبيان أن هذا هو مصداق ما وعدوا به يوم الحساب على إيمانهم وعملهم الصالح في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿٥٢﴾، وهذا من النعيم المعنوي الذي يُدخل السرور على قلوبهم، وقد يفوق النعيم الحسي.

٣٩- الامتنان عليهم بما أعطوا من الرزق والنعيم، وبشارتهم بعدم نفاذه وانقطاعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ ٥٤.

٤٠- إثبات البعث والمعاد، ويوم الحساب والجزاء، وإعداد جنات عدن للمتقين وما فيها من النعيم.

٤١- تفرده عز وجل بالرزق في الدنيا والآخرة، ومن أعظم ذلك ما أعده لعباده من الجنات، وما فيها من النعيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ هَذَا وَرِثَ لِلطَّغْيِينِ لَشْرَّ مَتَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ إِلَهَادًا ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيُدْ وَفُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَرْوَجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقَدَّمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ مِنْهُمْ صَلَّوْا النَّارَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ يَكْفُرُ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنْسُ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِزْدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَخْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ هَذَا وَرِثَ لِلطَّغْيِينِ لَشْرَّ مَتَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ إِلَهَادًا ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيُدْ وَفُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَرْوَجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقَدَّمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ مِنْهُمْ صَلَّوْا النَّارَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ يَكْفُرُ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنْسُ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِزْدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ۞

لما ذكر ما أعد للمتقين من حسن المآب في جنات عدن، وما فيها من ألوان النعيم، أتبع ذلك بذكر الوعيد للطاغين، بشر المآب في جهنم، وما فيها من أصناف العذاب؛ جمعاً بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله: ﴿ هَذَا وَرِثَ لِلطَّغْيِينِ لَشْرَّ مَتَابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ «هذا»: مبتدأ، وخبره محذوف، أي: هذا للمتقين، والإشارة إلى ما تقدم مما أعدده الله للمتقين من حسن المآب في جنات عدن، وما فيها من النعيم والثواب؛ إشادة به، وتوطئة لذكر ما أعد للطاغين، وتحقيراً له. و«الطاغين»: جمع «طاغ» و«طاغية»، والطاغي: من تجاوز ما حده الله بترك ما أمر الله به، أو ارتكاب ما نهى الله عنه؛ كما قال تعالى: ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه: ٤٣]. والمعنى: وإن للطاغين، أي: المتجاوزين الحد في الكفر والمعاصي.

﴿لَشْرَّ مَتَابٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لشر مرجع ومنقلب، وأسوأ مصير في الآخرة. ثم فصله بقوله:

﴿ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا ﴾ «جهنم»: بدل من «شر»، أو عطف بيان عليه منصوب، أي: جهنم يدخلونها ويقاسون حرها، وتغمرهم من كل جهة، ومن كل جانب.

﴿فَيْتَرَلْمَهُدَا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فبئس الفراش والمسكن والمستقر.
 ﴿هَذَا﴾ مبتدأ، وخبره: «حميم»، ﴿فَلْيَدُوفُوهُ﴾ الفاء: للتنبية، واللام: للأمر،
 واعترض بهذه الجملة بين المبتدأ والخبر، وقدمت على الخبر للمبادرة بإهانتهم، أي:
 فليكتوا بحرهم، ويحسوا بالآلامه.

﴿حَمِيمٌ﴾، أي: ماء حار قد بلغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿يَطْرُقُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمِ
 آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، أي: قد بلغ غاية الحرارة.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَفِئُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال
 تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَعَسَاقٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بتشديد السين: ﴿وَعَسَاقٌ﴾، وقرأ
 الباقون بتخفيفها: «وَعَسَاقٌ».

وهو ما يسيل من صديد وقيح أجساد أهل النار. وقيل: العساق: ضد الحميم،
 أي: الماء البارد الذي لا يستطيع من شدة برودته، قال تعالى: ﴿وَيَسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [١٦]
 يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

﴿وَأَخْرَمَ مِنْ شَكْلِهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الهمزة من غير مد على الجمع:
 «وَأَخْرَمَ»، وقرأ الباقون بمد الهمزة وألف بعدها على الأفراد: ﴿وَأَخْرَمُ﴾.

أي: وعذاب آخر من جنسه ومثله، ﴿أَزْوَاجٌ﴾، أي: أصناف وألوان.
 أي: من هذا القبيل، أي: الشيء وضده، كالزمهرير والسموم، وأكل الزقوم
 وشرب الحميم، والصعود والهوي في النار، وغير ذلك.

﴿هَذَا فَوْجٌ﴾، أي: تقول كل طائفة دخلت النار للتي تأتي بعدها: ﴿هَذَا فَوْجٌ﴾، أي:
 طائفة كبيرة وجماعة.

﴿مُقَنَّمٌ مَّعَكُمْ﴾، أي: داخل النار معكم بمشقة وازدحام، ﴿لَا مَرْجَأَ لَهُمْ﴾، أي: لا
 سعة لهم، ولا نرحب بهم، ولا نريدهم.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ الجملة تعليلية، أي: لأنهم صالوا النار، أي: داخلوها كما
 دخلناها، ومقاسون حرها كما نقاسيه.

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْحَجِبُونَ﴾، أي: قال الأتباع- وهم الفوج الذي سيقتم النار- قالوا لمن قبلهم، أي: للمتبعين:

﴿بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْحَجِبُونَ﴾، أي: أنتم قدمتم العذاب لنا بدعوتكم إيانا إلى الكفر والضلال، أو قدمتم لنا الكفر والضلال، وزيتتم ذلك لنا، مما أفضى بنا إلى العذاب. ﴿فَيَسْأَلُ الْقَرَارُ﴾، أي: المستقر لنا ولكم النار؛ كما قال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَسْكُ الْفَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٩].

وهكذا يساق أهل النار إليها أفواجا؛ فوجًا فوجًا، ويشتم بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِتَائِيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الملك: ٨]. وقال تعالى: ﴿كَلَّمَآ دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا لَحْنَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿قَالُوا﴾، أي: قال الأتباع داعين على سادتهم وكبرائهم، أو قال أهل النار كلهم داعين على الشياطين الذين أضلوهم:

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ الكفر والشرك وتكذيب الرسل، وزينه لنا، وحسن لنا الضلال، وأوصلنا بسبب ذلك إلى العذاب. يعنون سادتهم.

﴿فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، ومعنى ﴿ضِعْفًا﴾، أي: مضاعفًا؛ أي: ضاعف لهم العذاب؛ فعذبهم لأنهم كفروا، وعذبهم لكونهم قدموا لنا هذا الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرِبْنَهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالُوا﴾ وهم في النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا﴾ الاستفهام للتعجب والاستغراب، أي: ما لنا لا نشاهد رجالًا معنا في النار؟

﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾، أي: كنا في الدنيا نعتبرهم ونزعم أنهم من الأشرار المستحقين للنار؛ يعنون: المؤمنين؛ لأنهم يعتقدون أن المؤمنين على ضلالة، وأنهم أشرار، وما لهم إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [١٩] وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أُنْقِلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ

لَصَّالُونَ ﴿٣٣﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

﴿ اتَّخَذْنَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ رَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ ﴿٣٣﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف بوصل الهمزة وكسرها على الخبر والابتداء: «اتَّخَذْنَاَهُمْ»،
وقرأ الباقون بقطع الهمزة مفتوحة على الاستفهام: ﴿ اتَّخَذْنَهُمْ ﴾.

أي: أنحن اتخذناهم وعددناهم من الأشرار سحريًّا؟ أي: كنا نسخر منهم في الدنيا، وهم على الحق، ولهذا لم يدخلوا النار؟!

﴿ أَمْ رَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ «أم»: عاطفة، وهي المتصلة، أي: أم مالت عنهم الأبصار فلم تقع عليهم، مع أنهم موجودون معنا في النار؟!

أي: أن عدم رؤيتنا لهم معنا في النار: إما لأننا عددناهم من الأشرار، وسخرنا منهم وهم ليسوا كذلك، وإما لأن أبصارنا زاغت عنهم، وهم معنا في النار.

والصحيح الأول؛ كما قال تعالى: ﴿ أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ [الأعراف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ قَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١].

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ ﴿٦٤﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن هذا الذي أخبرناكم به من تخاصم أهل النار، وتنازع بعضهم مع بعض، وتجادلهم؛ لحقٌّ ثابت، وأمر واقع، لا مرية فيه ولا شك.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ إِذْ يَأْتِيكُمْ بِهِ مِنَ الْبَحْرِ نَبَأٌ مِّنْ عِنْدِ رَبِّي إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٦٩﴾

قوله: ﴿ قُلْ ﴾، أي: قل يا محمد للمشركين المكذبين لك:

﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما أنا إلا منذر، أي: محذر ونحوف لكم من عذاب الله، وليس لي من الأمر والحكم شيء، فذلك كله لله تعالى؛ كما قال: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ

وَالْأَمْرُ ﴿[الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠].
 ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ﴾ «ما»: نافية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب،
 مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، و«إله»: نكرة في سياق النفي فتعم، و«إلا»: أداة
 حصر، أي: وما من أيِّ معبود بحق إلا الله عز وجل.
 وفي هذا نفي الألوهية مطلقاً عن غير الله، وإثباتها لله تعالى وحده؛ كما في شهادة
 التوحيد: «لا إله إلا الله».

﴿الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ﴾ نعتان للفظ الجلالة «الله»، أي: الواحد الأحد الفرد الصمد، ذو
 الوحدانية التامة في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته.
 ﴿الْقَهَّارُ﴾، أي: ذو القهر والغلبة، الذي قهر كل شيء وغلبه.
 و«الواحد»، و«القهار» من أسماء الله تعالى، والوحدانية والقهر متلازمان، فالقهار:
 الذي يقهر كل شيء، هو الواحد الذي يستحق أن يعبد وحده، ويذل له كل شيء.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾
 لما ذكر تفرد بالألوهية، أتبع ذلك بذكر تفرد بالربوبية، استدلالاً بتوحيد الربوبية
 على توحيد الألوهية.

أي: خالق السموات والأرض وما بينهما، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه.
 ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، أي: ذو العزة التامة، والمغفرة الواسعة، وفي اقتران العزة والمغفرة
 في أوصافه عز وجل، كمال إلى كمال، فهو سبحانه يغفر ويتجاوز ويستتر، مع عزته وقوته
 وقهره وعظمته.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧)

لما بين لهم أنه ﷺ ما هو إلا منذر، وأنه لا معبود إلا الله، وأن الأمر لله وحده،
 نبههم إلى عظمة القرآن الذي أرسل به، وما دل عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام
 العادلة.

أي: قل لهم يا محمد ﴿هُوَ﴾، أي: القرآن الكريم، الذي أرسلت به إليكم، وما دل
 عليه من البعث والحساب، وغير ذلك.

﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾، أي: خبر عظيم القدر، بليغ الشأن، جليل النفع؛ كما قال تعالى: ﴿عَمَّ

يَسَاءَ لَوْلَا (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) [النبأ: ١، ٢].

﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ (٦٨) ﴿ عَنْهُ ﴾ متعلق بـ ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾، وقُدِّم عليه للاهتمام بهذا النبأ، أي: أنتم عن هذا النبأ العظيم معرضون بقلوبكم، متولون بأبدانكم، مكذبون بما فيه من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والإخبار بالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال. ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث

المعنى، أي: ما كان لي من أي علم ﴿ بِالْمَلَاِئِكَةِ ﴾، أي: بالملائكة.

﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾، أي: إذ يتجادلون ويتنازعون في شأن خلق آدم عليه السلام، وامتناع إبليس من السجود له؛ كما ذكر الله ذلك في عدد من السور، وذكره في الآيات التالية من هذه السورة.

أي: فلولا وحي الله تعالى إليّ ما علمت بشيء من ذلك، وهو دليل على أن ما جئتكم به حق وصدق؛ لأنه لا يُعلم ذلك إلا بوحي من الله تعالى، ولهذا قال:

﴿ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧٠)، قرأ أبو جعفر بكسر الهمزة على الحكاية: ﴿ إِنَّمَا ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ أَنَّمَا ﴾.

﴿ إِنْ ﴾: نافية بمعنى «ما»، و﴿ إِلَّا ﴾: أداة حصر، و﴿ أَنَّمَا ﴾: كافة ومكفوفة، أي: ما يوحى إلي إلا أنها أنا نذير، أي: مُحَوِّفٌ ومُحَذِّرٌ، ﴿ مُّبِينٌ ﴾، أي: بيّن ظاهر النذارة.

الفوائد والأحكام:

١- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والإشادة بما أُعد للمتقين من حسن المآب، والجنات وعظيم الثواب، في مقابل ما أُعد للطاغين من شر المآب والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ هَذَا وَابْتِ لِّلطَّغِينِ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴾ (٥٥).

٢- الوعيد الشديد للطاغين بالكفر والمعاصي، بشر المآب، وسوء المنقلب، جهنم يصلونها، وأنها بئس القرار والمنزل والفراش؛ لقوله تعالى: ﴿ وَابْتِ لِّلطَّغِينِ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴾ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَسَّ لَهُمُهَا (٥٦).

٣- الجمع لهم بين هذا العذاب العظيم باصطلاء جهنم، وبين شرب الحميم والغساق؛ لقوله تعالى: ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ (٥٧).

٤- تنوع العذاب للطغاة، بأصناف وألوان العذاب؛ حيث يجمع لهم بين الشيء وضده؛ كالزمهرير والسموم، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ﴾.

٥- سوق أهل النار إليها أفواجاً؛ فوجاً بعد فوج، يشتم بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ المتبوعون والأتباع بعضهم من بعض؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَضِحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِلَيْهِمْ صَالُوا النَّارِ﴾. قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ لَكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسَّرَ لِقَرَارُ.

٦- أن مصير المتبوعين المضلين، والأتباع الضالين جميعاً النار، وبئس القرار.
٧- دعاء الأتباع على سادتهم وكبرائهم، الذين أضلّوهم وتسببوا في دخولهم النار، ودعاء أهل النار على الشياطين، الذين أغووهم، بمضاعفة عذاب النار عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَلَيْنَا بَأْسًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾.
٩- مضاعفة عذاب النار على من كانوا دعاة وقدوة في الضلال والكفر.
١٠- تعجب أهل النار من عدم مشاهدتهم معهم في النار أناساً كانوا يعتقدون في الدنيا أنهم من الأشرار، وما لهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَنْزِيلِنَا رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾.

١١- معرفتهم أنهم في عددهم المؤمنين من الأشرار، إنما ذلك سخرية منهم بهم مع كونهم على الحق، ولهذا لم يدخلوا معهم النار ولم يروهم فيها؛ لقولهم: ﴿أَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ﴾.

١٢- تذكر أهل الآخرة من الكفار وغيرهم أحوالهم في الدنيا.
١٣- أن تخصم أهل النار وتنازعهم أمر محقق وواقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

- ١٤- إثبات رسالته ﷺ، وأنه إنما هو منذر ومحذر من عذاب الله، وليس له من الأمر شيء، والأمر كله لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾.
- ١٥- أنه لا معبود للخلائق بحق إلا الله عز وجل وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾.
- ١٦- إثبات اسم الله تعالى: «الواحد»، وأنه عز وجل ذو الوجدانية التامة في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿الْوَحِيدُ﴾. وفي هذا رد على النصارى، وعلى المشركين.
- ١٧- إثبات اسم الله تعالى: «القهار»، وأنه سبحانه ذو القهر والغلبة، الذي دان لقهره كل شيء، وغلب بقوته كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَهَّارُ﴾.
- ١٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للسماوات والأرض وما فيهما، وما بينهما من جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.
- ١٩- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأن من لازم توحيد الربوبية توحيد الألوهية.
- ٢٠- إثبات اسم الله تعالى: «العزیز»، وأنه سبحانه ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾.
- ٢١- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْفَقْرُ﴾ وأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة؛ لقوله تعالى: ﴿الْفَقْرُ﴾.
- ٢٢- أن القرآن نبأ عظيم القدر، بليغ الشأن، جليل النفع؛ لأنه كلام الله تعالى اشتمل على بيان الحق والعدل في الأحكام، والصدق في الأخبار، كأخبار الملائكة الأعلى، والبعث، والمعاد، والحساب، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٧).
- ٢٣- إعراض المكذبين عن القرآن وما تضمنه من الهداية، وبيان الحق، وأخبار الصدق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (١٨)، وفي هذا ذم لهم.
- ٢٤- أنه لولا وحي الله تعالى إليه ﷺ بهذا النبأ العظيم، ما كان له من علم بخصام الملائكة في شأن خلق آدم عليه السلام وغير ذلك؛ لأنه ﷺ لا يعلم الغيب.

وفي إخباره بهذا دليل على أن ما جاء به حق وصدق؛ لأنه لا يُعلم إلا بالوحي؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٦١).

٢٥- إثبات وجود الملائكة وعلوهم، وعلو مرتبتهم، وإثبات اختصاصهم في شأن خلق آدم، وامتناع إبليس من السجود له، وقد دل على هذا القرآن في مواضع عدة.

٢٦- تأكيد أنه ﷺ إنها هو نذير بين النذارة والتحذير والتخويف من عقاب الله؛

لقوله: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٠) ومن لازم الإنذار: التبليغ، وبيان الأحكام، والأمر والنهي؛ ليحذر الناس من ترك المأمور، أو ارتكاب المنهي.

بل إن من لازم ذلك: البشارة، فهو نذير لمن عصى، وبشير لمن أطاع، لكن إنما يخص في بعض المواضع ذكر الإنذار فقط، أو التبشير فقط؛ مراعاة لسياق الآيات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَامْضِ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنْتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعوينَّهُمْ أجمعين ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أجمعين ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن بَأْسٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾.

ذكر في الآيات السابقة أنه ما كان له ﷺ من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون، إلا أن الله أوحى إليه بالندارة. ثم أتبع ذلك بذكر بعض ما أوحاه الله تعالى إليه في ذلك. وقد ذكر الله عز وجل هذه القصة في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف، وفي سورة الحجر، وفي سورة الإسراء، وسورة الكهف، وطه، وفي هذه السورة، وأبينها ما في سورة البقرة، وأشبهها بما هنا ما جاء في سورة الحجر.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾، أي: اذكر إذ قال ربك للملائكة إخباراً لهم: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا﴾ وهو آدم عليه السلام ﴿مِّن طِينٍ﴾، أي: مادة خلقه من طين وتراب. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾، أي: فإذا سويت خلق جسمه وأتممته؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨]. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، أي: فأوجدت فيه الحياة والروح. وأضاف الروح إليه تشريفاً لآدم.

والمراد بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾، أي: من الأرواح التي خلقتها، وأضافها إليه تشريفاً وتعظيماً؛ كما أضاف البيت إليه في قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦]، وأضاف المساجد إليه في قوله: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤]، وكما أضاف الناقة إليه في قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

و«الروح»: جسم لطيف، يجيا به الكائن الحي، تُقبض وتتوفى عند الموت؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، أي: تقبض أرواحهم،

وتكفن وتلف؛ كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «إذا كان العبد في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة...» الحديث (١).

﴿فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فخرؤا على الأرض له ساجدين، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتعظيم.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٧) ﴿كلهم﴾: توكيد معنوي، ﴿أَجْمَعُونَ﴾ توكيد ثانٍ، أي: سجدوا كلهم جميعاً.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، والاستثناء منقطع، أي: لكن إبليس استكبر، ويجوز كون الاستثناء متصلاً (٢).

أي: إلا إبليس استكبر عن أمر ربه، واستكبر على آدم، فلم يسجد؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَوْ يَكُنْ مِنَ السَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]، وقال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦].

﴿وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾، أي: من المتصفين بالكفر.

قال عز وجل موبخاً له ومعاتباً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ «ما»: اسم استفهام، أي: ما منعك من السجود؟

﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيْ﴾ «ما»: موصولة، أي: للذي خلقتة بيدي، فشرفته وكرمته بذلك، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه وتكريمه.

قال قتادة: «خلق الله آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده» (٣).

﴿اسْتَكْبَرَتْ﴾ الاستفهام للتوبيخ، والسين والتاء للمبالغة، أي: أتكبرت عن السجود، ورأيت نفسك كبيراً، وأنت صغير حقير؟!

﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ «أم»: هي المتصلة، عاطفة، أي: أو كنت من العالمين الذين

(١) سبق تحريجه.

(٢) انظر: تفسير الآية «٣٤» من سورة البقرة.

(٣) انظر: «الزهد والرفائق» لابن المبارك و«الزهد» لنعيم بن حماد ١/٥١٢ (١٤٥٨).

منزلتهم أعلى، فلا يوجه لهم الأمر بالسجود لمن هو دونهم؟
والصحيح: أن الذي منعه من السجود ليس كونه من العالين، وإنما منعه
الاستكبار؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا إِلَيْسَ أَبِي وَأَسْتَكْبَرُ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا إِلَيْسَ
أَسْتَكْبَرُ﴾ [ص: ٧٤]؛ ولهذا قال:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، أي: خير من آدم، ﴿حَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَحَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) الجملة
استثنائية، أو تعليل لقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

قال السعدي^(١): «وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس
الفاسد؛ فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة.
وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو
يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه».

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾، أي: من الجنة والسموات، ﴿فَأِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ الفاء:
تعليلية، أي: فإنك مرجوم، أي: مطرود عن رحمة الله، مبعد مدحور.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾، أي: حاقة وواجبة عليك لعنتي، أي: طردي وإبعادي لك.
﴿إِلَى يَوْمِ الْبَإْسِ﴾، أي: إلى يوم الجزاء يوم القيامة، ومن امتدت معه اللعنة إلى يوم
القيامة فهو ملعون أبداً، لا يمكن أن تناله الرحمة أبداً.

﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: قال إبليس: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب.
﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فأخرني وأمهلني.

﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: إلى يوم بعث الخلائق، وإخراجهم من قبورهم.
وهذا اعتراف منه بالبعث، وإقرار به، فكان كفره كفر عناد محض، لا كفر جهل.
وإنما طلب الإنظار لشدة عداوته لآدم وذريته؛ ليسعى في إغواء أكبر قدر منهم،
وإدخالهم معه في النار.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٨٠) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٨١).

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦ / ٤٣٩.

أي: فاستجاب الله دعاءه بطلب إنظاره وإمهاله؛ حكمة الله تعالى، وابتلاءً للعباد.
﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٨٠) الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فإنك من المؤخرين المهلين.

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٨١)، أي: إلى يوم القيامة، يوم الوقت المحدد المعلوم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤١﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٤٩﴾-٥٠﴾.
﴿قَالَ﴾ إيليس: ﴿فَبِعَرْنَاكَ لِأَعْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الفاء: عاطفة، والباء: للقسم، أي: فأقسم بعزتك، أي: بقوتك وقهرك، وسلطانك وعظمتك.

﴿لَأَعْوَيْنَهُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: أسلك بهم طريق الغي، وأضلنهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾، أي: كلهم جميعاً.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٨٣) «إلا»: أداة استثناء، ﴿عِبَادَكَ﴾: منصوب على الاستثناء المنقطع أو المتصل، أي: إلا عبادك الذين أخلصتهم واصطفيتهم لعبادتك؛ فأني لا أتمكن من إغوائهم.

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وذلك لعلمه أنه لا سلطان له عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢) [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١١) ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٠) [النحل: ٩٩-١٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].
﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾ قرأ عاصم وحزمة وخلف: ﴿فَالْحَقُّ﴾، وقرأ الباقون بالنصب: ﴿فَالْحَقُّ﴾. والفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«الحق»: مبتدأ.

﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ «الحق» مفعول به مقدم منصوب للفعل «أقول».
﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لأملأن جهنم ﴿مِنْكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ﴾، أي: من الناس، ومن الجن؛ وهم ذريته، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) ﴿وَلِتَعْلَمَنَّ نِبَاهُ، بَعْدَ حِينٍ﴾ (٨٨):

قوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لا أسألكم على دعوتي إياكم، وتبليغكم رسالة ربي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: من أي أجر دنيوي، وغرم مالي.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتصنعين المتقولين على الله؛ بأن أدعي أمراً ليس لي، أو أزيد على ما أرسلني الله به إليكم، أو أقفو ما ليس لي به علم.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «يا أيها الناس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما يعلم: الله أعلم. فإن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾» (١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما هو إلا ذكر للعالمين، أي: ما هذا القرآن إلا ذكر للعالمين، أي: تذكير وعظة وعبرة لجميع المكلفين من الإنس والجن، فيه ذكر ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، والرفعة والشرف لمن اتبعه، وإقامة الحججة والإنذار؛ كما قال تعالى: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ، وَمَنْ بَلَغْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالتَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

﴿وَلِتَعْلَمَنَّ نِبَاهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لتعلمن نباه، أي: نبأ القرآن وصدق خبره، ومصداق ما أخبر به من الوعد والوعيد. ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد زمن عاجل أو آجل في الدنيا؛ كما حصل في بدر وغيرها من

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ص ٤٨٠٩، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٩٨، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٥٤.

الغزوات، أو أجل في الآخرة حين يقع عليهم العذاب، وتتقطع بهم الأسباب.
قال الحسن البصري: «يا ابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين»^(١).
وهكذا اختتم عز وجل هذه السورة العظيمة بالتنويه بالقرآن وتعظيمه؛ كما افتتحها بالإقسام به وتعظيمه، وأقام الحجج والبراهين على من كذب به وعارضه، وكذب من جاء به.

الفوائد والأحكام:

- ١- التذكير بقصة خلق آدم عليه السلام، وسجود الملائكة له، وامتناع إبليس من السجود؛ لما فيها من العبر والمواعظ والحكم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
- ٢- إثبات القول والكلام لله تعالى بحرف وصوت مسموع مفهوم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾
- ٣- إثبات ربوبية الله الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم «الرب» أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.
- ٤- إثبات وجود الملائكة، وأنهم خلق من خلق الله تعالى، يسمعون ويفهمون الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ الآية.
- ٥- إثبات صفة الخلق لله تعالى، وأنه سبحانه هو الخالق وحده.
- ٦- أن أصل خلق آدم عليه السلام ومادته من الطين والتراب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾. وهذا يوجب على الإنسان التذلل لربه، والخضوع له، والتواضع، وعدم التكبر على خلقه.
- ٧- نعمة الله على آدم بتسوية خلقه، وتعديل وتحسين صورته، وتشريفه عز وجل له بنفخه فيه من روحه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ١٥١.

- ٨- أمره عز وجل الملائكة بالسجود لآدم بعد كمال خلقه، ونفخ الروح فيه، سجد تحية وتكريم، لا سجد عبادة وتعظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾.
- ٩- امثال الملائكة أمر الله لهم بالسجود لآدم، وسجودهم كلهم جميعاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٣)؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.
- ١٠- امتناع إبليس عن السجود استكباراً عن أمر ربه، واستكباراً على آدم، وكفره؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٤).
- ١١- ذم الاستكبار عن امثال أمر الله، وعن قبول الحق، وأن ذلك كفر.
- ١٢- توبيخ إبليس؛ لتركه السجود لآدم، الذي شرفه الله بأن خلقه بيديه، وأمر الملائكة بالسجود له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾.
- ١٣- تشریف الله تعالى لآدم عليه السلام، وتكريمه له بخلق بيديه؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ وهذا يقتضي عدم التكبر عليه، واحترامه.
- ١٤- إثبات اليمين لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾، وفي هذا رد على من فسر اليد بالنعمة من أهل البدع، أو نفى إثبات اليمين لله عز وجل.
- ١٥- استكبار إبليس عن امثال أمر الله، وتعالیه على آدم؛ لقوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَتْ أُمَّ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.
- ١٦- زعمه أنه خير من آدم كذباً، وافتخاره بما لا فخر فيه، وهو كونه خلق من نار، وخلق آدم من طين؛ لقوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (٧٦) وهذه حجة عليه، وليست له؛ لأن عنصر الطين خير من عنصر النار.
- ١٧- إقراره بأن الله هو الخالق؛ لقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.
- ١٨- إخراجهم من الجنة، وطرده وإبعاده من ملكوت السماء، وإحراق لعنة الله عليه إلى يوم القيامة وإلى الأبد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَالَ فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨).

ويتفرع عن هذا: أنه لا حاجة إلى لعن الشيطان؛ لأن الله أحق عليه لعنته إلى يوم الدين، وإنما المشروع الاستعاذة منه؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

١٩- إثبات يوم الدين والحساب والجزاء، والبعث يوم القيامة، وإقرار إبليس بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾، وقوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ أَلْمَعُورِ﴾.

٢٠- طلبه من ربه الإنظار إلى يوم البعث؛ ليسعى في إغواء أكبر عدد من بني آدم؛ لشدة عداوته لآدم وذريته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله العامة لإبليس وجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٢٢- استجابة الله تعالى له، وإنظاره إياه؛ حكمة لله عز وجل، وابتلاءً للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [٨٠] إِلَى يَوْمٍ أَلْمَعُورِ [٨١].

٢٣- إقسام إبليس لعنه الله تعالى على إغواء بني آدم جميعهم؛ لشدة عداوته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٢].

وهذا يوجب الحذر منه، ومن وساوسه.

٢٤- إثبات عزة الله تعالى التامة، وقهره وقوته، وعظمته وسلطانه، واعتراف إبليس بذلك.

٢٥- أنه لا قدرة لإبليس على إغواء عباد الله المخلصين، واعترافه بذلك؛ لقوله:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ﴾ [٨٣].

وكلما كان الإنسان لله أعبد، كان من الشيطان أبعد.

٢٦- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة، الذين أخلصهم الله، واختصهم لعبادته.

٢٧- يجب الاحتماء بجناب الله تعالى بعبادته والإخلاص له، من شرور إبليس

وتسلطه؛ كما قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك»^(١).

٢٨- أن الله تعالى هو الحق، ووصفه الحق، وقوله الحق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ

وَالحَقُّ أَقُولُ﴾^(٨٤).

٢٩- إقسامه عز وجل على ملء جهنم من إبليس وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٨٥).

٣٠- الإعذار من المكذبين والمشركين بأنه ﷺ لم يسألهم على دعوته إياهم،

وتبليغهم رسالة ربه أي أجر دنيوي مهما قل، فيستثقلوا ذلك، ويعدوه غرماً؛ لقوله

تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

٣١- أنه لا يجوز أخذ الأجرة على تبليغ الدعوة، وتعليم الواجب من أمر الدين

لمن لا يعلمه.

٣٢- إثبات صدقه ﷺ فيما أخبره به من الوحي، ونفيه أن يكون من المتكلفين بأن

يزيد على ما أرسله به، أو ينتقص منه، أو يدعي أمراً ليس له، أو يتقول على الله بلا علم؛

لقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

٣٣- أن سنته ﷺ وهديه وسط لا تكلف فيه، ولا تفريط، وسط بين الغلو

والجفاء، والإفراط والتفريط.

٣٤- شرف القرآن وعظمته، وأنه إنما هو عظة وعبرة، وتذكير للعالمين كلهم جميعاً من

الإنس والجن بما ينفعهم، وشرف لمن اتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٨٧).

٣٥- التهديد والوعيد للمكذبين بالقرآن، وما فيه من الوعد والوعيد، وإثبات

البعث والحساب، وأنهم سيعلمون مصداق خبره بعد زمان عاجلاً أو آجلاً، في الدنيا

كما حصل لهم في بدر وغيرها من الغزوات، وغير ذلك، وفي الآخرة عند معاينة

الأحوال ودخولهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾^(٨٨).

* * *

(١) سبق تخرجه.

فهرس الموضوعات

- ٥..... تفسير سورة سبأ
- ٧..... المقدمة
- ٧..... أ- اسم السورة:
- ٧..... ب- مكان نزولها:
- ٧..... ج- موضوعاتها:
- تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآيات [٩-١] ١١
- تفسير قوله تعالى: ﴿* وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا...﴾ الآيات [١٤-١٠] ٢٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ...﴾ الآيات [٢١-١٥] ٣٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ الآيات [٣٠-٢٢] ٤٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ...﴾ الآيات [٤٢-٣١] ٦٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْنَا آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ عَلَيْهِمْ...﴾ الآيات [٥٠-٤٣] ٨٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأَخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ...﴾ الآيات [٥٤-٥١] ٩٣
- ٩٧..... تفسير سورة فاطر
- ٩٩..... المقدمة
- ٩٩..... أ- اسم السورة:
- ٩٩..... ب- مكان نزولها:
- ٩٩..... ج- موضوعاتها:
- تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيات [٨-١] ١٠٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا...﴾ الآيات [١٤-٩] ١١٦

- تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ...﴾ الآيات [١٥-٢٦] ١٣٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ...﴾ الآيات [٣٦-٤٥] ١٥٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ...﴾ الآيات [٣٦-٤٥] ١٥٩
- تفسير سورة يس ١٧٧
- المقدمة ١٧٩
- أ- اسم السورة: ١٧٩
- ب- مكان نزولها: ١٧٩
- ج- فضلها: ١٧٩
- د- موضوعاتها: ١٧٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ...﴾ الآيات [١-١٢] ١٨٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ...﴾ الآيات [١٣-١٩] ١٩٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى...﴾ الآيات [٢٠-٣٢] ٢٠٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ أَمْ الْأَرْضُ أَلْمِيئَةُ أَحْيَيْنَهَا...﴾ الآيات [٣٣-٤٤] ٢٠٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ...﴾ الآيات [٤٥-٥٤] ٢٢١
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ...﴾ الآيات [٥٥-٧٠] ٢٣١
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِيئِنَا أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ...﴾ الآيات [٧١-٨٣] ٢٤٧
- تفسير سورة الصافات ٢٦١
- المقدمة ٢٦٣
- أ- اسم السورة: ٢٦٣
- ب- مكان نزولها: ٢٦٣
- ج- فضلها: ٢٦٣
- د- موضوعاتها: ٢٦٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا...﴾ الآيات [١-١٩] ٢٦٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا بئس ما كُنَّا فِيهِ نَدِينُ...﴾ الآيات [٢٠-٣٤] ٢٧٧

- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ...﴾ الآيات [٤٩-٣٥] ٢٨٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ آبَائِكَ دِينًا بَرًّا...﴾ الآيات [٦١-٥٠] ٢٩٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ...﴾ الآيات [٨٢-٦٢] ٢٩٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ مِنَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دَارِهِمْ لِأَزْهَبَ...﴾ الآيات [١١٣-٨٣] ٣١٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَنْ هُمْ عَلَىٰ مُؤْمِنٍ غَافِلُونَ...﴾ الآيات [١٣٢-١١٤] ٣٣٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَوْلَا لَيْنُ الْمُرْسَلِينَ...﴾ الآيات [١٤٨-١٣٣] ٣٣٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِنَهُمُ الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَالَهُمُ الْبَنُونَ...﴾ الآيات [١٤٩-١٧٠] ٣٤٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآيات [١٨٢-١٧١] ٣٥٢
- تفسير سورة ص ٣٥٧
- المقدمة ٣٥٩
- أ- اسم السورة: ٣٥٩
- ب- مكان نزولها: ٣٥٩
- ج- موضوعاتها: ٣٥٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْمَانِ ذِي الذِّكْرِ...﴾ الآيات [١١-١] ٣٦٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنٌ ذُو الْأَوْدَادِ...﴾ الآيات [٢٠-١٢] ٣٧٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتِكَ نَبِيُّ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ...﴾ الآيات [٢٦-٢١] ٣٨٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا...﴾ الآيات [٢٩-٢٧] ٣٩٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ...﴾ الآيات [٤٠-٣٠] ٣٩٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُحْسٍ وَعَنَابٍ...﴾ الآيات [٥٤-٤١] ٤٠٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿هَذَا وَرَأَىٰ لِلطَّغْيِينِ لَشْرَّ مَتَابٍ...﴾ الآيات [٧٠-٥٥] ٤١٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ...﴾ الآيات [٨٨-٧١] ٤٢٧
- فهرس الموضوعات ٤٣٧



مفكرة



Blank lined page for writing, featuring a double horizontal line at the top and a series of single horizontal lines below. Each line is accompanied by a small icon of a pen nib on the right side.



مفكرة



A series of horizontal lines for writing, with a small icon of a pen tip at the end of each line on the right side. The lines are spaced evenly down the page.



مفكرة



A series of horizontal lines for writing, with a small icon of a pen nib at the end of each line.



مفكرة



A series of horizontal lines for writing, with a small icon of a pen nib at the end of each line.

دار ابن الجوزي 8428146



9 786038 274958